نيّر البرهان

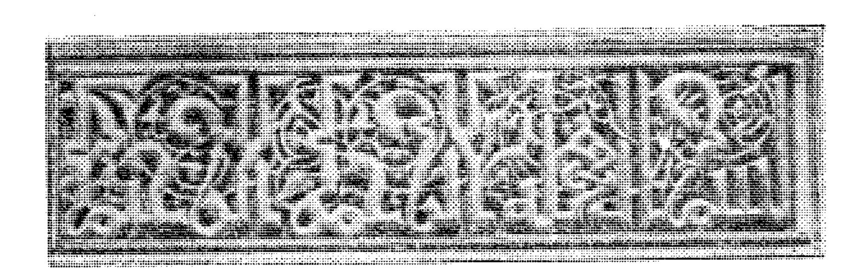
في توطيد عقائد الإيمان

بقلم

محمد علي الشرفي

الأستاذ بدار العلوم بصنعاء

الجزء الأول



تقديم الكتاب

بقلم : صاحب الفضيلة :
محمد محمد المدنى

بسم الله الرحمن الرحيم

أخونا الأستاذ الجليل الشيخ محمد على الشرفى الصنعانى ، عالم محقق من كبار علماء اليمن الذين توفروا على خدمة العلوم الاسلامية بحثا وتنقيبا ، وفحصا وتحقيقا ، منذ شرة الشباب الى أن بلغ سن الكهولة — أطال الله فى حياته ، ونفع الاسلام والمسلمين بعلمه وبركاته .

وقد توافرت له من هذه المثابرة على البحث والنظر مع عقله الراجح ، وفكره الثاقب ، واخلاصه الشديد للعلم والدين ، جميع أسباب القوة والأصالة والعمق ، فاذا درس بحثا رأيته يبذل فى سبيله أعظم العناية ، ويحيطه بأكرم الرعاية ، ويجند له نفسه تجنيدا ، ثم يقدمه لقارئه أو سامعه ممهدا له بكل مقدماته ، معالجا له من جميع أطرافه ، مسترسلا فيه استرسال الواثق الضليع ، حتى يصل به الى الغاية ، دانى القطوف ، مبارك الثمرات ، فاذا عرض له فى أثناء تقرير فكرته سانح أو بارح من سوانح العلم والأدب وبوارحهما ، وقف عنده ، وتلبث له ، واستطرد يعطى القارىء فائدته وطرفته ، فى تعليق يتمم ، أو حاشية توضح ، ذلك بأنه فياض فى العلم كما هو فياض بالجود ، يرى قارئه ضيفا عليه من حقه أن ينال الكفاء الكامل الذى لايحتاج معه الى غير مضيفه .

عرفت فيه هذا المنهج من بعض ما اطلعت عليه من آثاره ، وعرفته فيه حين جلست اليه زائرا فى فندقه الذى نزل به من فنادق القاهرة يوم كان ضيفا على الجمهورية العربية منذ أكثر من سنتين .

وكان سبب زيارتي اياه في هذا الفندق ماسمعته عنه من الرجاحة وقوة الملكة ، وما أحرص عليه من لقاء العلماء والحديث اليهم ، وما أنا بصدده بين جماعة من فضلاء أهل العلم والفكر ، من التقريب بين المذاهب الاسلامية ، حرصا على الوحدة ، ورغبة في جمع الكلمة ، وايمانا بحق الأخوة .

فلما لقيته لأول مرة ، ثم جلست اليه ، جرى بيننا الحديث عذبا متنوعا، تتجاذب فيه أطراف المسائل التي تشغل المسلمين ، والمشكلات التي يواجهونها في هذا العالم الحديث ، فوجدت الرجل في علمه وفضله وسعة أفقه على حد قول الشاعر :

سمعت به حينا ، فلما رأيته

رأيت بعيني فوق ماكنت أسمع !

ثم أطلعني على مشروع هذا الكتاب « نير البرهان » في « فهرست » وضعه له ، وقص على قصته ، ورغب الى في أن أقرأ هذا المشروع أو هذا الفهرست ، فأخذته معي ، وعكفت عليه في منزلي قراءة وفحصا ، وتأملا في موضوعاته ، فزادني ذلك ثقة في علمه وفضله ، وكتبت له يومئذ كتابا حييته فيه ، وأثنيت عليه بما هو أهله ، وتبادلنا الشكر ، ثم الوداع حيث سافر على بركة الله عائدا الى اليمن بعد انتهاء ضيافته .

لقد سرني أن أجد هذا الصنف من العلماء المبرزين في علم الدين ، الذين يحتذون حذو الأوائل في التحقيق والتدقيق ، ولا يعجلون حين يدرسون أو يصنفون ، وسرني أن أعلم أن موضوعات هذا الكتاب كانت في ذهن صاحبها يفكر فيها ، وينتهج لها ، وأن كثيرا منها قد حضرت له مسوداته بعد تلقي السؤال عنه ، ثم بلغني أنه بعث بالكتاب الى المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، كي يطبعه وينشره تعميما للنفع به ، والافادة منه .

وقد قص فضيلته على ما قصه في مقدمة الكتاب من أنه تلقى رسالة من عالم مصري هو أخونا الفاضل الأستاذ سليمان دنيا يطلب اليه فيها أن يدلي برأيه العلمي في موضوع (البعث عند المعاصرين من المفكرين ورجال

الدين) معاونة لطالب تركى تقدم برسالة للحصول على درجة « الدكتوراه » فى التوحيد والفلسفة تحت اشرافه فى كلية أصول الدين بجامعة الأزهر .

وهذا روح عظيم يصور الزمالة العلمية بين علماء المسلمين أبدع تصوير : أستاذ فى القاهرة ، وطالب من تركيا ، ومرجع من اليمن ! ثم لايقف الأمر عند هذا الحد من محاولة الارتباط العلمى بأيسر اجابة ممكنة سريعة على سؤال ، بل ينتهى الأمر بكتاب يؤلفه ذلك العالم اليمنى ، تفيد منه المكتبة الاسلامية فائدة ثابتة خالدة ، لا سريعة ولا عارضة !

فمن واجبنا أن نفخر بهذا الروح الطيب ، وأن نحمد الله تعالى على أن أبقى هذا اللون من الاخلاص للعلم وللدين ، على ما نعرف من انصراف كثير من الناس فى هذا العصر عن قضايا العلم والدين .

ولقد قلت فيما تقدم أن المؤلف يستوعب كل ما يتصل بالموضوع الذى يعنى ببحثه ، وان القارىء ليرى هذا فى مختلف فصول الكتاب ، واذا لم يكن بد من التمثيل بفصل من الفصول ، فانى أضع يد القارىء على الفصل الممتع الذى عقده المؤلف اثباتا لعلم الله تعالى بالجزئيات فى صفحة ٧٣ من الكتاب .

فمن المعروف أن هناك قوما من قدماء الفلاسفة يقولون افكا وزورا : ان الله تعالى لا يعلم الجزئيات ، ولكن علمه انما يتعلق بالكليات والأمور على سبيل الجملة لا على سبيل التفصيل .

وقد أشار القرآن الكريم الى هذا القول الباطل حيث يقول الله جل شأنه :

« ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون . حتى اذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » (١) .

(١) الآيات من ١٩ ـ ٢٣ من سورة فصلت

ومحل الاستشهاد هو قوله تعالى « ولـكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون » الى آخر الآية .

والقرآن الكريم يبطل هذا المذهب بهذه الآيات ، وبكثير من الآيات الأخرى التى تدل على شمول علمه لكل صغيرة وكبيرة ، ويقرر أنه مذهب يفضى بأصحابه الى الخسار ، لأن الانسان اذا ظن أن الله لا يعلم كثيرا مما يعمل ، أحس بأنه لا رقيب عليه ،وأنه لا احصاء لما يفعل ، وذلك انكار ليوم الحساب والجزاء ، لاتستقيم عليه أمور الناس ، ولا يمكن أن تصلح معه مجتمعاتهم ، ذلك بأن الانسان ظلوم غشوم ، يقتحم الحرمات اذا أمن الرقابة، وقلما تجد انسانا يتعفف عن الظلم الا لعلة ، والشاعر يقول :

والظلم من شيم النفوس فان تجد

ذا عفـة ، فلعـلة لا يظلـم !

وهذه العلة التى تمنعه من الظلم ، اما دين حاجر ، أو عقل زاجر ، أو سلطان قاهر ، أو عجز ظاهر ، وكلها قد تغيب الا الدين فانه لايغيب عن قلب المؤمن الصادق الايمان ، فاذا لم يكن ايمان صادق ، فالحواجز كلها تنهار ، ولذلك حرص الاسلام على تربية الوازع الدينى فى القلوب ، وكان أساس ذلك هو تقرير البعث والحساب كعقيدة ثابتة لايتم الايمان الا بها .

وقد عقد الشيخ حفظه الله لهذا البحث فصلا من فصـول كتـابه هو « الفصل الثالث فى الايمان باحاطة علمه تعالى بالكليات والجزئيات ، فى العلويات والسفليات » (١) .

وقد استغرق هذا الفصل اثنتى عشرة صفحة من الكتاب ، وتفرع عنه عدة فصول ممتعة ، أسهب بها فى بيان الحق من أوجه مختلفة ، مستدلا بآيات القرآن الكريم ، وقضايا المنطق ، وأقوال المحققين من علماء المسلمين، حتى شفى ما فى النفوس ، وأفضى الى النتيجة التى لا يسع المؤمن العاقل الا أن يسلم بها .

---

(١) من ص ٧٧ - ٨٩

ولست أريد أن أكرر معلومات هذا الفصل أو هذه الفصول فأذكرها فى هذا التقديم ، ولكن أريد أن ألفت أنظار القراء اليها ليعرفوا منهج الشيخ فيها ، ويدركوا مدى جهده فى تحقيق الحق ، وابطال الباطل ، وكيف أنه تتبع كل موضوع من شأنه أن يخدم قضية البعث والمعاد ، تتبعا مستقصيا ، وربط فيه القديم بالحديث ، والمسموع بالمعقول ، فليقرأ القارىء هذا الفصل كمثال لما قلناه ، ولنترك له الفرصة كى يدرك بنفسه مدى ما احتواه من علم غزير ، واستقصاء بديع .

وتلك فى الواقع هى سنة هذا الكتاب كله : تتبع ، وتمهل ، ودقة فى البحث والنظر ، تجعل القارىء يشارك الكاتب ، ويذوق ما ذاق ، ويحكم بما حكم .

وهذا الكتاب ليس سوقا للعوام ولا لأنصاف المثقفين وانما هو رسالة عالم الى علماء ، كما قلنا وقال مؤلفه ، ولذلك اطلعت عليه (لجنة القرآن والحديث) فى المجلس الأعلى للشئون الاسلامية فأكبرت أمره ، وعرفت قدره ، وقررت أنه كتاب للخاصة .

وانما أقول هذا ليعرف بعض المطلعين عليه أنه يقتضى عقلا ثاقبا ، وجهدا دائبا ، ونظرا صائبا ، فمن استطاع الى ذلك سبيلا فليقدم عليه ، أو فليعكف عليه ، ومن لم يستطع فلا يكلف الله نفسا الا وسعها ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

محمد محمد المدنى

رئيس لجنة القرآن والحديث بالمجلس الأعلى للشئون الاسلامية
ورئيس قسم الفقه بكلية الشريعة فى جامعة الأزهر

القاهرة فى { المحرم سنة ١٣٨٧ هـ
ابريل سنة ١٩٦٧م }

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين وعلى آله وصحابته الراشدين ، وعلى من اقتفى آثارهم وتبعهم باحسان الى يوم الدين . وبعد ..

فان مما تتنافس فيه أقلام عدول هذا العلم الشريف . النافين عنه نحل المبطلين بالتأويل والتحريف ، وتتحاك فيه أقدام أنظار العلماء الراسخين وتحلق أجنحتهم فى سماوة أفكار المفكرين بعد معرفة الصانع الحكيم حق معرفته وتنزيهه عن كل ما خالف محكم التنزيل والعقل السليم التى لا تغيرها شبه الملحدين ولا ارتوى صاحبها من آجن الفلسفة ولا اغتر بما يغير الفطرة مما يعده الشرع من القول الباطل والسفه هو الاشراف على رياض القرآن الكريم واقتطاف يانع قطوف هدايته التى لا يضل ولا يشقى من اعتصم بها ، والتطلع من صحيح السنة النبوية والعض بالنواجذ عليهما وعلى ما اشتملا عليه من التكاليف الدينية والدنيوية والمعاملة الانسانية والأخلاق المرضية والآداب الكمالية ومعرفة المبدأ والمعاد وحشر الأرواح يوم يقوم الأشهاد ، يوم الحشر والتناد ، والتزود لذلك اليوم بخير الزاد ، ومعرفة السعادة الأبدية فى دار القرار الأخروية ومعرفة حكمة أحكم الحاكمين فى كل أفعاله وأقواله على الاطلاق ومعرفة صدق رسله ونصيحتهم للبشرية ، وتبليغهم شرائع الملك الخلاق ، هذا وقد يقال فى الأمثال : جزى الله الأسباب خيرا ، وفى الحديث النبوى « الدال على الخير كفاعله » رواه البزار عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعا والطبرانى عن سهل بن سعد وعن أبى مسعود البدرى وأحمد والستة والضيا عن بريدة بزيادة « والله يحب اغاثة اللهفان » وابن أبى الدنيا عن أنس ، والأحاديث والآثار فى هذا مشهورة .

وقد وردت الى خصوصا ، والى علماء اليمن عموما رسالة من القاهرة مهبط العلماء والمتعلمين ، ومنبط العلوم والمعارف فى شتى الميادين من حضرة الدكتور المحترم « سليمان دنيا » أستاذ الفلسفة المساعد بكلية أصول الدين من القاهرة ومشفوعة برسالة الأستاذ الكبير « على أرسلان آيدين » من تركيا المسلمة الذى أتم دراسته فى التوحيد والفلسفة ، وقد اختار الأستاذ «على» أستاذه الدكتور «سليمان» ليكون مشرفا على البحث الذى ألفه تحت عنوان « البحث بين المتكلمين والفلاسفة» وعرض عليه فكرته قائلا حيث أنى قد انتهيت من دراستى فى شعبة التوحيد والفلسفة وسجلت موضوع رسالتى ، رسالة الأستاذية « الدكتوراه» بكلية أصول الدين عنوانه « البحث بين المتكلمين والفلاسفة » وقطعت فيها مرحلة كبيرة ، وقد تعلق بذهنى أثناء بحثى الفكرة الآتية لماكتبت مذاهب المتكلمين عامة وعرضت أفكارهم فى البعث عرضا محايدا وسلكت نفس المنهج نحو الفلاسفة الالهيين وغير الالهيين ، واخترت منهم أصحاب المذاهب العظمى والممثلين المشهورين فى كل عصر من عصور الفكر الانسانى حتى عصرنا هذا رأيت أن أفتح بابا جديدا تحت عنوان « البعث عند المعاصرين من المفكرين ورجال الدين » قال والغرض من هذا الباب هو عرض آراء المفكرين ورجال الدين الممتازين بقطع النظر عن أديانهم وأوطانهم تكملة لموضوع رسالتى وحبا فى اعطاء فكرة كاملة للقارىء فى هذا الموضوع الخطير الذى شغل التفكير الانسانى منذ أقدم العصور الى عصرنا هذا والذى جعل من أهم أركان الأديان السماوية ، ولما عرضت هذه الفكرة على السيد أستاذى الجليل المشرف الفاضل وافق عليها وتكرم بالتعاون معى فى اختيار العلماء ورجال الدين نعرض عليهم هذه الفكرة ونرجو منهم التكرم بارسال آرائهم القيمة فى هذا الموضوع وتعاونت مع بعض سفارات الدول الاسلامية فى اختيار العلماء الممتازين فى بلادهم كى نرسل الطلب العلمى اليهم ولذلك رأينا أن نعرض عليكم هذا الطلب راجيا من سيادتكم ارسال رأيكم القيم الينا بأسرع وقت ممكن وببريد مسجل حتى ندرجه فى رسالتنا وننشره بالنص الكامل والفكرة التى أضعها بين يدى سيادتكم رجاء التكرم بعرض رأيكم

فيها هي «هل البعث جسماني فقط أم جسماني وروحاني أم روحاني فقط» ؟ وعلى أية حال فما هو رأيكم في حقيقة الانسان والروح الانساني أو النفس الانسانية . انتهى حتى قال وتفضلوا بقبول جزيل الشكر وفائق الاحترام .

القاهرة في ١٤-١١-١٩٦٠م . الدكتور سليمان دنيا أستاذ الفلسفة المساعد بكلية أصول الدين والباحث على أرسلان آيدين يحضر لرسالة الأستاذية تحت اشراف الأستاذ الدكتور المذكور الخ ولم أحتج الى نقل الرسالة الأخرى من الأستاذ على أرسلان الى خاصة والى علماء اليمن عامة استغناء بما تقدم ، على أني انما نقلت مقاصد الرسالة لأجل حفظ لفظ السؤال ومعرفة مقصود الباحث كي يقف الباحث على المقصود والهدف المنشود ويعرف من أين تؤكل الكتف ، واني لقائل ما قالته الأوائل لقد استسمنت ذا ورم ونفخت في غير ضرم ، اذ مثلي لا يعول عليه في سؤال ، ولا يقوم بجواب هذا البحث غير الراسخين في العلم من كملاء وفطاحل الرجال لاسيما المتقدمون منهم ، وقد أوضحوا فيه الغث من السمين وبينوا فيه السبيل المستبين مع خطورة هذا المقام الذي زلت فيه من الباحثين الأقدام ، غير أني لا أستطيع الترك والامتناع وان كنت قصير الباع «ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله» فجمعت هذا الكتاب القيم مستعينا بأقوال الراسخين في العلم وكلام المحققين من علماء الدين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون .

وعسى أن تتاح لي الفرص السانحة لعرض هذا المؤلف على علماء اليمن أو بعضهم لأخذ آرائهم كما اقترح السائل في رسالته أبقاه الله ، وجل ماتجده هنا يرجع الى القاهرة وعلماء الأزهر ، فالسؤال من هناك والجواب الحقيقي كذلك ، انما أنا ناقل ومقرب كما يتضح لك مما نقلته عن علماء الأزهر وهو غير قليل وما خرج عن ذلك فكثير منه أو أكثر يرجع الى ما نشرته المطابع المصرية (فالفضل (١) في الحالين) يرجع الى رجال مصر وعلمائها واليهم يرجع السبق والتقدم .

---

(١) يشير الى قول الامام الشافعي رضى الله عنه :

قالوا يزورك أحمد وتزوره ... قلت الفضائل كلها في منزله

ان زارني فبفضله ، أوزرته ... فلفضله ، فالفضل في الحالين له

ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

وكم طال تعجبى واستحسانى لهذا الموضوع الذى قام به وأشار اليه الأستاذ على أرسلان اعانه الله على تحقيق الحق فى هذه الأبحاث لتكون للمحققين خير دستور وأحسن تراث وللنشء الاسلامى ذخيرة وكنزا لهم لأنه قام بفكرة عويصة ورفع منظار فكره الى أنظار عميقة اضطربت فيها الآراء واعتاصت على عقول الجهابذة النبلاء قديما وحديثا كما قال أبو العلاء المعرى :

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

ولكن لا أسكن الا تحت ظلال الشرع الشريف ، والعقل السليم والفطرة الصحيحة السليمين من التغيير فيما للعقل فيه مجال ، لأن مسائل الاعتقاد لاسيما ما يتعلق بالمعاد والذات والصفات لأنه من علم الغيب وانما يؤخذ من الشرائع ولا يقدم فيها الا الوحى المحيط بعلم الغيب والشهادة وأحوال السعادة والشقاوة (١) ولذلك كانت مراحل الدنيا تنتهى اليهما فى الآخرة وكم زلت أقدام وأقلام الفلاسفة وأتباعهم المحكمين لعقولهم الضالة والحدس والظنون فيما لم يحيطوا به علما « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » « وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » .

على أن الأنظار الاسلامية يحتاج الباحث فيها الى امعان النظر الصحيح المطابق لمقاصد الوحى كما قيل .

وليس كل خلاف جاء معتبرا الا خلافا له حظ من النظر

وكم حاك فى صدرى من اشكال وقع فيه من وقع ، لما اقتفى آثار الفلسفة وقطع ، ويأتيك ان شاء الله ما فيه بلاغ ومقنع لمن توفق واستغنى واقتنع ، والا فمجال المقال ومقام الكلام كما قال المتنبى :

---

(١) أما أصل المعرفة المترتبة على صحة تفكير العقل ونظره فى أدلة التوحيد وفى صحة النبوة المترتبة فى المعجز الشرعى فهى عقلية محضة والا لزم الدور وكم أرشد الله الى استعمال العقول بالنظر فى الدلائل التوحيدية ودلائل النبوات الصحيحة كما لا يخفى .

وقد وجدت مكان القول ذا سعة　　فان وجــدت لســانا قائلا فقل

ويمكن تلخيص المقام فى جواب اجمالى اقناعى للمقتنع وتضمنى ينفع من يطلب من الحق ما يريد به أن يكتفى وينتفع ، وتفصيلى بقدرة الباحث العارف الخريت المضطلع وأنا رجل من بنى الانسان الذين يغمرهم الخطأ والنسيان وأملى فى أهل العلم والصلاح أن يمدوا أقلام التصحيح والاصلاح وأن يتغاضوا عن ما عرفوا فيه السهو والخلل فجل من لاعيب فيه وعلا ، ومن آداب المؤمن أن يحتمل لأخيه المؤمن .

« وعين الرضا عن كل عيب كليلة　　كما أن عين السخط تبدى المساويا » (١)

***

فصــل

أما الجواب الاجمــالى الاقنــاعى لمحققى الاســلام فالمعــلوم من ضرورة الدين الاسلامى ومن دين الأنبياء والرسل كافة ومحكمات القرآن العظيم ومتواتر السنة النبوية وسائر الكتب السماوية واتفاق أهلها كما يأتى واجماع علماء الاسلام الراسخين ــ غير من شذ من المتفلسفين الخارجين عن اعتبارهم فى نصاب الاجماع الشرعى ــ ان المعاد الانسانى جسمانى وروحانى معا ، بل والحيوانى كذلك . قال تعالى « كما بدأنا أول خلق نعيــده » . « أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد » . «كما بدأكم تعودون» « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى »

« واذا القبور بعثرت » .

هذا وقد صرح علماء الدين فى كتب التوحيد والكلام والأصــول والفروع أن كل ما مستنده الضرورة الدينية من المسائل القطعية لا يحتاج الى

---

(١) والى هنا تنتهى مقــدمة المؤلف ، وأرجو الله أن يوفق سادات علماء الأزهــر الشريف وفطاحل النيــل ونبلاء الكنانة أن يضعوا لهذا المشروع مقدمات تعريف بالكتاب وتقاريظ كما هى عاداتهم عند التصحيح والطبع . تمت .

اقامة الدليل عليه ، الا بيانا للمستند الضرورى ، ولا الى الاحتجاج والتطويل كيف بما اتفقت عليه الكتب السماوية وجميع أهل الملل المتمسكين بها . اللهم الا من شذ فكما تقدم . ولو فتشت اجماع الأمة المحمــدية المعتبر فى باب الاجماع لوجدت اجماعا بعد اجماع من خير القرون الى يومك هذا ، والغد على ذلك . وهذا القدر يكفى المكلف المؤمن اعتقاده اجمالا من غير بحث فى الشبه الفلسفية والتشكيكات والاستبعادات الكفرية التى قد فرغ علماء الاسلام قديما وحديثا من الأجوبة عنها . كما أجاب القرآن عما ورد منها فى عصر النبوة بل وفى عصر كل نبى بلسان الحال أو المقال مع اقامة الحجج والبراهين على أهل الزيغ والالحاد والجدال . كما حكته محكمات القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية فانها تزيح كثيرا من الاشكالات والتشكيكات فى هذا المقام ويأتى بعض ذلك فى الجواب التضمــنى والتفصــيلى . مع الجواب عن ماهية الانسان . والنفس . والروح . ان شاء الله تعالى .

***

فصــل

وأما الجــواب التضــمنى : والمراد به هنــا ما يــدل على المطلوب تضمنا أو التزاما كما تقــرر فى بحث الدلالة الوضــعية وفيه أبحاث هامة ومقاصد خاصة وعامة .

وان كان الأســتاذ البــاحث أبقــاه الله قــد هــون المقــال فى السؤال فقد أوسع المجال وأعظم معنى السؤال لتضمنه البحث والتحقيق عن القيل والقال ، على أنى لم أقف على رسالته الغراء التى يريد تذييلها وطلب آراء العلماء فى موضــوعها وعلى الأخص فى الســؤال المذكور حتى أعرف مدى شوطه وأفهم مقدار الكلام على صدى صوته ولا شك أنها تشــتمل على فصول وأبواب ، لأن قوله لما كتبت مذاهب المتكلمين عامة ، وعرضت أفــكارهم فى البعث محايدا وسلكت نفس المنهج نحو الفلاســفة الالهيين وغير الالهيين ، كل ذلك ينم ويشعر بالبسط والتوسع وتطويل النطاق فى مهمات المسائل التى لاتخرج عما نحن بصدده ، ومع هذا الاجمال فقد رأيت

تقديم فصول تكون كالقواعد الكلية التى يؤخذمنها الجواب تضمنا أوالتزاما
وقد يكون فى بعضها ماهو صريح ومطابق كالفصل التاسع والعاشر والحادى
عشر والثانى عشر والثالث عشر ، لأن المسائل الاعتقادية والفلسفية مايترتب
بعضها على بعض . فمن آمن وأقر واعترف بأصل منها أقر واعترف بما تفرع
عليه ، ومن خالف فيه خالف فيما تفرع عليه ، ثم أعقب ذلك بالجواب
التفصيلى فى الفصول المذكورة كالتأكيد لذلك . ان شاء الله تعالى .

***

الفصل الأول

أن العالم وهو اسم لما سوى الله تعالى كله محدث غير قديم أصوله وفروعه ، عناصره وجواهره ، أعراضه وأجسامه ، حيوانه وجماده (١) وعليه يمتد جسر الجواب المستقيم الدال على الصانع المبدع الحكيم ، لأن من خالف في هذا الأصل العظيم كملاحدة الفلاسفة وغيرهم أخطأ خطأ عظيما فيما وراءه من مسائل التوحيد ، فضلا عن الوعد والوعيد ، سواء كان من أهل النظر فأخطأ في نظره لتقصيره في تصحيح مقدماته ، أو كان مقلدا لمن أحسن به الظن كما هو دأب المبطلين المتعصبين أولي التقليد حتى في أصول الدين ومعرفة رب العالمين ، أو كان متمسكا بما كان عليه أسلافه أو متبوعه (٢) « اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا » كما ورد ذلك في محكم القرآن الحكيم . « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » . وفي آية « وانا على آثارهم مقتدون » فمن خالف في ذلك خالف في كثير أو في أكثر الأصول الاسلامية وأنكر كثيرا من القواعد الدينية وعطل كثيرا من العقائد التوحيدية وما تنزلت به الكتب السماوية فضلا عن ركن من الأركان الايمانية كما يظهر ذلك بالتتبع لخلاف الفلاسفة وأتباعهم في جل المسائل الاعتقادية ، وتفصيل ذلك يؤخذ من كتب التوحيد والكلام الواسعة ، وتأتي الاشارة الى ذلك ويتفرع على القول بقدم

---

(١) والمراد هنا بيان خلاف الفلاسفة في جل أو كل العقائد الاسلامية وردع المقلدين لهم والمغترين بشبههم . أما الأدلة العقلية على حدوث العالم فيطول بسطها وقد قررها العلماء في مظانها وكنت جمعت منها كثيرا في التعليق على ينابيع النصيحة كدليل الدعاوى ودليل الاختلاف ودليل الامكان ودليل التأليف . ودليل الجواز . ودليل القياس العقلي وهو يرجع الى كلية قطعية وهي أن الشيء لا يوجد نفسه وأن الفعل لابد له من فاعل . وأما دليل السمع فكالآيات المشيرة لدقائق المعقول وهي زهاء خمسمائة آية . تمت .

(٢) وسأشير في هذا الفصل الى أبحاث قيمة من كلام العلماء الذين حموا حوزة التوحيد ودافعوا عن عقائد الاسلام سواء أكانت تتعلق بخلافات الفلاسفة وأتباعهم فيها بحدوث العالم أم بالذات والصفات أم بالنبوات أم بالوعد والوعيد أم بتحريفهم لكلام الله ورسوله والقصد التنبيه للبيب النبيه من غير نظر الى ترتيب أو تقديم وتأخير وعسى أن تلوح الفرصة فأرتب هذا الكتاب وأقدم وأؤخر ان شاء الله فلا يبادر المطلع بالانتقاد قبل ان يعرف المراد .

العالم لزوم نفى الصـــانع المختار الذى يفعل ما يشاء ويختـــار ولزوم نفى الصفات ولزوم نفى كونه مؤثرا فى الحوادث اليومية ، وهو يقول «كل يوم هو فى شأن» فان الطبائعية والمنجمين والماديين والدهريين والزنادقة ومن ضاهاهم كالقرامطة والباطنية لايخرجون عن دائرة الفلسفة الكفرية لاتساع نطاقها وتعدد أزقة أسواقها ، وهى أساس كل الحاد ، اذ لايقبلون دعوة الرسل ولا يحكمون الشرائع السماوية والكتب الربانية قديما وحديثا الا مثل الباطنية ومن ضاهاهم ، ولكنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون بالســابق والتالى والعقول والنفوس الآتى بسطها فى كلام الفلاسفة فلا يخرجـون عن دائرة الفلسفة فى الحقيقة . نعم فهؤلاء هم فلاسفة الكفر والالحاد لنفيهم الصانع الحكيم المختار ، اما صريحا واما التزاما كما تقدم تمسكا بالعلل والأسباب التى يزعمونها مؤثرة بالذات ، وقد لزمهم كما تقدم نفى صفة الخالقية للخالق البارى المصور والرازقية والقادرية والعالمية ، بل هم مصرون على ذلك ، بل مصرحون به ، وهى من صفات الله عز وجل الذاتية والفعلية ونفى المعاد الجســمانى كما يأتى ، وما يترتب عليه من أمور الآخرة والاقرار بالمعــاد من أصــول الدين الاسلامية وخامس الأركان الايمانية . وهم بمعزل عن كل ذلك بل مذهبهم الصريح التعطيل للصفات والالحاد فى الذات ، كما لزم ترك الشكر على أصول النعم وفروعها . ظاهرها وباطنها لأنهم لا يسندونها الى الصــانع المختار المتفضل .

ولقــد كاد أن يفشو فى عصرنا ترك الشـــكر والعبادة لله عز وجـــل كما تجرى على ألسنة بعضهم كلمات تشعر بالزندقة والانسلاخ من الدين . وكما يأتى فى كلام المحقق المقبلى وغيره اقتفاء للطبائعيين والماديين (١) وتشبها بأخلاق الكفر الأوربية ويأتى فى كلام الغزالى وغيره ما يصرح بأن أمثـــال هؤلاء قد عاشروهم وقد يصرحون بذلك فى مؤلفاتهم ومثل هؤلاء وأسلافهم من الفلاسفة وأهل الجحود هم الذين قامت عليهم الحجج الالهية والبراهين

---

(١) وهذا الفصل من أهم الفصول لأنه أصل كبير فيها فمن ولج بابه متفلســفا لم يفلح ولن يخرج من الظلمات الى النور ولذلك استرســـل المؤلف فيه وجمع أقوال علماء الدين من أصولهم التى نافحوا وكافحوا فيها فأوسع ليكون الناظر على بصيرة وبذلك تثلج صدور المؤمنين ، على أن هذه النبذة انما هى كالتنبيه على ما وراءها وقد أحلت القارىء الكريم على الأصول الحافلة كما يأتى .

السماوية المثيرة لدقائق العقول الذكية على أيدى الأنبياء والمرسلين ، ثم على أيدى علماء الدين فكفروا وتولوا كما قال الله فى أمثالهم « ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » بل قال الله فى أمثالهم بعد رؤيتهم عذاب الآخرة وطلبهم الرجعة ليعملوا صالحا « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون » وكما قال « أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين » فهم من « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » «وغرهم فى دينهم ماكانوا يفترون » . « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله» «بل طبع الله عليها بكفرهم » . « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » وانما طبع الله على قلوبهم لأنهم لم يقبلوا هداية العقول الذكية والفطر الصحيحة السليمة ولا هداية الدلالات المنصوبة فى الآفاق وفى أنفسهم ، ولا هداية الرسل الصادقين المعصومين ولا هداية الكتب السماوية ، فاستحقوا من الله الخذلان وسلب الألطاف والتوفيق والخلود فى النار كما قال تعالى « وجعلناهم أئمة يدعون الى النار » وقال «فقاتلوا أئمة الكفر» وقد أخذ الله تلك الأمم السابقة أخذة رابية ، أخذ عزيز مقتدر ، وأما أمة الدعوة الاسلامية فقد أمنهم الله من عذاب الاستئصال فى الدنيا لقوله تعالى «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» . ومن رحمة الله لأهل الملل الكفرية فى الدنيا تسهيلهم ليزدادوا اثما « أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون » « سنستدرجهم من حيث لايعلمون وأملى لهم ان كيدى متين » (١) . وان كانت آيات الصفح والأعراض منسوخة عند المحققين بآيات القتال المطلقة والعامة . وآيات الجهاد الخاصة عليه بعد أن قويت شوكة الاسلام ونزلت آية السيف وغيرها ، والسنة طافحة بذلك ، ومنها حديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله وانى رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » .

---

(١) ومعيار الكلام فى هذا قوله تعالى « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض » ويأتى البحث فى هذا فى فصل الحكمة . انتهى .

الحديث متفق عليه عن ابن عمر رضى الله عنهما ، وله ألفاظ وطرق حتى عده الحفاظ فى الأحاديث المتواترة الى قوله وانى رسول الله ، والزيادة متفق عليها كما تقرر فى مظانه .

فالجهاد دائما يكون مع شرائط مفصلة فى أبواب الجهاد ومنها ظن الغلب « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . والقوة تختلف زمانا ومكانا ، وليس هذا موضع التفصيل والقصد والاشارة (١) .

نعم ، وأما أمة الاجابة وهم المسلمون فهم أولى بالرحمة وأحق وأولى بها وفيهم ورد مثل حديث « سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة : سألت ربى أن لا يهلك أمتى بالسنة أى الجوع والقحط فأعطانيها ، وسألته أن لايهلك أمتى بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » متفق عليه عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه . انما الشأن فى أمثال الذين اقتدوا بهؤلاء المتفلسفين وهم من أهل الاسلام فكانوا كالذين اشتروا الضلالة بالهدى ودخلوا فى تيه ظلمات ضلالهم فهم لا يهتدون . ومن هنا تعرف أن نقل كلام الفلاسفة الموسومين بالحكماء لاسيما الذين هم أركان أئمة الكفر فى كتب الاسلام والمقالات الالهية من غير بيان فساده وبطلان ما خالف الاسلام منه ونافى القرآن وصادم قواطع الايمان ، خطأ وخلط للحق بالباطل وتطويل من غير طائل وتشكيك على ضعفاء العقول بل على عموم العوام وتضليل لهم .

***

فصل

واليك نبذا من كلام من خبر وسبر وحرر وقرر من علماء الدين المحققين والجهابذة الراسخين .

---

(١) وقد ذهب بعض المتأخرين الى الجمع بين آيات القتال وآيات السيف « فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » الآية . « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » أى شرك ونحو ذلك وبين آيات الصفح والاعراض ونحو قوله تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » الآية : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم » فجمع بين ذلك باعتبار الاحوال والتمكن والاستطاعة .
أو بابتدائهم القتال كما فى أول شرعية الجهاد لقوله تعالى «أذن للذين يقاتلون» أى أن يقاتلوا « بأنهم ظلموا . وان الله على نصرهم لقدير » وهو جمع حسن ومؤلفات بعض علماء مصر تشير الى هذا فتأمل .

قال المحقق المقبلى فى العلم الشامخ ص ٢١٠ :

« واعلم أن هذه الأبحاث الفلسفية التى أدخل المتكلمون فى أنظارهم وأبحاثهم حياة لآثار الفلاسفة التى يجب السعى فى هدمها فانهم رؤساء الضلال والالحاد ، وقد أكثرت الأشاعرة عنهم حتى أن الكلام فى مباحث الأعراض ولطيف الكلام كالمتحد لاتجد بين كلام الاسلاميين والفلاسفة فرقا كبيرا فى المعنى ولا فى الاصطلاح . وانظر المواقف وغيرها ان شئت حتى تهذيب سعد الدين مع اختصاره ، ومع ذلك يسمونهم الحكماء . والمنطق شعبة مما ذكر وان كان دونها بالنظر الى اعتوار الأنظار له وانه كلام على آلة الاستدلال ، والخلل فيه كسائر العقليات بل هو أقلها الا كما يزعم من يجهله كالقرشى فى المنهاج حين سمع تمثيل المشهورات بحسن العدل والاحسان . والخطأ فى المثال لايتضمن الخطأ فى القاعدة لكنه مع ذلك لاخير فيه ، لأنه من آثار الضلال وها قد عاش الناس ودانوا بدون المنطق ، والذين اعتبروه وقطعوا فيه بعض أعمارهم لم ترهم يستعملونه فى كلامهم على الاستدلال الا فى الندرة ، شبيه الفاكهة فهذا النمط كله من قسم البدع التى هى بين العظيم والأعظم ، واذا كانت التوراة مع أنها كلام الله سبحانه ، نهينا عن تعلمها ، فما ظنك بما كان فى تلك الأعصار من أنظار المردة المنجمين والسحرة وسائر فنون أهل الضلال فليس لك أن تقول ما سبره العقل ووجده حقا فلا مانع منه فانه لا أعظم مصلحة ولا أكثر خيرا ولا أوفر صلاحا وهداية من كلام الله تعالى ، ولم يأمرنا به بل نهينا عنه انتهى .

ونوزع بأن التوراة قد أخبرنا الله بأن اليهود قد حرفوا فيها الكلم عن مواضعه ، وقد يجاب بأن المحرف كلمات خاصة قد بينها ماسبره العقل ووراء ما علمنا تحريفه مشترك ، لأن الكل قد عاثت فيه أيدى الضلال فهو مظنة التحريف والضلال .

ثم قال فى الانتقاد على كشف الصوفية مع سائر تقاليدهم المبتدعة بعد كلام طويل ص ٢٧٠ ، ما نصه : ومن بلايا هذه والمعطلة والباطنية وأقربهم الى الحق درجة الغزالى وشيعته .

وقال فيه ص ٢٥٨ فى بحث أشار فيه الى ماقيل فى الغزالى الى مالفظه وله فى الشرعيات وسائر الأبحاث مايدل على أنه من أهلها . وعلى الجملة فالرجل أينما بحث فى أى فن بلغ جهده فى تحسينه ، وقد بين هو فى المنقذ من الضلال ، اضطراب حاله وحكم على الفلاسفة بالضلال انتهى .

نعم أما مايرجع الى الصناعات والطب والحساب ونحوها من فروع الفلسفة فهو أبعد مما ذكر وأقرب الى الصحة والقبول ، لموافقته الواقع والتجربة أو الشرع ، ماعدا مايؤدى الى استعمال محرم أو ترك واجب غير مرخص فيه للضرورة ولهذا قال مصحح طبع العلم الشامخ مستدركا مايلى : وقد يقال انما نهيناعن التوراة لتحريفهاوعدمالثقة بأنها كلام الله حقا ولأنها نسخت بشرعنا فاستغنينا بالناسخ الأخير لانه خير من المنسوخ واغناء شرعنا ايانا عن شرع آخر لا يقتضى اغناءنا عن العلوم والفنون التى تنفعنا فى دنيانا فان كانت الفلسفة اليونانية التى مزجناها بعلم العقائد ضارة لتفاهتها وشكوكها فما يقابلها من علوم هذا العصر وفلسفته الدنيوية نافع لأنه مبدأ الصناعات التى تقوى بها الأمة انتهى . أى مع أن ذلك مما لاتعلق له بالدين والاعتقاد ويشهد لهذا عموم قوله تعالى « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة » . والتنوين هنا قد يفيد التكثير أو التعظيم أو يفيدهما معا مع عموم الموصول ، فكلمايرجعالىقوة أهل الدين وتأييدهوحفظكيان الاسلام وحياطة أقطار المسلمين مطلوب شرعا من باب جلب المصالح العارية عن المفاسد ، والعقل يشهد ويحبذ ذلك ، أماالمنسوخمن التوراةفهو محصور معروف ، وشرع من قبلنا يلزمنا على الصحيح اذا ورد تنفيذا به فى شرعنا لأجل الثقة أوحكاه القرآن ولم ينكره (١) والمسألة مبسوطة فى الأصول (٢)

---

(١) ولم تنكره السنة ولم يخالف قاطعا فى شرعنا أو دليلا أقوى كالاجماع أو صحيح السنة

(٢) قال الله تعالى « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا » الآية . الى قوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » وقال « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله » وقال « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » الى قوله «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» وقال فى عيسى « وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ثم عقب الله ذلك بقوله « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » الى قوله « ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون» والحاصل أنا نحكم بينهم بشرعنا عند الترافع الينا وفى الحديث الصحيح « لا تصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم » . لما أشار اليه المصحح والايمان بذلك جملة لا ينافى هذا كله .

ثم ساق المحقق المقبلى بحثا حسنا فى اعتبار أوقات الصلاة ونحوها بالنجوم والبروج والمنازل حتى قال :

قال المنجم فى علمى منافع قد	أقر لى ثلة من جلة الفقها
فقلت ضلوا وكان الحق لو سعدوا	أن يؤثروا السنة البيضا على السفها
مثاله الوقت محسوس علامته	فكيف يحتاجكم فيه امرؤ فقها
وغير ذا مثله للمستضيين وقد	ألغاه سيدنا المختار بل ونهى
لكن تقيد علم الفيلسوف لدى	كل الفنون كما يدريه كل نهى

حتى قال « واعلم » أن مرادنا بالحكم على المنطق ونحوه بما ذكر انما هو من حيثية جعلها قسما من أقسام العلوم الدينية لا من حيث كونها صنعة من الصنائع وكذلك كل ماله هذا الشأن من علم وغيره انما يتحقق الابتداع فيها نظرا الى جعلها جزءا من الدين فليعتبر ذلك حذرا من الجهالات التى قالها كثير من مدعى العلم .

ثم قال فيما يرجع الى الصناعات ونحوها مايلى : وأما كون ذلك الشىء المخترع لا دخل له فى الدين فليس مما نحن فيه ، ولعله اختلط على المذكورين أحد الأمرين بالآخر ، فلو تعلمت المنطق كما تتعلم الهندسة والحساب والخياطة وما لا يحصى من ذلك مخترعا أو قديما لم تكن مبتدعا ولا تاركا سنة ، اما كون الشىء قد تنشأ عنه مفسدة فهذا بحث آخر ليس من قبيل البدعة بل من باب سد الذرائع . ورحم الله بعض المحدثين حيث يقول ان أمكنك أن لاتحك رأسك الا بأثر فافعل انتهى .

ويدخل فى ما أشار الى جوازه تعلم اللغات الأجنبية لما يترتب على ذلك من المصالح والفوائد والمنافع الطبية والصناعية والدولية والقوة البرية والبحرية والجوية كما تقدم ونحو ذلك . أما ما يروونه حديثا مرفوعا « من تعلم لغة قوم أمن من مكرهم » فلم أقف عليه مرفوعا ولعله كحديث « حب الوطن من الايمان » وحديث « حب الهرة من الايمان » وهما موضوعان من حيث الاسناد كما قرره أرباب الصناعة الحديثية . وأما من حيث المعنى فليس كل ما صح معناه صح اسناده على أن

ذلك ليس على الاطلاق لاشتراك الناس فى ذلك مؤمنهم وكافرهم وفى ذلك بحث ليس هذا موضعه . نعم أما تعلم اللغات فقد ورد فيه حديث صحيح وهو شاهد للحديث المذكور الدائر على الألسن رواه الحاكم فى المستدرك ص ٧٥ ج ١ فى كتاب الايمان بكسر الهمزة عن زيد بن ثابت قال : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن أتعلم كتابة اليهود فتعلمت له كتابة اليهود ، وقال « انى والله ما آمن يهود على كتابى » فتعلمته ، فلم يمر بى نصف شهر حتى حذقته وقال انى كنت أكتب له اذا كتب وأقرأ له اذا كتب اليه . قال الحاكم وهذا حديث صحيح ، ولا أعرف الرخصة لتعلم كتابة أهل الكتاب غير هذا الحديث انتهى . والحديث أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح انتهى . وفيه جواز تعلم اللغات الأعجمية أو ندب أو وجوب ذلك كما تقتضيه صيغة الامر للعلة المذكورة من باب تنقيح المناط والقياس الجلى ، لأن الكفار كلهم مشاركون ومشتركون فى العلة مع تقدمهم فى الغوائل والقوات وتناصرهم على الاسلام وتداركهم على المسلمين (١) على أن الاصل فى تعلم مطلق اللغات من غير نظر الى العلة مطلق الجواز والاباحة ، وان قال فى شرح خطبة القاموس .

حفظ اللغات علينا فرض كفرض الصلاة

فليس يحفظ دين الا بحفظ اللغات

أى كل دين لا يحفظ الا بحفظ لغة كتابه وشرعه ، « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » ، فتكون الفرضية على هذا من باب فرض الكفاية عند المسلمين فى تعلم اللغة العربية على تفصيل فى ذلك يعرف من مظانه ، على أن فنون الفلسفة لم ينقلها ويعربها من المسلمين الا من عرف لغة اليونان ونحوهم وما أحسن من يجمع بين اللغة العربية وغيرها مع العلم النافع والدين الوازع والعقل المانع ونفع الاسلام والمسلمين والأمة والوطن ،

---

(١) وكثرة مطاعنهم فى الدين والرسول والقرآن فى صحفهم وتواريخهم ولا يعرف ذلك الا من يحسن لغتهم ويقرأ خطهم ويترجم كلامهم كما يأتى فى ذيل هذا الكتاب وأكثر المسلمين بحثا وردا عليهم علماء مصر والأزهر الشريف والواقع شاهد عدل .

وهذه سانحة ساق اليها السياق تفيد شرعية تعلم اللغات اما وجوبا واما ندبا واما اباحة بحسب مقتضيات الأحوال والظروف والأشخاص ، وأول كرامة من الله تعالى لآدم تؤخذ من قوله تعالى « وعلم آدم الاسماء كلها » أى اللغات ، وقصته مع الملائكة تقتضى تفضيله واختصاصه بذلك ولا شك فى أن ابتداء وضع اللغات توقيفى لصريح الآية ثم اتسع الناس فيها وتصرفوا وتواطئوا ووضعوا . أنظر كتاب المزهر للحافظ السيوطى . نعم وهكذا القول فى تعلم الصناعات والمخترعات وغيرهما كما تقدم .

ولم أنس كلام بعض علماء مصر ونحن فى الحرم المكى لأداء فريضة الحج فى سنة ١٣٧٦ هـ وقد دار البحث فى العلم الحادث والمخترعات ، حتى قال أما أنا فأرى وجوب تعلم صناعة القنبلة الذرية فرض عين على كل مسلم محتجا بقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فقلت وأنا أوافقك على هذا ، الا أنى أقول أن ذلك فرض كفاية .

***

فصل

ثم أشار المحقق المقبلى فى الأرواح النوافخ ذيل العلم الشامخ ص ٦٠٢ الى انتقادات عامة وخاصة فيما يرجع الى الفلاسفة كما هو دأبه وديدنه فى النصح والانتقاد منها قوله : قول الفلاسفة لو صدر عن الواحد أكثر من الواحد لتعدد فيتغاير فيتركب فيكون حادثا هذا خلف ، وكان يلزمهم على فرض هذا الهذيان أن لايصدر عنه الواحد أيضا لانه من حيث أنه صدر عنه ذلك الواحد غير لنفسه من حيث أنه لا يصدر عنه شيء الخ فيلزم أن لايصدر عنه شيء ، فلا يعلم ما هو ، ومنها قولهم لو علم المتغيرات لتغير علمه الواحد الواجب ، هذا خلف ، ويلزمهم كذلك أن يتغاير علمه بالمعلومات المستمرة فيتركب . هذا خلف ، ويلزمهم أيضا أن يغاير هو صفاته فيتركب ونحو ذلك . قال وهذا كله هذيان ولغو ، ثم ساق بحثا فى مفاسد الخلاف بين المسلمين الكائن من الماتريدية ونفاة الحكمة وغيرهم المنبنى على جذور فلسفية حتى قال : وأقول منبع هذه المفاسد تسليم عبارات الفلسفة ، وتجد فى كلمات

المتكلمين من ذلك مالا يحصى ولا أقول كما تقول الملحدة وبعض القاصرين ان هذا من تحكيم العقول فحاشا العقول أن تدرك غير الحقائق كما هى ، فانها متمحضة للادراك الحق وحقيقتها ذلك ولكنهم يظلمون العقول باضافة الخطأ اليها وهى عاجزة عن الخطأ لذاتها كما أن الماء عاجز عن الاحراق لذاته ، وانما يكذبون على العقول انها أدركت كذا فيسلم لهم ذلك الذى لم يوفق لجهله ثم يشتم العقول ويظن أنها تخالف التوفيق الربانى على ألسنة الرسل وكيف ذلك والتوفيق على صدق الرسول والمرسل انما يكون بنفس العقل فهى أول التوفيق وعليها يتوقف كل توفيق ولذا لم تجد الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، على طول وصفه الكفار وقلة انصافهم يسبب عقولهم انما يقول : «أفلا تعقلون » «أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون » « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل » ونحو ذلك ، وانما يحتج عليهم بالعقل أبدا ويذمهم على اطراح العقل فينزله منزلة المعدوم لعدم اعطائه حقه ووظيفته الفطرية . حتى قال : فظهر لك أن ذام العقل ومدعى خطئه وعدم الوثوق به من جملة السوفسطائية منكرى العلم أو الزنادقة الذين يدخلون كل مدخل يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق . قطع الله دابرهم وأخرب عامرهم آمين انتهى .

وقال الشيخ المحقق ابن تيمية فى كتاب النبوات ص ١٨ بعد كلام طويل فى أهل الشرك ما نصه : ومذهب الفلاسفة الملحدة دائر بين التعطيل وبين الشرك والولادة ، كما يقولونه فى الايجاب الذاتى فانه أحد أنواع الولادة أى المواليد الثلاثة كالمعدنيات (١) والنباتات والحيوانات ، قال وهم ينكرون معاد الأبدان الخ .

وقال فيه ص ٢٣ وايضافهم أى الفلاسفة وأمثالهم المشاءون الذين أدركوا الاسلام وهم من أكفر الناس بما جاءت به الرسل ، لأنهم لايطلبون معرفة أخبارهم وما سمعوه منها حرفوه أو حملوه على أصولهم وكثير من المتفلسفة هم من هؤلاء الخ . هذا واذا تأملت قوله تعالى . « وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون »

(١) وقد اشتهر عند النصارى القول بالاقانيم الثلاثة كما حكى القرآن عنهم انهم يقولون « المسيح ابن الله » « وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه » « ألا انهم من افكهم ليقولون . ولد الله وانهم لكاذبون » « لم يلد ولم يولد » .

وقوله تعالى « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » وقوله تعالى : « ان الذين اتقــوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون واخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون » عرف الفرق بين العقول السليمة المتغذية بحقائق الايمان وأصول الشرع ورياض القرآن ، وبين العقول المتغذية بما يلقيه فيها الشيطان الخالية عن هــداية الرحمن المشحونة بشبه الفلسفة « كالذى استهوته الشــياطين فى الأرض حيران » .

وقال المحقق فى العلم الشامخ ، فى المناقشة على أهل التصوف وأتباعهم ص ٣٨٤ .

واعلم أن اعجاب هؤلاء المدعين عين الصفا بكلام المتصوفة كاعجاب المتكلمين بكلام الفلاسفة عشقا للتعمق ورغبة فى التمييز على العامة ، وقد أثرت سهام الفريقين فى كثير من حذاق النظار والمهرة الجامعين بين الاثر والنظر فخفضوا لهم الجناح ، وسموا هؤلاء أهل الله وأولئك بالحكماء غفلة من عظيم قدر ما أوتوا من علم الكتاب والسنة الخ ، وله أبحاث كثيرة قيمة فى التنديد بالمتفلسفين الذين أداهم ذلك الى مخالفة ما ورد به الشرع وعلم من ضرورة الدين وهم ينكرون ما علم من ضرورة الدين من وجود السموات السبع الطباق التى فوق الافلاك فضلا عن بعث الاجساد ويعبرون عنها بها وقد جمعت فى ذلك رسالة خاصة مستقلة

وقال الامام المهــدى فى رياضــة الأفهام شرح دامغ الأوهــام فى لطيف الكلام ، مسألة : والسماء ، جسم كثيف مقر للملائكة والأفلاك دون ذلك وأنكرت الفلاسفة كون فوق الافلاك شىء ، قلنا علم ذلك من ضرورة دين النبى عليه الصلاة والسلام وأجمعت عليه أمة الاسلام ، ثم قال فى الشرح ، لأن الفلاسفة جعلوا الافلاك هى السموات بأنفسها وهى السيارات واذا كانت السموات هى التى تدور فلا تستقر فكيف يصح استقرار الملائكة عليها والله يقول : «ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا» والحركة زوال وانتقال فى الهواء ومن موضع الى آخر فى الهواء (١) وقد جعل امساكهما من الآيات

---

(١) يعنى أن مطلق الحركة لا تكون الا فى الجو الخالى والا امتنعت كما يأتى والارض انما هى ظرف للافعال وكلها حركات تأمل ويأتى مزيد لهذا أواخر الفصل الآخر .

الدالة على عظم القدرة الالهية ومن أكبر الأدلة التوحيدية ، ولهذا قال « ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده » فقد تفرد بقدرته بذلك ، قال فحينئذ تقطع على زعمهم أنه لا مستقر عليها أى وأحاديث المعراج ونحوها متواترة معنى تفيد القطع بعكس ذلك والسمك والبناء والأبواب والسقف وصفت بها السموات فى القرآن تقرر جسميتها ، ثم قال وقد حكى لى بعض من له معرفة فى مذهب الفلاسفة فى الأفلاك أنهم ينكرون ما يدعيه المسلمون من البعد الحاصل بين كل سماءين ، وانما قدر بعد السماء من السماء الأخرى قدر مايمكن معها احتراكها بناء على أنها نفس الأفلاك وذلك دون شبر (١) هكذا حكى لنا فى تحقيق مذهبهم فى ذلك ، قال : فحصل من مذهبهم انكار كون الملائكة مستقرين على السموات بناء على أنهم عندهم أرواح مجردة وفيهم أولى أجنحة وأوصافهم فى الكتاب والسنة تفيد جسمية بعضهم ، وقديتشكلون عند الحاجةويتمثلون بالبشر «فتمثل لها بشرا سويا » وان كانوا أجساما لطيفةفى الأغلب ، قال وحصل من ذلك انكار كون الافلاك غير السموات وانكار البعد الذى ذكره المسلمون بين السموات وانكار كثافة السموات انتهى .

وفى المنار ص ١٩ جـ ١٢ للشيخ السيد محمد رشيد الذى أودعه (٢) صفوة ما نشره حكيم الاسلام بالأزهر الشيخ الامام محمد عبده رحمه الله ، ما يفيد أن بعض المتكلمين قد اغتروا بهذا القول وحرفوا القرآن لموافقة فلسفة اليونان حيث قال : ان بعض المتكلمين تكلفوا فى تفسير السموات السبع والكرسى والعرش أو تأويلهن بالافلاك التسعة عند فلاسفة اليونان المخالف للقرآن انتهى .

---

(١) وكذا فى عجائب المخلوقات وغيرها من الكتب المشتملة على الكلام فى العلويات على أقوال الفلاسفة تمت . وكفى بالمواقف وشرحها وحواشيها بحثا وحكاية واعتراضا وجوابا وردا « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله وما يشعرون » .

(٢) قال فى ديباجته هذا هو التفسير الوحيدالذى فسر به القرآنعلى أنه هداية عامةللبشر أقوال الفلاسفة تمت . وكفى بالمواقف وشرحها وحواشيها بحثا وحكاية واعتراضا وجوابا وردا « قل زمان ومكان بانطباق عقائده على العقل وآدابه على الفطرة وأحكامه على درء المفاسد وحفظ المصالح وهذه هى الطريقة التى جرى عليها فى دروسه بالأزهر حكيم الاسلام الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده وفيه صفوة ما قاله الامام رحمه الله فى دروسه . انتهى .

وقال السيد العلامة أحمد محمد الشرفي في كتاب عدة الاكياس المنتزع من شرحه الكبير لكتاب الأساس في آخر الكلام على المؤثرات ما لفظه :

واعلم ان كل مادة الشكوك والشبهات منشؤها في جميع الملل والاديان الكفرية المخالفة للاسلام ، هي الفلسفة ، فهي منشأ كل زيغ وأصل كل ضلالة انتهى .

ومن تتبع الأقوال الفلسفية لقدمائهم في المسائل الاعتقادية عرف صدق هذه القضية ومطابقة هذه الكلية ولعل المراد بالفلسفة الفلسفة بالمعنى الأعم في كل ما صادم القواطع الشرعية أو الضرورة الدينية المستلزمة لرد محكمات الايات القرآنية أو تكذيب صحيح الاخبار النبوية أو يرجع الى التشكيك في قواعد عقائد الملة الحنيفية .

***

فصل

ولخطورة المقام وذلل الأقدام وخطأ بعض الأقلام حسن أن أؤكد ما تقدم فأنقل كلام بعض من أمعن النظر في كلامهم وجرد سيف الشرع لرد شبههم ودمغ هامات أوهامهم من العلماء الراسخين أعمدة الشرع والتوحيد وأساطين الدين ، قال الامام الغزالي في خطبة كتابه الذي سماه تهافت الفلاسفة : أما بعد فاني رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد من الفطنة والذكاء قد رفضوا طوائف الاسلام والعبادات واستحقروا شعائر الدين ووظائف الصلوات والتوقي عن المحظورات واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون والتخمين .قلت وهذا الكلام قد يصدق كثيرا على كثير من أهل عصرنا لاسيما من اقتفى آثار الغربيين واستمد من مواد الماديين وانطبع في قلبه طبع الطبائعيين والملحدين المعطلين كما مر اغترار بالصناعات والآلات والمخترعات الخارجة عن مناط الدين ولا تعارض بينها وبين شرائع الاسلام بل هي مطلوبة للشرع كما تقدم ولكن كان ذلك جهلا منهم بالدين والشريعة والتوحيد وأحوال المبدأ وما بعد

الممات وغرورا بزخارف الحياةالدنيا «وغرهمفى دينهم ماكانوا يفترون» كما أشار الامام الغزالى الى نظرائهم بقوله : يتبعون فى ذلك رهطا يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالاخرة هم كافرون ، ولا مستند لكفرهم غير سماع الغى كتقليد اليهود والنصارى اذ جرى على غير دين الاسلام نشؤهم وأولادهم وعليه درج آباؤهم وأجدادهم ، لا عن بحث نظرى بل عن جهل مركب صادر عن التعثر والتأثر بأذيال الشبه الصارفة عن صوب الصواب والانخداع بالخيالات المزخرفة كلا مع السراب كما اتفق لطوائف من النظار فى البحث عن العقائد والآراء من أهل البدع والأهواء ، وانما مصدر كفرهم سماعهم أسامى هائلة كسقراط وأبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم واطناب طوائف متبعيهم وضلالهم فى وصف عقولهم وحسن أصولهم ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والالهية واستبدادهم بفرط الذكاء والفطنة واستخراج تلك الأمور الخفية وحكاياتهم عنهم أنهم مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم وعلومهم منكرون للشرائع وجاحدون لتفاصيل الملل والأديان ، ويعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة فلما قرع ذلك سمعهم ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم تجملوا باعتقاد الكفر تحيزا الى غمار الفضلاء بزعمهم وانخراطا فى سلكهم وترفعا عن مساعدة الجماهير والدهماء من المؤمنين ، واستنكافا عن القناعة بأديان الأنبياء والآباء (١) بأن اظهار التكايس فى النزوع عن تقليد الحق بالشروع فى تقليد الباطل جمال وكمال غفلة منهم عن أن الانتقال الى تقليد عن تقليد مخرقة وخيال ، فأية رتبة فى عالم الله أخس من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد بالتسارع تقليدا الى قبول الباطل دون أن يقبله خبر أو تحقيق ، والبله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة ، فليس فى سجيتهم حب التكايس بالتشبه بذوى الضلالات والبلاهة أدنى الى الخلاص من فطانة بتراء والعمى أقرب الى السلامة من بصيرة حولاء ، فلما رأيت هذا العرق من الحماقة نابضا على هؤلاء الأغبياء ابتدأت بتحرير هذا الكتاب ردا على الفلاسفة القدماء مبينا تهافت عقيدتهم وتناقض كلماتهم فيما يتعلق بالالهيات وكاشفا

(١) أى الأقدمين أو البراء مما هم عليه فلا ينافى هذا قوله آنفا وعليه درج آباؤهم وأجدادهم الخ تمت .

عن غوائل مذهبهم وعوراته التى هى على التحقيق مضاحك العقلاء وعبرة عند الاذكياء النبلاء أعنى ما اختصوا به عن الجماهير والدهماء من فنون العقائد والآراء المضادة لما جاءت به الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام .

«أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم» حتى قال هذا مع حكاية مذهبهم على وجهه ليتبين لهؤلاء الملحدة تقليدا منهم اتفاق كل مرموق (١) من الأوائل والأواخر على الايمان بالله وبملائكته وبكتبه ورسله واليوم الآخر ، قلت وفى هذا تأمل يظهر مما يأتى ، قال وان الاختلافات راجعة الى تفاصيل خارجة عن هذه الأقطاب التى لأجلها بعث الأنبياء المؤيديدون بالمعجزات وانه لم يذهب الى انكار ذلك الا شرذمة يسيرة من ذوى العقول المنكوسة والآراء المعكوسة الذين لايؤبه لهم ولا يعبأ بهم فيما بين النظار ، بل وان كثروا وملأوا الأقطار «وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، ومايؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » وما الحق وأهله يوم القيامة الا كشعرة بيضاء فى جلد ثور أسود كما فى الحديث النبوى . وكذلك فى الدنيا « وقليل من عبادى الشكور» «وقليل ماهم» «ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » قال ولا يعد مخالفوهم الا فى زمرة الشياطين الأشرار وغمار الأغبياء الأغمار ليكف عن غلوائه من يظن أن التجمل بالكفر تقليد يدل على حسن رأيه ويشعر بفطنته وذكائه ، حتى قال ونحن نكشف عن فنون ما تخدعون به من التخاييل وما اغتررتم به من الأضاليل والأباطيل ونبين أن ذلك تهويل ماوراءه تحصيل والله تعالى ولى التوفيق لاظهار ما قصدناه من التحقيق . ولنصدر الآن الكتاب بمقدمات تعرب عن مساق الكلام فى الكتاب .

***

المقدمة الأولى :

اعلم أن الخوض فى حكاية اختلاف الفلاسفة تطويل ، فان خطبهم طويل ، ونزاعهم كثير وآراؤهم منتشرة ، وطرقهم متباعدة متدابرة .

(١) هذا العموم يحمل على العموم العرفى الاضافى لا الشمولى الاستغراقى ٠ والمراد عموم أهل العلم والايمان .

فلنقتصر على اظهار التناقض فى رأى مقدمهم الذى هو الفيلسوف المطلق والمعلم الأول فانه رتب علومهم وهذبها بزعمهم وحذف الحشو من آرائهم وانتقى ما هو الأقرب الى أصول أهوائهم وهو أرسطاطاليس ، وقدردعلى كل من كان قبله حتى على أستاذه الملقب عندهم بأفلاطون الالهى ثم اعتذر عن مخالفة أستاذه بأن أفلاطون صديق والحق صديق ولكن الحق أصدق منه وانما نقلنا هذه الحكاية عنهم ليعلم أنه لا اثبات ولا اتقان ولا استقامة لمذهبهم عندهم ، وانهم يحكمون بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين ويستدلون على صدق علومهم الالهية وصحتها بظهور العلوم الحسابية والمنطقية والهندسية ويستدرجون بذلك ضعفاء العقول ولو كانت علومهم الالهية متقنة البراهين نقية عن الحدس والتخمين ، كعلومهم الحسابية والمنطقية ، لمااختلفوا فيها كما لم يختلفوا فى الحسابية ، ثم المترجمون لكلامهم ، لا سيما أرسطاطاليس ، لم ينفك كلامهم عن تحريف وتبديل محوج الى تفسير وتأويل حتى أثار ذلك أيضا نزاعا بينهم وأقوامهم بالنقل والتحقيق من المتفلسفة الاسلامية ، الفارابى أبو نصر وابن سينا فلنقتصر على ابطال ما اختاراه ورأياه الصحيح من مذهب رؤسائهم فى الضلال ، فان ماهجراه واستنكفا عنه من المتابعة فيه لايتمارى فى أختلاله ولا يفتقر الى تطوير نظر فى ابطاله فليعلم أنا مقتصرون على رد مذاهبهم بحسب نقل هذين الرجلين كيلا ينتشر الكلام انتشار المذاهب .

المقدمة الثانية :

قسم النزاع فيها بين الفلاسفة وغيرهم الى ثلاثة أقسام :

وجعل الأول مما لانزاع فيه ، لأن الخلاف فيه لفظى فيما أطلقوه على الله من التسمية بكونه علة ، لكن لم يرد الشرع بذلك لأن أسماء الله توقيفية ، أى وزاد بعضهم ما أفاد مدحا ولم يوهم خطأ وكان حقيقة لا مجازا ، قال فقد وافقوا بأنه تعالى قديم قائم بنفسه .

والقسم الثانى : مالم يصادم مذهبهم فيه أصلا من أصول الدين وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والمرسلين ومثل ذلك بمسألة كسوف النيرين

القسم الثالث : ما يتعلق النزاع فيه بمخالفة أصل من أصول الدين وما علم من ضرورة ماثبت عن الأنبياء والمرسلين ، كالقول بحدوث العالم وصفات الصانع الحكيم وحشر الأجساد والأبدان ، وقد أنكروا جميع ذلك ، فهذا النمط ونظائره هو الذى ينبغى أن يظهر فساد مذهبهم فيه دون ما عداه ، أى لأن الخلاف فى حدوث العالم ، والخلاف فى نفس اثبات الصفات وانكار الحشر جملة وتفصيلا كفر صريح كما صرح بذلك آخر الكتاب وسيأتى كلامه .

المقدمة الثالثة :

فى تنبيه من حسن اعتقاده فى الفلاسفة فظن أن كل مسائلهم نقية خالية عن التنافى والتناقض وبيان وجوه تهافتهم الخ .

المقدمة الرابعة

من عظائم حيلهم فى الاستدراج اذا أورد عليهم اشكال فى معرض الحجاج قولهم أن هذه العلوم الالهية غامضة خفية وهى من أعصى العلوم على الافهام الذكية ، ولايتوصل الى معرفة الجواب عن هذه الاشكالات الا بتقديم العلم بالرياضيات والمنطقيات أى لأن قدماء الفلاسفة الذين استقوا من آجن مشربهم لايؤمنون بالغيب الشرعى ، كما آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .

ولم يقفوا عند قوله تعالى «ولايحيطون به علما» . ولم يحرموا التقول فيما لايعلمون ، كما قال الله تعالى : «قل انما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » وكل قول خالف الوحى وضاد الشرع يعد من التقول والقول على الله فى مخلوقاته بما لا يعلمون ولم يقولوا كما قال المؤمنون : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول » وانما يحكمون العقول الضالة فى المعقولات التى يشوب الحكم فيها الوهم والتخمين (١) والخيال الفاسد والحواس فى المحسوسات وينتزعون منها كليات كما يأتى فى كلام ابن

(١) كما يأتى فى كلام ابن رشد وكلام ابن خلدون وغيرهما .

خلدون وبيان خطئهم أو عدم وقوفهم على اليقين غير معولين على شريعة ولا هدى ولا كتاب منير ولم يعلموا أن الراسخين فى العلم انما يقولون « آمنا به » أى المتشابه اجماليا « كل من عند ربنا » ولم تكلف الكتب السماوية والرسل الا الايمان بالله وبصفاته وأسمائه الحسنى والمعاد الجسمانى ، وما يترتب عليه ايمانا اجماليا كما وردت به الشرائع وترجم عنه الوحى . والمعيار فى معرفة الله « ليس كمثله شىء » « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » « ولا يحيطون به علما » « ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء » واما علمهم بالتفكير ، ومن فكر فى الله ألحد ، ومن اقتفى ماتسوله له نفسه والشيطان مع دعوى أن ذلك حكم العقل فقد زاغ وجحد ، ومن لم يؤمن بالغيب الشرعى لم يؤمن بالحشر والنشر وأن الله يبعث من فى القبور ، ولا بالحساب والجزاء والثواب فى دار النعيم والعقاب فى دركات الجحيم ، كما جاءت به الرسل الكرام .قال الامام الغزالى رحمه الله : فمن يقلدهم فى كفرهم ان خطر له اشكال على مذهبهم يحسن الظن بهم كأنهم معصومون ويقول لا شك أن علومهم مشتملة على حل ذلك الاشكال وانما يعسر على ادراكه لأنى لم أحكم المنطقيات ولم أحصل الرياضيات ، ثم أطال الكلام ورتبه وساق عناوين المسائل التى رتب عليها الكتاب كما يأتى .

***

فصل

واليك تعزيز هذا الكلام من هذا الامام وكلام غيره بكلام الأكابر من العلماء الاعلام وان طال المقال فلطول المقام واتساع المجال .

قال ابن رشد الأندلسى المالكى المتوفى سنة ٥٩٥ فى كتابه تهافت الفلاسفة ، مع مناقشته مناقشة لفظية ومعنوية للغزالى بل الظاهر من مؤلفاته الآتى حصرها آخر الفصل الآخر

وتعقب ابن تيمية عليه مع ماألحقته : أن الرجل ممن يرجح القوانين الفلسفية بل يلوى ويجذب لأجلها الأدلة الشرعية كما تعقبه أيضاً أحد علماء الروم فى كتابه الموسوم بتهافت الفلاسفة ، وجعل كتابه كالحكم بين كلامه وكلام الغزالى ، ولم أقف عليه انما وقفت على عنوانه فى ديباجة كتاب تهافت الفلاسفة للغزالى وابن رشد كما يأتى ، ولم يطبع حينئذ ، وظاهر صنيع ابن رشد هنا أن كتابه المذكور لمناقشة الفلاسفة فحسب وانه مؤيد لكلام الغزالى وليس كذلك لكن كلامه هذا مطابق لكلام مثل الغزالى فقال فى خطبة كتابه وبعد : فان العقل والنقل متطابقان على أن أكرم ماتناله قوى البشر وأنفس مايتنافس فيه أهل الوبر والمدر ، هو معرفة المبدأ والمعاد وما بينهما ، على ماأشار اليه أمير المؤمنين كرم الله وجهه بقوله: رحم الله امرأ عرف نفسه واستعد لرمسه وعلم من أين وفى أين والى أين ،وقد اضطربت فى ذلك الآراء وتصادمت الأهواء بحيث لايرجى أن يتطابق على ذلك أهل زمان أو يتصالح فيه نوع الانسان ، اذ الوهم يعارض العقل فى مآخذ المسائل ، والباطل يشاكل الحق فى المباحث والدلائل ، فمن اقتدى بما جاءت به الشرائع فقد استقام وهدى كما قال الله تعالى: «فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى» ومن ترك هدى الله واتخذ الهه هواه فقد ضل وغوى. ومن جملة مخالفى شرائع الانبياء عليهم السلام .. الطائفة المنتمون الى الحكمة والفلسفة فانهم وان أصابوا فى علومهم الهندسية والحسابية والمنطقية لعدم التباس الحق فى مبادئها بالباطل فقد استيلاء غوائل الوهم فى بواديها لكونها سهلة المآخذ قريبة التناول لا يعارض فيها الوهم والعقل ، بل يحكم بها العقل على بصيرة وطاعة مساعدة منه لكنهم أخطأوا فى علومهم الطبيعية يسيرا وفى الآلهية كثيرا وان اجتهدوا فيها بعقولهم غاية الاجتهاد ، وارتادوا طرق الوصول اليها كمال الارتياد ، لكون مبادئها بعيدة عن العقول والأوهام ، وأعلام طرقها خفية عن البصائر والأفهام ، أى ولم يحكموا شرائع الرسل الكرام اذ يرون غيرهم بالعين السخينة كما ترى الملائكة أهل الأرض من الأنام ، ولهذا قال ثم ان عظماء الامة دونوا علم الكلام وصنفوا فيه كتبا معتبرة ، وألفوا زبرا مطولة ومختصرة ، وحققوا فيها قواعد عقائد الاسلام وردوا على كل من خالفهم من أهـل الكفر

والبدع والضلال ، خصوصا على الفلاسفة الصائرين الى ماقادته أوهامهم من الخيال فانهم تتبعوا جملة أقاويلهم وأحاطوا بكل مايرومونه من مقاصدهم ودلائهم حتى لم يبق من مرامهم أشياء من علومهم عليهم خافية وأنحوا بالقلم على ماخالفوا فيه الشرائع بايرادات وحجج كافية ، بل ازدادوا على ذلك وتعرضوا الكل مازلت فيه أقدامهم أو طغت به أقلامهم ، خالف الشرع أم لم يخالفه . شكر الله تعالى مساعيهم وحقق آمالهم ومباغيهم ، فصارت قواعد الشرع ومعالم الدين في بروج مشيدة وحصن حصين لا تنالها أيدى الشبه والارتياب ولا يطمع في الوقوع فيها ذو الضلالة والاختلاب. وأن الامام المحقق حجة الاسلام أبا حامد محمد بن محمد الغزالي رحمه الله ابتدع من بينهم طريقة غراء واخترع رسالة عذراء في ابطال أقاويل الحكماء وسماها تهافت الفلاسفة بين فيها تناقض عقائدهم وضعف قواعدهم وبطلان معاقدهم بل وأودع فيها غرائب نكت كانت كامنة تحت الاستار وأوضح لمن بعده طرقا فجاجا كانت مختفية عن الأبصار جزاه الله عنا وعن المسلمين كافة خير الجزاء في دار القرار ثم انى أمرت من جناب من تجب طاعته ولا يسمع الا موافقته يعنى السلطان أبا الفتح محمد خان بن السلطان محمد خان بأن أملى كتابا على مثالها وأنسج ديباجا على منوالها فبادرت الى مقتضى الاشارة وامتثلت بواجب الطاعة على حسب الطاقة ثم اعترف واعتذر عن القصور والتقصير كعادة الكملاء من المؤلفين المحققين ، حتى قال ثم ان وقع في أثناء المقال ما يشير الى سهو القلم من الامام حجة الاسلام فذلك والعياذ بالله ليس ازدراء به بابراز هفواته أو وضعا من رفيع قدره باظهار سقطاته (١) وكيف وانى معترف بأنى مغترف من فضالته ومسترشد بدلالته من فوائده ومنتفع بفرائده ومهتد بأنواره ومقتف آثاره ، حتى قال وما أحمل ذلك الا على الغلط من الناسخ لا الراسخ لأنه لفرط اهتمامه بالمباحثة والافادة لم يتفرغ للمراجعة والاعادة مع أن تصانيف المتقدمين والمتأخرين لاتخلو عن أمثال ذلك ومصداقه ما قال عز من قائل كريم « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » ثم بين أن الفلاسفة وضعوا الموجودات أنواعا وأجناسا وبحثوا عن أحوالها الى حيث ما وصلت اليه عقولهم وافهامهم وان دخل في ذلك شيء

(١) لقد أجمل في الاعتذار ولكنه عضد الفلاسفة باطنا في الانتصار كما ينكشف الستار فيما يأتى بل هذا الاعتذار هو كالصريح في الرد والانتصار .

من تخمينات أوهامهم كماتقدم ، فحصلت لهم علوم متشعبة ، ثم ساقها كلها أصولا وفروعا . وقال وليس يتعلق غرضنا فى هذه الرسالة الا القسم الطبيعى والآلهى لأن المخالفة لما ثبت من القواعد الشرعية والعقائد الدينية مقصورة عليهما حتى قال فنريد أن نحكى فى هذه الرسالة من قواعدهم الطبيعية والآلهية ما أورده الامام حجة الاسلام مع بعض آخر مما لم يورده بأدلتها المعول عليها عندهم على وجهها ، ثم نبطلها ارغاما لفلسفة المبطلين واعظاما لأهل الحق واليقين ، وانتقاما من الذين أجرموا «وكان حقا علينا نصر المؤمنين» قلت لعل هذا الكلام كان قبل أن يؤلف فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال . وقبل رسالة الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة كما سلف يأتى بعض ذلك ، وتمام كلامه هنا قوله : وهى مشتملة على اثنين وعشرين فصلا .

الأول فى ابطال قولهم المبدأ الأول موجب بالذات لا فاعل بالاختيار .

الثانى : فى ابطال قولهم بقدم العالم .

الثالث : فى ابطال قولهم فى أبدية العالم .

الرابع : فى ابطال قولهم الواحد لايصدر عنه الا الواحد .

الخامس : فى ابطال قولهم فى كيفية صدور العالم المركب من المختلفات عن المبدأ الواحد .

السادس : فى تعجيزهم عن الاستدلال على وجود الصانع للعالم (١)

السابع : فى بيان عجزهم عن اقامة الدليل على وحدانية واجب الوجود .

الثامن : فى ابطال قولهم أن الواحد لا يكون قابلا وفاعلا لشىء واحد .

التاسع : فى ابطال قولهم فى نفى الصفات .

العاشر : فى تعجيزهم عن اثبات قولهم أن وجود الأول عين ماهيته .

---

(١) يعنى تعجيزهم عن اقامة البرهان والحجة على قول مذهبهم وان كان الحكم مسلما اذ لا يقاس بالناس ولا يدخل تحت الفصول واجناس وكذا سائر تعجيز الله لان أصولهم الباطلة لا تنبنى ولا تتفرع عليها مقدمات يقينية للبراهين القاطعة فى بحث المطالب الآلهيات كما عرفت ويأتى .

الحادى عشر : فى تعجيزهم عن اثبات قولهم أن ذات الأول لاينقسم بالجنس والفصل .

الثانى عشر : فى تعجيزهم عن اثبات أن الأول ليس بجسم .

الثالث عشر : فى تعجيزهم عن القول بأن الأول يعلم غيره بعلم كلى .

الرابع عشر : فى تعجيزهم عن القول بأن الأول يعلم ذاته .

الخامس عشر : فى ابطال قولهم أن الأول لايعلم الجزئيات .

السادس عشر : فى ابطال قولهم أن السماء أى الفلك متحرك بالارادة

السابع عشر : فى ابطال ماذكروه من الغرض المحرك للسماء ، أى الفلك كما تقدم .

الثامن عشر : فى ابطال قولهم أن نفوس السموات أى الأفلاك مطلعة على الجزئيات الحادثة فى هذا العالم .

التاسع عشر : فى ابطال قولهم بوجوب الاقتران وامتناع الانفكاك بين الأشياء العادية من الاسباب والمسببات

العشرون :فى تعجيزهم عن اثبات أن نفس الانسان جوهر مجرد قائم بذاته .

الحادى والعشرون : فى ابطال قولهم باستحالة الفناء على النفوس البشرية .

الثانى والعشرون : فى ابطال قولهم بنفى البعث وحشر الأجساد . انتهى .

ثم ساق لكل مسألة فصلا مستقلا ، الأأنى لم أقف الاعلى سبعة فصول من هذا المؤلف المطبوع بهامش كتاب الامام الغزالى . سابعها فى بيان عجزهم عن اقامة الدليل على وحدانية واجب الوجود ، فالساقط نحو الثلثين على صاحب الطبع وهو صاحب المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣١٩ مع تصريحه بأن

اشتمل الكتاب المطبوع على الكتابين المذكورين ، وعلى الثالث كتاب تهافت الفلاسفة للشيخ العلامة خواجه زادة ، أوحد علماء الروم فى عصره المتوفى سنة ٣٩٣ ، ألفه باشارة من السلطان محمد الفاتح العثمانى كالحكم بين الغزالى وابن رشد ، فكان هذا العنوان كالخداع للمطلع ، قبل أن يطالع ، ولعل لصاحب الطبع عذرا فى حذف وتأخير ما حذف وأخر .

***

فصل

وما من أحد الا ويأخذ من كلامه ويترك ماعدا المعصوم عليه الصلاة والسلام ، وقد قرر المحققون مناقشات كثيرة على الامام الغزالى وابن رشد والفارابى وابن سينا واضرابهم ممن مارس الفلسفة ، وان كان الأول أقربهم الى اعتماد الشرع وأدلته ، واليك كلام المحقق ابن تيمية فى كتاب النبوات ص ١٦٨ ولفظه « وقد غلط فى النبوة طوائف غير الذين كذبوا بها ، اما ظاهرا وباطنا واما باطنا كالمنافق المحض ، بل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل الى الرسول والى من قبله من الرسل وهم خلق كثير فيهم شعبة نفاق وان لم يكونوا مكذبين للرسول من كل وجه بل قد يعظمونه بقلوبهم ويعتقدون وجوب طاعته فى أمور دون أمور ، وأبعد هؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة فان هؤلاء لم يعرفوا النبوة الا من جهة القدر المشترك بين بنى آدم وهو المنام وليس فى كلام أرسطو واتباعه كلام فى النبوة والفارابى جعلها من جنس المنامات فقط ، ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبى ، وابن سينا عظمها أكثر من ذلك ، فجعل للنبى ثلاث خصائص : احداها أن ينال العلم بلا تعلم ويسميها القوة القدسية . وهى القوة الحدسية عنده ، ثانيتها أن يتخيل فى نفسه ما يعلمه فيرى فى نفسه صورا نورانية ويسمع فى نفسه أصواتا كما يرى النائم فى نومه صورا تكلمه ويسمع كلامهم وذلك موجود فى نفسه لا فى الخارج فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختص بل النبى مما يراه ويسمعه دون الحاضرين انما يراه فى نفسه ويسمعه فى نفسه وكذلك المسرور عندهم يعنى المصروع أو صاحب المرة الصفراء عند غلبتها بنحو الحمى « أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا » قال ثالثها : أن تكون له قوة يتصرف بها فى

هيولى العالم باحداث أمور غريبة وهى عندهم آيات الأنبياء ومعجزاتهم وعندهم ليس فى العالم حادث الا عن قوة نفسانية أو ملكية أو طبيعية كالنفس الفلكية والانسانية والاشكال الفلكية والطبائع التى للعناصر الاربعة والمولدات ولا يقرون بأن فوق الفلك نفسه شيئا يعقل ولا يحدث شيئا ، فلا يتكلم ولا يتحرك بوجه من الوجوه لا ملك ولا غير ملك (١) ، والعقول التى يثبتونها عندهم ليس فيها تحول من حال الى حال البتة لا بارادة ولا قول ولا عمل ولا غير ذلك وكذلك المبدأ الأول عندهم وهؤلاء عندهم أن جميع ما يحصل فى نفوس الأنبياء انما هو من فيض العقل الفعال ثم انهم لما سمعوا كلام الأنبياء أرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم الفلسفية فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء فيضعونها على معانيهم ويسمون تلك المعانى بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء ثم يتكلمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء فيظن من لم يعرف مراد الأنبياء ومرادهم أنهم عنوا بها ما عنته الأنبياء ، فضل بذلك طوائف وهذا موجود فى كلام ابن سينا ومن أخذ عنه ، وقد ذكر ذلك الغزالى عنهم تعريفا بمذهبهم ، وربما حذر عنه ووقع فى كلامه من هذا فى الكتب المضنون بها على غير أهلها وفى غير ذلك ، حتى قال فى كتابه الأحياء الملك والملكوت والجبروت ومقصوده الجسم والعقل والنفس الذى أثبتته الفلاسفة ويذكر اللوح المحفوظ مراده بها النفس الفلكية الى غير ذلك مما قد بسط فى غير هذا الموضع وهو فى كتاب التهافت ، وغيره يكفرهم وفى المضنون به يذكر ماهو حقيقة مذهبهم حتى يذكر فى النبوات عين ما قالوه وكذلك فى الالهيات وهذه الصفات الثلاث التى جعلوها خاصة توجد فى عموم الناس بل توجد لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب فانه قد يكون لأحدهم من العلم والعبادة ما يميز به عن غيره من الكفار ويحصل له بذلك حدس وفراسة يكون بذلك أفضل من غيره وأما التخييل فى نفسه فهذا حاصل لجميع الناس الذين يرون فى مناماتهم ما يرون ، لكن هو يقول أن خاصة النبى أن يحصل له فى اليقظة ما حصل لغيره فى المنام ، ويكفيك أنهم جعلوا مثل هذا يحصل للممرور أى

(١) اى فجميع الحوادث عندهم ترجع الى قوة نفسانية او ملكية او طبيعية كما صرح بذلك فى صدر المسألة أعماهم الله ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا .

صاحب المرة الصفراء وللساحر ، ولكن قالوا الساحر قصده فاسد والممرور ناقص العقل فجعلوا ما يحصل للأنبياء من جنس ما يحصل للمجانين والسحرة وهذا قول الكفار فى الأنبياء كما قال تعالى : « وكذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون » حتى قال فما يأتى به الأنبيـاء من الآيات الخارقة والمعجـزات وما يأتى به السـحرة والكهان وما يخبر به المصروع هو عنـدهم كله من قوة النفس الانسـانية فالاخبار بالغيب هو لاتصالها بالنفس الفلكية ويسمونها اللوح المحفـوظ والتصرف هو بالقوة النفسانية وهذا حذق ابن سيناء وتصرفه لما أخبر بأمور غريبة فى العالم لم يمكنه التكذيب بها فأراد اخراجها على أصـولهم وصرح بذلك فى اشاراته ، وقال هذه الأمور لم نثبتها ابتداء بل لما تحققنا أن فى العالم أمورا من هذا الجنس أردنا أن نبين أسبابها ، وأما ارسطو وأتباعه فلم يعرفوا هذه الأمور الغريبة ولم يتكلموا عليها ولا على آيات الأنبياء ، ولكن كان السحر موجودا فيهم ، وهؤلاء من أبعد الأمم عن العلوم الكلية والالهية فان حدوث هذه الغرائب من الجن واقترانهم بالسحرة والكهان مما قد عرفه عامة الأمم وذكروه فى كتبهم غير العرب مثل الهند والترك وغـيرهم من المشركين وعباد الأصنام وأصحاب الطلاسم ، وعرفوا أن كثيرا من هذه الخوارق هو من الجن والشياطين (١) وهؤلاء الجهال لم يعرفوا ذلك لأنهم لا يعرفون الجن والشياطين ولهذا كان من أصلهم أن النبوة مكتسبة وكان السهروردى المقتول يطلب أن يكون نبيا وكذلك ابن سبعين وغيره .

والنبوة الحق هى انباء الله لعبده ، ونبى الله من كان الله ينبئه ، ووحيه من الله وهـؤلاء وحيهم من الشـياطين . حتى قال بعـد كلام طويـل : والمقصـود هنـا الـكلام على النبـوة فهؤلاء المتفلسـفة ما قدروا الله حق قدره ولا قـدروا النبـوة حق قدرها ، وقد ضـل بهم طـوائف من المتصوفة المدعين للتحقيق وغيرهم وابن عربى وابن سبعين ضلوا بهم فانهم اعتقدوا مذهبهم وتصوفوا عليه ولهذا يقول ابن عربى أن الأولياء أفضل من

---

(١) أى ماعدا المعجزات النبوية فهى من أفعال الله فقط كما يأتى تصديقا لرسله كما مر ويأتى . والأنبياء معصومون عما تأتى به السحرة والكهان .

الأنبيـــاء ، وأن الأنبياء وسائر الأوليـــاء يأخذون عن خاتم الأنبيـــاء علـم التوحيد وأنه هو يأخذ من المعـــدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به الى الرسول فان الملك عنـــده هو الخيـــال الذى فى النفس وهو جبريل عندهم وذلك الخيال تابع للعقل ، فالنبى عندهم يأخذ عن هذا الخيـــال ما يسمعه من الصوت فى نفسه ولهذا يقولون أن موسى كلم من سماء عقله والصوت الذى سمعه كان فى نفسه لا فى الخارج ويدعى أحدهم أنه أفضل من موسى كما ادعى ابن عربى أنه أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام فانه يأخـــذ من العقل الذى أخذ منه الخيال ، والخيال عنـــده هو الملك الذى يوحى به الى النبى الى آخر كلامه وسيأتى مزيد بحث فى النبوات والمعجزات والممكنات والمســـتحيلات فى آخر الفصـــل الآخر ان شاء الله تعالى .

***

فصـــل

وهذه الأبحاث التى انتقدها المحققون لاسيما الحافظ ابن تيمية ، هى كما ترى يلوح الكفر تارة ويلمس أخرى من بين أسطر كلامهم ومن بين أعين القائلين بذلك من الفلاسفة وأتباعهم والملتزمين لهـــا وفرعـــوا عليها الكلام فى علم الله وأنبيائه ووحيه ووعده ووعيده ، وأصلهم الأصيل القول بقدم العـــالم كما مر ويأتى ، ولهـــذا قال الغزالى فى آخر كتـــابه تهافت الفلاسفة (١) :

(خاتمة) فان قال قائل قد فصلتم مذاهب هؤلاء الفلاسفة ، أفتقطعون بكفرهم ووجوب القتل لمن يعتقد اعتقادهم ؟ قلنا تكفيرهم لابد منه فى ثلاث مسائل .

(احداها) مسألة قدم العالم وقولهم أن الجواهر كلهـــا قديمة يعنى الأجسام .

---

(١) كلام الغزالى فى قدماء الفلاسفة لا فى اتباعهم من المسلمين الا من صرح بذلك منهم والعياذ بالله .

(الثانية) قولهم أن الله لايحيط علما بالجزئيات الحادثة من الأشخاص

(الثالثة) فى انكارهم بعث الأجساد وحشرها .

فهذه المسائل الثلاث لا تلائم الاسلام بوجـه من الوجوه ومعتقدها معتقد كذب الأنبياء والرسل ، وأنهم ما ذكروها الا على سبيل المصلحة تمثيلا لجماهير الخلق وتفهيما . وهذا هو الكفر الصريح الذى لم يعتقده أحد من فرق المسلمين انتهى .

بل وفى ذلك تكذيب لله عزوجل لأن الرسل انما بلغوا عنه وجميع الملل من أهل الكتب السماوية مطبقون عليها لاطباق الكتب السماوية عليها كما يأتى فى الجواب التفصيلى عن السؤال الأول ان شاء الله وكذلك اسناد أفعال الله والحوادث اليومية الى الأسباب فقط كما جعلوا اسناد ذلك الى الفلـك الأدنى بل جعلوا تدبير العالم كله عليه من غير اقرار ولا اعتراف بأنها أفعال الله سواء كانت بأسباب أم بدونها ولو كانت بواسطة الأسباب مثلا فالأسباب قد تتغير فلا يحصل المسبب الا بمشيئة الله وحكمته وله عز وجل خرق العادات فى الأسباب والمسببات كما يأتى .

وكذا انكارهم كونه صـانعا مختارا « وربك يخلق مايشاء ويختار » أى ما يشاء « ما كان لهم الخيرة » كما قال الله عز وجل : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون : أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » فالسبب ماهو الأمناءورتب الله تعالى عليه الخلق وهوفعله ثم قال : «نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون » أى من أنواع الحيوانات الخسيسة ، وفى ذلك ايماء الى أن خرق العادة بالمشيئة هو شأن الفاعل المختار .

ولله الامام الرازى حيث يقول . لولا الأسـباب ما ارتاب مرتاب ، ثم عزز ذلك عز وجل بقوله : « أفرأيتم ما تحرثون » هذا السبب مسـند الينا .. ورتب عليه المسبب بالمشيئة الالهية فقال : « أأنتم تزرعونه أم نحـن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون » ثم رتب المسبب الذى هو فعلنا على السبب وهو فعل الله مع بيان أن المشيئة كانت سببا مسـتقلا فى

فعله تعالى ولو شاء لعكس السبب فانعكس المسبب تذكيرا بالنعمة وحثا على شكرها فقال : « أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون » ثم ذيل ذلك تأكيدا مرتبا للمسبب الذى هو فعلنا على السبب الذى هو فعله نعمة منه فقال : « أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين » أى المسافرين بالقوى وهو القفر والخلاء ويأتى شرح هذه الآيات عن الامام الرازى وكيفية دلالة كل آية على التوحيد من عدة وجوه وكم كرر القرآن ونوه بحدوث الحوادث اليومية طبقا للمشيئة الالهية ، وقد تختلف المسببات على السبب الواحد ، ولو كانت الأسباب موجبة لذاتها ما اختلفت المسببات مع اتحاد السبب ، فقال عز وجل : « يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما » فقد اتحد أو اشترك السبب فى تولدالأولادواختلفت المسببات بحسب المشيئة وهذا أمر محسوس ليس فى علم الغيب الذى يجادل الفلسفى والملحد فيه بالباطل وهذه قسمة حاصرة . وقد يحصل السبب ولا يحصل المسبب كالعقيم والعاقر . فان قيل : ان ذلك لفقد شرط وحصول مانع ، قلنا فمن وفر الشرط لهذا وأزاح المانع من هذا وأفقدهما من الآخر وجعل الذكور فقط لهذا والاناث فقط لهذا وقرن الذكور بالاناث لهذا فهذه الأفعال المختلفة تدل قطعا على المشيئة والاختيار للصانع المختار لأن الكل جائز على الكل عقلا وعادة وحصول أحد الجائزين لا يكون الا لمرجح كما تقرر وليس هنا مرجح سوى المشيئة والحكمة والاختيار . والاختلاف بين الأشياء من أدلة حدوث العالم ، فضلا عن دلالتها على أن هناك مرجحا مختارا لهذا دون هذا ، وقد يخرق الله العادة بحسب الحكمة والمشيئة فيخلق من البكر والعجوز العاقر ولدا ، كما خلق الله من العذراء البتول عيسى بن مريم وقد قالت : « أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك (١) بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين » وقال زكريا عند طلب الولد : « رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس

---

(١) آية آل عمران : « قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء » وآية سورة مريم : « قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم اك بغيا » .

شيبا » ، حتى قال «وامرأتى عاقر فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » ، فقال الله «يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى» حتى قال « رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » .

****

فصل

والمعجزات النبوية على اختلافها كلها من خرق العادات خارجة عن السحر والكهانة ولهذا آمن سحرة فرعون لما شاهدوها وقالوا انا آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا فكانت تصديقا من الله لأنبيائه ورسله وهى بمحض أفعال الله كقصة القاء ابراهيم فى النار ولم يحترق لما قال الله : « يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم » فقلب الحر بضده وهو البرد وفلق البحر لموسى وقلب العصا حية تسعى فى تسع آيات كما حكاها القرآن وكاخراج الماء من حجر صغير كان يحمله موسى فى مخلاته فأخرج الله منه اثنتى عشرة عينا ونبع الماء من بين أصابع نبينا عليه الصلاة والسلام واطعام الطعام القليل لكثير من الناس وتكثير الماء من البئر الناضبة وكحنين الجذع وغير ذلك وكاخراج ناقة صالح من صخرة صماء واحياء الموتى على يد عيسى وعلى يد نبينا وعلى يد موسى عليهم الصلاة والسلام لما أخذت الرجفة قومه (١) وغير ذلك وهكذا سائر المعجزات كلها من خرقة العادات تابعة لمشيئته من اذا أراد أمرا فانما يقول له كن فيكون (٢) .

ولا يسع الفلسفى وأتباعه هنا الا التكذيب كما هو عصا الكفر التى يتوكأ عليها قديما وحديثا كما حكاه القرآن عن القرون الخالية والأمم الماضية ولن يزال الكفر مقتفيا للكفر كما حكى الله عن أمثال الفلاسفة وأتباعهم قولهم « انا

---

(١) كما قال الله تعالى :«ثم بعثناكم من بعد موتكم» بعد قول موسى :« رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى » ، فاحياؤهم حينئذ معجزة له .

(٢) كما قال تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد » ثم قال : « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه » الآيتين .. وقال تعالى : « فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء ــ أى لينة طيبة ــ حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » .

وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » أى فى اعتقادهم أنه علم ولهذا قال «عندهم» أى لا فى نفس الأمر والواقع ، اذ الباطل لا يكون علما حقا مناقضا للحق والحقيقة «كل حزب بما لديهم فرحون » انما الشأن العظيم فى الأخذ من الكتب الفلسفية لاسيما الطبيعية المنافية للقواطع الشرعية والمناقضة للقوانين الاسلامية والمعارضة للعقائد الدينية وتلخيصها دروسا لأبناء المدارس الاسلامية وتلقينهم ذلك مع أنهم لم يعرفوا حينئذ معقولا ولا منقولا فتتغير فطرهم وتنحرف عقائدهم حين يجدون الحوادث اليومية فيها مسندة الى أسباب عادية غير مضافة الى مشيئة الله وارادته عز وجل ولا مسندة اليه فيتلقاها الأغمار الصغار من النشء ويتقبلونها بقبول حسن ولم يشعروا بأن السم فى الدسم ثم ترسخ فى عقائدهم فاذا تلوت على أحدهم الآيات التى صرحت باسنادها الى الله وان كانت بواسطة الأسباب ، « ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا » وعلى الجملة فمن كان بصدد تدريس الجغرافيا الطبيعية ونحوها للمدارس الابتدائية والثانوية المشتملة على النشء الناقص عقلا وعلما من غير ارشاد الأستاذ بأن ذلك نقل وتقليد للفلاسفة وأن الاسلام جاء بخلاف ذلك وأن الحوادث الربانية كلها مسندة الى الله عز وجل ماعدا أفعال العباد الاختيارية التى لا يتم التكليف الا بها (١)

---

(١) ولا يترتب الثواب والعقاب والمدح والذم الا عليها ولم تبعث الأجساد للنعيم أو العذاب الأليم الا للجزاء عليها . أما كون الجنة بفضل الله ورحمته فهو غير مناف لأن ذلك يرجع الى أن أصل الجنة ونعيمها تفضل ورحمة « ولكل درجات مما عملوا » وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون » « جزاء من ربك عطاء حسابا » « وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا » والطاعات أما لطف كما قال تعالى « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، واما الشكر كما قال تعالى « اعملوا آل داود شكرا » واما لطف وشكر ، والشكر لمقابل النعم « وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها » وشكر مالا يحصى لا يحصى والطاعات محصية أعنى المكلف بها فالجنة بمحض الفضل لكن بقدر الأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام : لايدخل أحداً منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار ولا أنا الا برحمة الله رواه مسلم عن جابر وله ألفاظ فالفضل والرحمة يعمان أهل الايمان فى الآخرة والحكمة تقتضى أن يكون ذلك بالعدل على حسب الأعمال « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما » والباب واسع .

قوله رواه مسلم عن جابر ، وأصل الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة لفظ لن ينجى أحدا منكم عمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمته ، وفى لفظ بفضل رحمته الخ . المت .

لم يسلم دينه ولا دين التلاميذ ولم يكمل ايمانه و لاايمانهم ولم يصح اعتقاده ولا اعتقادهم وكم عرفنا من قبل عشرات السنين هذا النمط من الذين غرتهم المدارس فغيرت فطرهم لعدم ارشاد الأساتذة (٢) فأرجو الله أن يقوم علماء الدين وزعماؤه وأمرؤه بالنظر الصحيح فى هذه القضية وما ذلك على الله بعزيز .

***

فصل

ومن آيات المشيئة التى يدرسها جميع المسلمين ما لا يخفى عليهم كقوله تعالى : « كل يوم هو فى شأن » أى كل وقت وزمن وهذا أحد معانى اليوم الأربعة فى القرآن « فبأى آلاء ربكما تكذبان » «قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير » « يؤتى الحكمة من يشاء » «والله يؤتى ملكه من يشاء » « ولو شئنا لرفعناه بها » وغير ذلك . وفى صحف موسى عليه السلام :

يا ابن آدم تريد وأريد ولا يكون الا ما أريد .

وكم رأينا وسمعنا من نفثات تشم منها روائح الفلسفة والطبائعية من مثل هؤلاء المتخرجين من المدارس والذى يجب تقرير المناهج المدرسية لا سيما الابتدائية والثانوية على قواعد التوحيد وعقائد الدين الاسلامى من جديد وتعديل أو تجديد بعض المسائل الجغرافية وغيرها وحذف ما يشكك أولاد المسلمين فى عقائدهم الفطرية ، والله الموفق .

ويلزم على القوانين الطبيعية والمادية والعقائد الفلسفية بطلان وجوب شكر المنعم بأصول النعم وفروعها اذ لايرون تلك الأسباب والمسببات والنعم الظاهرة والباطنة من الله عز وجل والله يقول : «وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون»

---

(٢) أما من كان يدرس فى غير المدارس والأقطار الاسلامية فيزداد الطين عندهم بلة ولايكادون يرجعون عما تلقنوه كما عرفت كثيرا منهم تمت .

أى شكر رزقكم باضافتهم الرياح والسحب والأمطار الى الطبائع والنجوم والأنواء كما كانت عليه الجاهلية ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم **فى** الحديث الصحيح بل المتواتر عن بضعة عشر صحابيا : « ألم تعلموا ماقال ربكم فى هذه الآية ما أنعمت على عبادى نعمة الا أصبح فريق منهم بها كافرين فأما من آمن بى وحمدنى على سقياى فذلك الذى آمن بى وكفر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك الذى آمن بالكوكب وكفر بى » . وللحديث طرق وألفاظ عند مسلم وغيره ، فكيف بمن يسند ويضيف الرياح والسحاب والأمطار والنبات والحيوانات الى الطبيعة والمادة ، وانما ذكرت الأنواء فى الحديث جريا على العادة حينئذ فلا مفهوم لها ، على أن مفهوم الاسم ساقط لا يؤخذ به عند الجمهور القائلين بالمفاهيم ، فحكم من أضاف نعم الله وأفعاله الى المادة والطبيعة حكم من أضاف ذلك الى الأنواء مع الاعتقاد وعدم نصب القرينة على ارادة المجاز العقلى واللغوى اذ الأصل فى الكلام الحقيقة عند فقد قرينة المجاز وان كان الاسلام قرينة حالية . لكن مثل هذا الكلام متردد (١) بين الكفر والكراهة فاللازم ترك النطق بذلك أو نصب قرينة قولية صريحة لا تحتمل خروجا من الشبهة أو اساءة (٢) بالمتكلم .

نعم ومن شواهد الحديث كل ما ورد من الآيات والأحاديث فى تكوين الله للامطار والسحاب والرياح والنبات والحيوانات والانسان وغير

---

(١) ومع كثرة الاستعمال عند بعضهم بلا قرينة قد يغلب والغلبة من قرائن الحقيقة العرفية ومهما كان ذلك حقيقة عرفية فقد تودعت الحقيقة الشرعية ، وها هنا تسكب العبرات من العلماء الناصحين وعلماء الدين المرشدين ، وحاشاهم أن يسكتوا عن مثل هذا . وفقهم الله ، ويأتى لهذا مزيد ايضاح قريبا .

(٢) وقد نهى الله الصحابة أن يأتو بلفظ صحيح المعنى يوهم معنى فاسدا . وأمرهم الله أن يأتوا بلفظ صريح لا يوهم ذلك فقال « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا أنظرنا » لأن اليهود كانوا يقولون هذا اللفظ وهو بلغتهم مسبة فنهى الصحابة عن الخطاب للرسول بل لهذا الايهام حسما لمادة تحتمل الفساد ولو عند البعض وكم تعجبت من قول شاعر النيل شوقى

لسليمان بساط واحد ... ولكم ألف بساط فى الهواء

وانما الطائرات مراكب بآلات صناعية كمراكب البر والبحر وأين ذلك من بساط سليمان الذى يجرى بالريح رخاء بأمره باذن الله ولا يخفى مافى هذا البيت من الايهام عند العوام وذلك كان من نوع المعجزات التى طلبها سليمان فى ملكه فقال « رب اغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى انك أنت الوهاب فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب » كما تقدم .

ذلك ، ولا يتصر مجموع ذلك عن مجلد وسط ويأتى بعض ذلك فى أواخر الفصل الآخر .

***

فصل

وكم من نعمة لله علينا فى الحر والبرد والرطوبة واليبوسة وهبوب الرياح لتلقيح السحاب والأشجار ، وكم تمدح الله بذلك وجعله من جلائل نعمه الموجبة لتأدية خالص شكره وتوحيده وعبادته كما قال تعالى :« وأنزلنا من المعصرات ماءثجاجالنخرج به حبا ونباتاوجنات ألفافا» وقال : وأسقيناكم ماء فراتا » وقال : « أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم » . وقال « فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماءصباثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبامتاعالكم ولأنعامكم» وقال : «أفلم ينظروا الى السماءفوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » وقال « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد » . وقال «وفى السماء رزقكم » وهو المطر لأنه سبب الأرزاق من اطلاق المسبب على السبب وكان المشركون من العرب يقرون أو أكثرهم بأن الأمطار من نعم الله كما قال تعالى : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون » وقال «وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به» وقال : «وينزل من السماء رزقا (أى مطرا) وما يتذكر الا من ينيب » . وقال : «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر مايشاء»وقال: والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا

لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ، وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » . وقال «وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وماأنتم له بخازنين» وقال : «وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » وقال «والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » وقال : « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » فأضاف الله تعالى وأسند اليه انشاء السحاب والرياح والمطر اليه ورتب على ذلك نعمه التى لا تحصى رزقا للعباد والانعام والدواب والطير والحرشات وغير ذلك ومنه تنبت الحبوب والثمار والغابات والأشجار وغير ذلك وآيات المطر وتكوينه لصالح العباد والبلاد كثيرة جدا وسيأتى لصاحب الرسالة الحميدية فى الفصل الحادى عشر بحث حسن فى انزال المطر على قود الماديين وقواعد الدين كما يأتى للرازى أيضا .

والمطر أصل النعم الدنيوية بعد أصولها وكذا مياه الأنهار والآبار التى ماؤها كما قال تعالى : «فسلكه ينابيع فى الأرض» وقال « وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم » وقال « أخرج منها ماءها ومرعاها » . وقال « وقدر فيها أقواتها » وتقدير الأقوات الناتجة عن النبات يستلزم تقدير المياه التى هى غذاء النبات سواء كان من السحاب أم من بين الصخور والتراب .

فكل نعمة تنشأ عن الأمطار وسائر المياه وكل نعمة مصدرها من الله « ما أصابك من حسنة » أى نعمة وصحة « فمن الله » « وما بكم من نعمة فمن الله » « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » فشكر مالا يحصى لا يحصى ومن المؤسف من العباد ما قاله الله فى تقصيرهم عن الشكر « وقليل من عبادى الشكور » ولولا أن الله تعالى خفف عنا شكره بعد الاعتراف بقبول الشكر القليل وهو أداء الفرائض — لأن الطاعات شكر — وترك

المعاصى اجلالا لله وامتثالا لنهيه فذلك شكر أيضا لما وجد الشكور القليل على أن التوحيد أصل الشكر وأساس الدين وعمود الاسلام وهو روح الأديان كلها .

***

فصل

وتوحيد الله يشتمل على أربع شعب من شعب الايمان .

توحيد الله فى ذاته : فلا يشبه بشىء من مخلوقاته ولا يشرك به أحد ، فهو أحد صمد « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » لم تكن له صاحبة ولا ولد « أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة » « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » « ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل » « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

وتوحيده فى صفاته والايمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل لأن من ليس كمثله شىء ليس كمثل صفاته شىء والا لزم حصول المثل وقد نفاه نفيا عاما هذا خلف ، فصفاته وأسماؤه حقائق دينية خاصة لاتقاس بالناس لأنه لايقاس بالناس ولا يدرك بالحواس فصفاته كذلك .

وتوحيده فى أفعاله : فلا تسند أفعال الربوبية سواء كانت بواسطة أم بدونها الى غيره كما تزعمه الفلاسفة ومنهم المنجمون والطبيعيون والماديون والباطنية وغيرهم جريا على أصولهم الكفرية وأصلها القول بقدم العالم وأن الواحد لا يصدر عنه الا واحد وأن البارى عندهم علة موجبة غير مختار وأن الحوادث اليومية من تأثير العقل الفعال الفياض أو النجوم أو الأفلاك أو العناصر لتشعب أصول كفرهم وفروعه والله تعالى يقول : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

وأخرج أحمد والنسائى والبزار والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال « خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال هذا سبيل الله مستقيما ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وشماله وقال هذه ليس منها واحد الا عليه شيطان يدعو اليه ثم قرأ : «وأنهذا صراطىمستقيما فاتبعوه » «ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (١) وأخرج أحمد وابن ماجه عن جابر عن عبد الله برفعه نحوه وله طرق وألفاظ .

وتوحيده فى عبادته : فلا تصرف أى عبـادة شرعية الى غيره ولا يستحقها أحد سواه ولا تشاب بشرك ولا رياء . « فمن كان يرجو لقـاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

فهذه الشعب حق الله على عباده تجب على كل مكلف علمـا وعملا واعتقادا فالواجب على العلماء والمدرسين والأسـاتذة والخطباء والمؤلفين ارشاد كل طالب ومكلف الى معرفتها حق معرفتها حتى يعرف الله كل مكلف حق معرفته وترسخ جذور الايمان فى قلبه وينشرح بها صـدره ويطمئن بها فؤاده وقلبه مع تعريفه بكل ما يخرج عن الملة من قول وعمل واعتقاد فربما يجرى الكفر والشرك فى الاعتقـاد أو الفعـل أو القول ولا يشـعر به الجـاهل لجهله ما يخـرج من الملة لأن الشرك أخفى من دبيب النمـل وقـد أجاد الامـام محمـد بن اسـماعيل الامير رحمـه الله الكلام فى كتـاب تطهير الاعتقـاد ورسـالة ارشـاد ذوى الألبـاب وقسـم الكفر والشرك والنفاق ونحو ذلك الى أنواع فى القـول والفعل والاعتقـاد ونشره للعموم مع ما أودعه القاضى عياض فى أواخر الشفاء ، وقد لخصت والكل قبيح شرعا محبط للاعمال الصالحة وان تفاوتت أحكامه فى الدنيا وفى قوله تعالى : « أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون» ايماء الى أن الأعمال الصالحة قد تحبط ولا يشعر العبد بذلك لجهله وتقصيره عما يجب عليه علمه وعمله

(١) وقال تعالى : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا » ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « شيبتنى هود وأخواتها» الحديث وله الفاظ وطرق عن عشرة من الصحابة فصاعدا كما فى الدر المنثور والفتح الكبير .

واعتقاده وهذا الفصل أهم وأقدم فى الدين من كل علم وعمل لأنه كالحياة والروح لأجسام الاعمال الدينية وقد فصل العلماء فى أبواب الردة كثيرا من أسبابها يطول بنا جمعها هنا فينبغى للعلماء والمدرسين تلخيصها ونشرها فى جميع المدارس الاسلامية لأن كثيرا من الناس لاسيما العوام يجهلون ذلك فيرتكبون أبوابا من الردة الكفرية وهم لا يشعرون بأن الفعل الفلانى أو القول الفلانى والاعتقاد الفلانى أو الاستحقاق بكذا أو الشك فى كذا أو الانتقاد على كذا من أبواب الردة والكفر والله يقول : « ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم » فالكفر قد يكون بكلمة من كلمات الكفر ، وقد ألف الأمير الحسين رحمه الله كتابا حافلا بذلك سماه « ثمرة الأفكار فى أحكام الكفار » وذكر نبذة من أسباب الكفر والردة أواخر العقد الثمين ، وشرحها مع سائر الكتاب شيخنا القاضى العلامة محمد بن يحيى مداعس ، فينبغى التقاط ذلك ونشره للعموم مع ما أودعه القاضى عياض فى أواخر الشفاء وقد لخصت شيئا من ذلك من ارشاد ذوى الألباب فى رسالة سميتها بالسبائك اللازبة على الأسئلة الحجازية ولقد كثرت الشكوك والشبه فى عصرنا وضعف الايمان واليقين لجهل الحقائق الدينية والقواعد الاعتقادية والبراهين الشرعية لاشتغال أكثر الناس بالعلوم الدنيوية والدولية ، وما أحسن ذلك مع العلوم الدينية اللازمة والله يقول : « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » ولم أقصد هذا سوى محض النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وحكامهم وعامتهم أخذا بالحديث الصحيح (١) والله يقول « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا » كما تقدم . ويقول « لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل » والأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى ، متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

---

(١) اخرج مسلم وأبو داود والنسائى عن تميم الدارى يرفعه الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وأخرج البخارى ومسلم والترمذى عن جرير قال : بايعت رسول الله على اقام الصلاة وايتاء الزكاة والنصح لكل مسلم .

فصل

هذا وقد أشرت الى بعض كلام ابن رشد مع الامام الغزالى ومناقشته وقد أطنب وأطال الكلام عليه فى بعض مؤلفاته كما أشار الحافظ المحقق ابن تيمية الى بعض ما فيها وفى غيرها مع الجواب عنها فى كتابه بغية المراد ، والحق لايخفى على منصف ناصح .

أما ابن رشد فقال فى كتاب الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ص ٧٢ طبع بمصر بمطبعة محمود على صبيح بعد كلام طويل فى تمزيق الخلاف لعرى الاتفاق والائتلاف وتفريق الاختلاف بين الأمة المحمدية وضرب المثل لذلك بالدواء النافع من الحكيم الماهر فجعل هذا مثلا لمنهاج الشرع القويم الهادى الى الصراط المستقيم حتى غيرته الاختلافات والآراء والنحل والابتداع فقال : وأول من غير هذا الدواء الأعظم هم الخوارج ثم المعتزلة ثم الأشعرية ثم الصوفية ثم جاء أبو حامد فطم الوادى على القرى وذلك أنه صرح بالحكمة كلها يعنى الفلسفة التى يعدونها من الأسرار وهى من تراث الأشرار . قال : وأفشاها للجمهور وبآراء الحكماء على ما أدى اليه فهمه وذلك فى كتابه الذى سماه بالمقاصد ، فزعم أنه انما ألف هذا الكتاب للرد عليهم ثم وضع كتابه المعروف ، بتهافت الفلاسفة ، فكفرهم فيه فى ثلاث مسائل من جهة خرقهم للاجماع فيها كما زعم (١) قلت بل لردهم القواطع وما علم من ضرورة الدين كما تقدم . قال : وبدعهم فى مسائل وأتى بحجج مشككة وشبه محيرة أضلت كثيرا من الناس عن الحكمة وعن الشريعة قلت وهذا محل تأمل وقد قال فى خطبة كتابه الموسوم بتهافت الفلاسفة ما ينافى هذا كما تقدم مع الاعتراف والثناء على الغزالى وتهجين الفلسفة التى غير هنا اسمها ولقبها بالحكمة ليدخلها تحت آيات الحكمة وأحاديثها وأنى له ذلك كما هجن على أهلها هناك وصرح بنصرته للشرع وأهله

---

(١) بل من جهة ردهم القواطع كتابا وسنة بل رد ما اتفقت عليه الملل وأرباب الكتب السماوية واتفقت عليه الانبياء والرسل فهذا مستند الاجماع . وانما ذكر الاجماع هنا ليتمكن من التفلسف فى الجواب على أنه لم يستند فى ذلك ويصرح بالاجماع انما قال أن تلك المسائل لا توافق الاسلام بوجه من الوجوه أو كما قال .

حتى استشهد بقول الله عز وجل « وكان حقا علينا نصر المؤمنين» قال ثم قال الغزالى فى كتابه المعروف بجواهر القرآن ، أن الذى أثبته فى كتاب التهافت هى أقاويل جدلية وانما الحق فيما أثبته فى كتاب المضنون به على غير أهله ثم جاء فى كتابه المعروف بمشكاة الأنوار فذكر فيه مراتب العارفين بالله وقال ان سائرهم محجوبون الا الذين اعتقدوا أن الله سبحانه غير محرك السماء الأولى أى الفلك وكثيرا ما يطلقون السماء على الأفلاك كما تقدم جريا على قواعد الفلسفة من نفى السموات السبع الطباق التى قال الله فيها « أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » وجعل ذلك من أعظم الآيات الدالة على قدرته وعجائب آياته التى يختص بها دون غيره فقال : « ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده » وأما الافلاك فهى متحركة سائرة دائرة كما تقرر فى مظانه وهكذا دأب المروجين لزخارف الفلسفة والمتفلسفين . قال : ثم قال وهو الذى صدر عنه هذا المحرك وهذا تصريح منه باعتقاد مذاهب الحكماء فى العلوم الالهية قلت حاش الغزالى من هذا العموم ويشهد له كتاب احياء العلوم قال وقد قال فى غير ما موضع أن علومهم الالهية هى تخمينات بخلاف الأمر فى سائر علومهم .. وأما فى كتابه المنقذ من الضلال فأنحى فيه على الحكماء (١) وأشار الى أن العلم انما يحصل بالخلوة والفكر قلت انما يريد علم الزهد والتصوف والمراقبة لا علم الفلسفة ولا علم الشريعة لأنها نقل محض اتفاقا واستنباط العلماء مما نقلوه ، قال وان هذه المرتبة هى من جنس مراتب الأنبياء فى العلم ، وكذلك صرح بذلك بعينه فى كتابه الذى سماه بكيمياء السعادة فصار الناس بسبب هذا التشويش والتخليط فرقتين ، قلت السياقات فى كل كتاب مبينات للمرادات ومعينة للمحتملات وموضحة للمجملات وهب أنه خلط وخبط فانما يؤخذ من كلام كل عالم ما وافق الحق لا سيما فيما علم من

---

(١) وهى أن الغزالى اختلف كلامه فى مؤلفاته واختلط فماذا يكون اليس براهين الدين والعقائد بين أظهرنا فما أصاب فيه قبل منه لموافقة الحق وما اخطأ فيه كان الجواب عليه كالجواب على ابن رشد وغيره وما من أحد الا ويؤخذ من كلامه ويترك ماعدا المعصوم عليه الصلاة والسلام انما يؤخذ بآخر القولين والاقوال من كلام المجتهدين فى المسائل الفرعية الظنية فى العبادات والمعاملات تقليدا لهم وتحسينا للظن لهم أما مسائل الاصول والكلام والاعتقاد القطعية فلا مسرح فيها للاجتهاد ولا مدخل للتقليد ولا حجة فى الاقوال بل وفى حججهما كما عرفت .

ضرورة الدين (٢) . قال ففرقة انتدبت لذم الحكماء والحكمة وفرقة انتدبت لتأويل الشرع وروم صرفه الى الحكمة قلت هذه هى الحاجة التى فى نفس يعقوب وهى التى يدندن حولها ابن رشد فى فصل المقال وغيره وقد أطنب وأطال فى فصل المقال لتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال مع ما بينه وبين الغزالى من المنافسة حتى ألف كتاب تهافت الفلاسفة فى الظاهر نصرة بكلام الغزالى كما تقدم وفى الباطن نقضا واعتراضا عليه ولهذا صنف أحد علماء الروم خواجه زاده كتاب تهافت الفلاسفة حكما بين الكتابين كما عرفت قصدا للاصلاح بين كلاميهما قال وهذا كله خطأ بل ينبغى أن يقرر الشرع على ظاهره ولا يصرح للجمهور بالجمع بينه وبين الحكمة قلت وليته وليتهم قرروا ما قرره الشرع وأقروا به وأقروه ثم قال فلحق من فعله هذا اخلال بالأمرين جميعا أعنى بالحكمة وبالشرع عند أناس وحفظ الأمرين جميعا عند آخرين اما اخلاله بالشريعة فمن جهة افصاحه فيها بالتأويل الذى لا يجب الافصاح به قلت أما تأويل المتشابه من غير قصد لموافقة الفلسفة بل جمعا بين أدلة الشرع فيجب الافصاح به لئلا تغتر به العامة . وأودعوا التأويل كتب التفسير فى الأغلب وعلم الكلام لنصح الانام قال وأما اخلاله بالحكمة فلا فصاحة فيها بمعان لا يجب أن يصرح بها الا فى كتب البرهان وأما حفظه للأمرين فلأن كثيرا من الناس لا يعرف بينهما تعارضا من جهة الجمع الذى استعمل بينهما وأكد هذا المعنى بأن عرف وجه الجمع بينهما وذلك فى كتابه الذى سماه التفرقة بين الاسلام والزندقة الى آخر كلامه وفيه تأمل يظهر للناقد البصير بعد معرفة مقصده مع الموازنة بين كلامه هذا وكلامه السابق ويأتى كلام الحافظ ابن تيمية وانتقاده عليه وعلى بعض ما فى هذه المؤلفات التى عزاها الى الغزالى مع المناقشة لابن رشد والفارابى وغيرهما

(٢) وكذلك ما لا يجوز التقليد فيه من المسائل الاعتقادية القطعية انما التقليد فى المسائل الفرعية العملية . الخ كما تقدم .

فصل

تقدم أن الأصل فى الكلام الحقيقة وانما يحمل على المجاز للقرينة الصارفة وهذا بحث يقرر ذلك فقد قسم أرباب البلاغة الكلام فى باب الاسناد الى حقيقة عقلية ومجاز عقلى ولكل أقسام أربعة فالحقيقة العقلية اسناد الفعل أو معناه الى ماهو له عند المتكلم فى الظاهر ومثلوا ذلك بقول المؤمن أنبت الله البقل وهذا فيما طابق الواقع والاعتقاد وأما ما طابق الاعتقاد فقط فكقول الجاهل أنبت الربيع البقل معتقدا لذلك المجاز العقلى اسناد الفعل أو معناه الى ملابس (١) له غير ما هو له بتأول ولا يحمل الكلام على المجاز ما لم يعلم أو يظن أن قائله لم يعتقد أن ظاهره لقرينة لفظية أو عقلية أو حالية فاسناده الى المكان نحو « وأخرجت الارض أثقالها » والى الزمان نحو « يوما يجعل الولدان شيبا » والى السبب نحو شفى الطبيب المريض ونحو ذلك مجاز عقلى وكذا مثل « عيشة راضية » . وسيل مفعم . ونهر جار ونهاره صائم . وبنى الامير المدينة وغير ذلك فالقائل فعلت الطبيعة كذا . وأنبتت الطبيعة كذا ونحو ذلك مما لهج به بعضهم فى عصرنا ممن لم يعرف الحقيقة من المجاز فلا يصرف كلامه الى المجاز الا مع القرينة ككونه مؤمنا فى القرينة الحالية المعنوية ولكن ظاهر حال بعضهم أنه عنده حقيقة فيحمل على ظاهره حتى ينصب القرينة اللفظية ، لا سيما ان كان من العوام أو الحالية ان كان من العارفين بفن الحقيقة والمجاز وعند اطلاق العامى قد يكون ذلك سببا لسوء الاعتقاد فيه من السامع المميز بين الحقيقة والمجاز والمؤمن لا يعرض عرضه ولايقفن مواقف التهم ، فالأولى له التحاشى عن مثل ذلك التعبير المتردد بين الكفر والكراهة الذى يكون محرما تارة ومكروها أخرى ، كما قالوا فى من قال مطرنا بنوء كذا وكذا يكفر قائله مع الاعتقاد ويكره مع عدم الاعتقاد وان كانت القرينة الحالية موجودة وهو الاسلام ويجرى نحو هذا التفصيل فى كل من أسند من المسلمين أفعال الله الى الدهر أو الطبع أو النجم أو الفلك أو

---

(١) وله ملابسات شتى يلابس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والسبب كما فى علم البيان .

العقل الفعال على زعمهم أو العناصر أو نحو ذلك مع نصب القرينة بأن ذلك مجاز وأن الفاعل الحقيقى هو الله الخالق البارىء المصور « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » وأتقن صنع كل ماصنع فجعل كل مخلوق صالحا لما خلق له وما يترتب عليه من الحكم والغايات المحمودة والمنافع المطلوبة ، ذلك تقدير العزيز العليم الذى أحسن كل شىء خلقه باكمال خلقه وشكله وهيئته وسخره لما يراد منه وما خلق من أجله من الحكم والمصالح التى لا يحيط بعلمها الا هو وكفى بعلم التشريح للظاهر والباطن شاهدا «وماأوتيتم من العلم الا قليلا » وفى المقام أبحاث يطول شرحها والقصد الاشارة الى توطيد أصول دينية وقواعد كلية اعتقادية يدخل تحتها كثير من حل جزئيات الشبه ودحض كثير من البدع الشائعة التى تشم منها روائح الشيوعية (١) الشائعة وقد أدى اعتقاد حقية الفلسفة الباطلة فى الالهيات والطبيعيات الى رد آيات القرآن المحكمة الصريحة أو تحريفها لخيالات الفلسفة ذهابا منهم الى تقديم القواطع العقلية على السمعية غفلة عن معنى البرهان العقلى القطعى ومقدماته والعقل الصحيح لايصادم الشرع الصريح كما تقدم عن المحقق المقبلى ولم يعلموا أن القواطع الصريحة لاتتعارض ولا يحصل الجمع بينها انما يمكن الجمع والتأويل فى الأدلة الظنية فان فرض التعارض ظاهرا فى مثل مايؤدى الى الجمع بين النقيضين أو الضدين أو ما يرجع الى قضية العقل المبتوتة اذا صادمها الشرع كباب الحسن والقبح المطردين أو ما يؤدى الى الجبر والتشبيه وهذا يرجع الى الشرع أيضا اذ لا مجال للعقل فيهما . وقد تطابق العقل والنقل على بطلانهما ، فقد يدخل الترجيح أو التأويل فى الظاهر ، والا فلا تتعارض القواطع ، كما تقرر فى الأصول اما الخياليات والوهميات والحدسيات الفلسفية المتصادمة لقواطع الشرع وضرورة الدين فهى بمعزل عن المعارضة بها فضلا عن ترجيحها أو تأويل الشرع جبرا لخاطر الفلسفة لو كانوا يعلمون .

---

(١) وقال فى أوضح التفاسير للشيخ محمد محمد عبد اللطيف تفسر قوله تعالى حكاية عن الملحدين المنكرين للبعث « وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » فقال وقد ظهر الآن قوم ينكرون البعث ويقولون بالتعطيل وفى الحقيقة أن قلوبهم وعقولهم هى المعطلة فهم من علاة الزنادقة .

وقد نفى الاصوليون وجود قطعيين سمعيين أو عقليين أو مختلفين متعارضين انما هى الشبه والاوهام المشوبة بالجهل المركب أو التعصب التى ركزتها عقول وأوهام هؤلاء .

وقد قام علماء الاسلام ببحثها ودفعها وردها كما مر بعض ذلك ويأتى ما يؤكد ، وفى المواقف . لعضد الدين — وشروحه وحواشيه والتجريد وشرحه (القوشنجى) ومطالع الانوار « لشمس الدين الاصبهانى على طوالع الأنوار للقاضى عبد الله بن عمر البيضاوى والملل والنحل «للشهرستانى » ولابن حزم وسائر مؤلفات علماء الاسلام فى العقائد كالقلائد للامام المهدى احمد بن يحيى المرتضى وشرحها للنجرى ورياض الافهام فى لطيف الكلام للامام المهدى وشرحه الموسوم بدامغ الاوهام له والملل والنحل وشرحها له الموسوم بالمنية والأمل ومنهاج القرشي والأساس للامام القاسم بن محمد وشرحيه الكبير والصغير للسيد احمد بن محمد بن صلاح الشرفى وشرح العقد الثمين لشيخنا العلامة بقية المحققين القاضى محمد بن يحيى مداعس . واختصره السيد العلامة عبد الله بن محمد الظفرى وفى مفاتيح الغيب للامام الرازى وسائر كتب العقائد والأصول والتفسير — مايكفى ويشفى من ايراد شبه الفلاسفة والمتفلسفين وأجوبتها لابتنائها على أصول فاسدة بل باطلة كما عرفت ، ولهذا أقول ثانيا وثالثا . أنه لاينبغى تجريد تلك الشبه أو فروعها وحشوها فى الأصول الجغرافية أو التدريسية أو غيرها وتقديم ذلك للقراء والأساتذة وطلبة المدارس من دون حلها . والا كان اهمالها والغاؤها واجبا محتما . وكم من شبهة فلسفية أو هى وأوهن من بيت العنكبوت قد شككت كثيرا ممن لا علم عنده بحلها ولا يقين يمسحها ويحطمها ولا براهين معه وربما اعتقد ظاهرها لجهله بحلها كما عرفت ذلك بنفسى فى غير واحد فتراه يجادل عنها بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وفق الله المؤلفين والأساتذة والمدرسين وعلماء الدين وزعماء المسلمين وسائر الطلاب الناشئين وسائر المسلمين للحفظ والحرص على عقائد الدين وعزائم شريعة خاتم المرسلين . هذا وان أخذوا من بعض فنون الفلسفة المطابقة أو التى لم تخالف الاسلام فكما قيل خذ الثمار وخل العود للنار، أما الصناعية والهندسية والحسابية وما يعود على

عموم الأمة المحمدية بل الانسانية بالنفع مما لامساس له بالدين لا عملا ولا اعتقادا فكما تقدم . ولاشك أن بين مطلق الفلسفة غير الطبيعية والالهية وبين الشريعة اتصالا ما فى الجملة لاسيما الخلقية والحسابية والسياسية ونحو ذلك وما أحسن الفلسفة الحقة فى بدائع الاكوان . تأليف الشيخ محمد فريد وجدى الجارية على نمط العقل الصحيح والنقل الصريح وهذا عصر طم فيه تيار الكفر فالواجب على العلماء لا سيما المؤلفين منهم الذب والمحافظة على قواعد عقائد الدين وتجريدها عن شبه المتفلسفين على منهاج الكتاب والسنة والعقل السليم والفطرة التى لم تلوث وتغير .

***

فصل (١)

وما أحسن رسالة التوحيد للشيخ الكبير امام الأزهر محمد عبده رحمه الله على اختصارها ووفائها بمهمات المسائل الاعتقادية وعلى ذلك المنوال يحسن التأليف والنشر والتدريس والارشاد للنشء الاسلامى الا أنه لم يصرح فيها بمسألة الحشر والنشر وما يترتب عليها ، وهو المحور الكبير بين الأمم ولكن قد أشار اليها اجمالا فى غضون الآيات القرآنية التى ساقها فى الخاتمة . وهى بالبسط أحق وأحرى . وربما توهم أن اهمال ذكرها صراحة للتغاضى عنها وحاشاه فقد صرح بالثواب والعقاب والبعث فى بحث التصديق بما جاء به النبى صلى الله عليه وآله وسلم وفى غيره اشارة اجمالية ويعجبنى قوله رحمه الله . والذى علينا اعتقاده أن الدين الاسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفريق فى القواعد ، العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه ، وما وراء ذلك فنزعات شياطين وشهوات سلاطين والقرآن شاهد على كل بعمله قاض عليه فى صوابه وخطله ، وقال رحمه الله

(١) أما جمع الفلسفة الاغريقية والعقائد التوحيدية فى نمط واحد للحشر والنشر لما جرى بين بنى الانسان قديما وحديثا فى قالب واحد فى الجاهلية والاسلام كما صنع كثير من المؤلفين فمما لا يسوغ ولا يحسن فى هذا العصر لان ضرر ذلك قد يكون أكبر من نفعه

قبل ذلك بعد كلام طويل فى التنديد بمذاهب المتفلسفين وكيفية انتشار الفلسفة وسبب اغترار الناس بها وافتتانهم من أجلها فقال ص ١٥ ما يلى :

لكن ان أمرين غلبا على غالبهم .

الأول : الاعجاب بما نقل اليهم من فلاسفة اليونان خصوصا أرسطو وأفلاطون ووجدان اللذة فى تقليدهما لبادىء الأمر .

الثانى : الشهوة الغالبة على الناس فى ذلك الوقت وهو أشأم الأمرين فزجوا بأنفسهم فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين واصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة ، فمال حماة العقائد الاسلامية عليهم وجاء الغزالى ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجدوا فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات وما يتصل بها من الأمور العامة وأحكام الجواهر والاعراض ومذاهبهم فى المادة وتركيب الأجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئا من مبانى الدين ، واشتدوا فى نقده وبالغ المتأخرون منهم فى تأثرهم حتى كاد يصل بهم السير الى ما وراء الاعتدال فسقطت منزلة الفلاسفة من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة .. انتهى

ونعم ما قال . وقال السيد الامام محمد بن ابراهيم الوزير رحمه الله فى خطبة ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان .

أما بعد : فانه نبغ فى هذا الزمان من عادى علوم القرآن وفارق فريق الفرقان وصنف فى التحذير من الاعتماد على ما فيه من التبيان فى معرفة الديان وأصول قواعد الأديان ، وحث على الرجوع فى ذلك الى معرفة قوانين المبتدعة واليونان منتقصا لمن اكتفى بما فى التنزيل من البرهان مقبحا لتلقى كثير من محكماته بالقبول والايمان . لا جرم أن الله تعالى وان وصفه بأنه لقوم هدى فقد وصفه بأنه على قوم عمى ، فحسبوه حين عموا عنه وصموا أنه لأمر يرجع الى ذاته ولخلل يعود الى بين آياته ولم يعلموا أن ذلك يخصهم لما فى قلوبهم من الزيغ والعمة والعمى والردى والمرض فكأنهم المنافقون ريبا وخبثا وبهتانا حين قالوا « أيكم زادته هذه ايمانا » .

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

فترى أئمة الدين وعلماء الاسلام جميعا لم يزالوا ولن يزالوا يشنعون على المبتدعين والمتفلسفين فى شريعة خاتم المرسلين كل منهم يجاهد بقلمه ولسانه فى درء هذا الداء العضال فى كل عصر ويوسعون المقال لاتساع المجال ، ولكن اتسع الخرق على الراقع . فهؤلاء العلماء الراسخون وأمثالهم هم الذين أرشد الله اليهم بالسؤال لهم والرجوع اليهم فقال « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » وقال : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » الآية .

وقال الشيخ محمد رشيد فى الجزء الأول من شبهات النصارى وحجج الاسلام ص ٥٤ بعد أن ساق كلام الامام الغزالى فى مسألة الأسباب التى شرحها فى كتاب التوحيد والتوكل ، ففى كتاب تهافت الفلاسفة مع التوفيق بينهما ما لفظه أن المغرورين بالظواهر من الفلاسفة المتقدمين كانوا ينزلون الأسباب العادية الظاهرة منزلة العلل العقلية القاطعة وينسبون اليها التأثير ويزعمون أنها مطردة اطرادا ضروريا يستحيل انفكاكه ولو نهضت لهم الحجة البالغة على ذلك لما خالفهم المسلمون لأن القاعدة المتفق عليها عند المتكلمين هى أن قدرة الله وارادته لا تتعلقان بالمستحيل وانما تتعلقان بالممكن فقط ولكن لا حجة للفلاسفة على ذلك وانما هى شبهات كشف الحجاب عنها الغزالى وغيره حتى قال ولو سلم الناس بقول أولئك الفلاسفة لوقفت حركة العلم عند تلك الظواهر التى كانوا يرون تغييرها محالا عقليا وانما المحال العقلى شىء واحد ، وهو اجتماع النقيضين أو الضدين المساويين للنقيضين أو ارتفاعهما أى النقيضين . أما الضدان فيرتفعان بثالث قال ولو أن هذه الغرائب التى كشفها العلم فى عصرنا ذكرت لأولئك الفلاسفة القاصرين لجزموا باستحالتها وأوردوا على ذلك من الشبهات النظرية مثل ما أوردوه على القول ببعث الأجساد وأمثلة بعث الأجساد ظاهرة اليوم لعلماء الكيمياء ظهورا تاما . ثم ساق الكلام فى الأسباب والمسببات وجوز انفكاك كل منهما عن الآخر بمشيئة الله تعالى وقدرته كما تقدم ثم أورد فيه كلام الغزالى حتى قال : ومما ذكره الغزالى هنا هو ما عليه فلاسفة هذا العصر فانهم لا يقولون بأن شيئا من هذه المقتريات فى العادة المعروفة بالأسباب والمسبباب هو ضرورى

واجب عقلا وانفكاكه محال لا يتصوره العقل بل كل هذه الأشياء عندهم ممكنة وانفكاك التلازم ممكن بل وقع كثيرا انتهى . المراد من كلامه هذا فائدة فى الفرق بين المتقدمين والمتأخرين المعاصرين من الفلاسفة والمتفلسفين فى مسألة الأسباب والمسببات .

***

فصل

ومن هذا كله وما تقدم وما سيأتى تعرف أن من خالف فى قدم العالم خالف فى سائر الصفات الالهية ، وخالف فى نسبة الحوادث اليومية الى الصانع الحكيم كما خالف فى احاطة علمه بالجزئيات ، وخالف فى المعاد الجسمانى وخالف فى تعلق القدرة والمشيئة الالهية بابداع الكائنات ، فضلا عن فروع هذه الأصول . ولقد أجاد وأفاد وزاد الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدى فى كتابه الموسوم بالأدلة القواطع والبراهين فى ابطال أصول الملحدين المطبوع بالقاهرة سنة ١٣٧٣ هجرية على نفقة المؤلف الذى أكمل تأليفه فى ١٤ رجب سنة ١٣٧٢ فهو من رجال العصر فأورد فيه ثلاثة وثمانين برهانا على هدم أصول الفلاسفة الملحدين والماديين والطبيعيين . ومثل هذا الكتاب حقه أن يدخل فى صفوف التدريس للمدارس الاسلامية عموما ويلخص منه لكل صف ما يناسبه وما تأخر فالى صف آخر . وأصل التوحيد ودفع الشبه عنه مقدم فى العلوم الشرعية فضلا عن العلوم الدنيوية والدولية فقال فى خطبته بعد الحمد والثناء :

أما بعد : فان الله تعالى بعث رسله مبشرين ومنذرين وجعلهم الهداة والأئمة الى كل علم صحيح نافع ودين صحيح والى كل صلاح وخير وخص محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بأن جعله خاتمتهم وامامهم وأنزل عليه الكتاب والحكمة أى السنة فيهما الهدى والحق والنور وفيهما العلوم النافعة والحقائق الصادقة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب العالية واليهما ينتهى كل علم وحق وكمال وقد أوضح الله ورسوله فيهما المسائل والدلائل

والحقائق اليقينية والبراهين القطعية فمن تمسك بهما واهتدى بهما سعد فى الدنيا والآخرة ، ومن أعرض عنهما أو عارضهما ضل عن الهدى وشقى ونال الصفقة الخاسرة وأعظم الناس انحرافا عنهما ملاحدة الفلاسفة وزنادقة الدهريين والماديين والطبيعيين . وهم أكبر أعداء الرسل فى كل زمان ومكان وهم شرار الخلق الدعاة الى الضلال والشقاء فانهم تصدوا لمحاربة الأديان كلها وزين لهم الشيطان علومهم التى فرحوا بها واحتقروا لأجلها ما جاءت به الرسل : « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » وقد أصلوا لباطلهم أصولا يقلد فيها بعضهم بعضا ، وهى فى غاية الفساد يكفى اللبيب مجرد تصورها عن اقامة البراهين على نقضها لكونها مناقضة للعقل والنقل ولكنهم زخرفوها وروجوها فانخدع بها أكثر الخلق أعظمها عندهم أصل خبيث منقول عن معلمهم الأول أرسطو اليونانى المعروف بالالحاد والجحد لرب العالمين والكفر به وبكتبه ورسله ، وهذا الأصل الذى تفرع عنه ضلالهم انه من أراد الشروع فى المعارف الالهية فليمسح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات وليسع فى ازالتها من قلبه بحسب مقدوره وليشك فى الأشياء . قلت يريد بذلك محو نور الفطرة والعقل السليم والتوفيق والهداية حتى يبقى كالكوز المجخى(١) لتتمكن من قلبه شبه الكفر والالحاد . انظر الى هذا الأصل ، ثم اعرف ما وراءه قال ثم ليكتنف بعقله وخياله ورأيه وكملوا هذا الأصل الخبيث بحصرهم المعلومات فى المحسوسات وما سوى ما أدركوه بحواسهم نفوه وهذا أصل أفسد عليهم علومهم وعقولهم وأديانهم وقد بين الناس على اختلاف نحلهم بطلان أصولهم وأن أهلها قد خالفوا جميع الرسل وجميع العقلاء ومن أبلغ من تكلم عليها وأبطلها شرعا وعقلا شيخ الاسلام ابن تيمية فانه بين عدة وجوه فى فسادها وبطلانها كل وجه منها كاف فى ابطالها عند الانصاف فكيف اذا اجتمعت فننقل كلامه عليها ثم نتمم ذلك بما يسره الله قال رحمه الله فى نقض التأسيس لما ذكر هذا المعلم الملحد هذا الأصل الخبيث والكلام على هذا من وجوه ثم ساقها الى ثلاثة وثمانين وجها وكلها وجوه نيرة كالدر والدرارى ، ومنها قوله « الوجه السادس والستون » البراهين الدالة

(١) المجخى (المائل عن الاستقامة والاعتدال) .

على البعث(١) كلها تبطل أصول الفلاسفة الملحدين وقد استدل بنحو قوله تعالى « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » وبأنه كما بدأ الخلق من العدم فانه سيعيدهم للجزاء وباحياء الله الموتى كما في قصة عزيز وحماره ، والذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فأماتهم الله ثم أحياهم ، وبقصة الطير التي قطعهن ابراهيم ثم جعل على كل جبل منهن جزءا ثم دعاهن فأتين سعيا باذن الله ، وبأنه قد علم ما تنقص الأرض منهم عند تفرق الأجزاء . وبقوله تعالى « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة الى آخر السورة »، وباحياء الله الأرض بعد موتها واستدل بكمال قدرته تعالى واستدل بحكمته وأنه لا يليق به أن يترك عباده سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون وبغير ذلك من البراهين وهذه أمثلة ونماذج لهذه الأصول الثلاثة التوحيد والرسالة والبعث ، وكل واحد من هذه الأصول لو بسطت براهينه لبلغت شيئا كثيرا فكل واحد منها قد وصل الى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين وهي تهدم أساس التعطيل والفلسفة والالحاد وتوجب على العباد الاعتراف والانقياد لما خلقوا له من الايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وعبادته وحده لا شريك له (٢) ومن المعلوم أن الماديين والملحدين والمتفلسفين يباهتون وينكرون ذلك كله « ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم» انتهى .

وجدال ابن تيمية والشيخ عبد الرحمن السعدي جار مع المتفلسفين والمتأخرين من المسلمين في هذا الوجه ، أما أدلة البعث العقلية والالزامية فسيأتي ايرادها في موضعها انشاء الله على أن بعض هذه الآيات تدل من جهة التاريخ والعقل دلالة واضحة على البعث ، والمراد أن الكتاب المشار اليه حافل بحجج المعقول والمنقول .

---

(١) انما اختير هذا الباب لأهمية البعث ولأنه يناسب الجواب الاجمالي من وجه ولأن عقائد بعض المنسلخين قد انحرفت عنه فحقه أن يؤكد ويكون كما أكد · وكرر الحجج عليه كما يأتي في الفصل الاخير على أن سنة القرآن الاهتمام بالتكرير لزيادة التقرير في أمر له خطر عظيم وشأن كبير ·

(٢) والأعمال الصالحة دنيا ودينا ·

الفصل الثانى

فى الايمـان بالغيب الذى تنـزلت به الكتب السـماوية وأبلغتـه الرسـل الى أممهـا وكان هـو المعـركة الـكبرى أيضـا بـين الرسـل والأمم المـكذبة لهم وهـو الركن الأعظـم من أركان الايمـان والاسـاس المـكين لصـرح الاسـلام والدين فمـن ولج بابه نجـا واعتنق الايمـان ومن امتنـع غـرق وهـوى فى الدنيا والآخـرة . وحديث سؤال جبريل عن الايمان والاسلام والاحسان والساعة صريح فى ذلك وهو مع شواهده المعنوية متواتر بل عده الحافظ السيوطى منها وبوب عليه البخارى فى كتاب الايمان بكسر الهمزة ، وأورده فى تفسير سورة لقمان وغير ذلك ، ورواه مسلم من طرق ، وأصحاب السنن والمسندات والمعاجم وغيرها عن جماعة من الصحابة بألفاظ متقاربة . وفيه : فقال جبريل وما الايمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث . زاد مسلم ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، فالخير ما قدره الله وقضاه من الصحة والأرزاق وسائر النعم التى لا تحصى ، والشر ما قدره وقضاه من النقم والآلام والجوع والخـوف ونقص من الأمـوال والأنفس والثمرات . فالخير ما تألفه النفوس وتعده نعمة ولذة ، والشر مـا تكرهه النفوس سواء كان فى الدنيا ، فقد يكون خير للمؤمن فى الآخـرة بتكفير الذنوب ورفع الدرجات لأن الضرر العاجل قد يكون من أسباب النفع الآجل ، أم كان فى الاخرة كعذاب أهل النار ، وقد أوضحت المقام فى بحث آخر وهو مما لا يحتاج عند أهل العلم الى تأكيد وله مزيد يأتى فى بحث الحكمة فى الفصل السابع .

والأحاديث فى هذا طافحة جدا ، حتى الشوكة يشاكها المؤمن ، ومنها حديث جابر يرفعه يود أهل العافية يوم القيـامة حين يعطى أهل البـلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض وله طرق وألفاظ . وهـذا لفظ الترمذى وحديث أبى هريرة يرفعه عنـد أبى يعـلى وابن حبان فى

صحيحه والحاكم أن الرجل لتكون له المنزلة عند الله فما يبلغها بعمل فما يزال يبتليه الله بما يكره حتى يبلغه اياها قال الله عز وجل « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » . وقال « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يئوسا » فقابل الانعام بما يقابله من الفقر والأسقام والنقائص وسماه شرا وهو كذلك لغة وعرفا . وان كان بما يترتب عليه يخرجه مآلا الى الخير والانعام كما ينال الشهيد الدرجات بعد بذل نفسه وماله في سبيل الله . كما قال : « لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيئوس قنوط » « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » « اذا مسه الخير منوعا . واذا مسه الشر جزوعا » « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » أى ابتلاء ، كما قال سليمان : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر » . فقال « انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب » ، وقال تعالى فى وصف الانسان « وانه لحب الخير لشديد » أى المال . أو المال الكثير كما قالت عائشة فى قوله تعالى : « ان ترك خيرا» أى مالا كثيرا فعليه الوصية ، وهذا قبل نزول آيات المواريث .

نعم ، فالايمان بالغيب يدخل فيه التصديق بكل المغيبات الواردة كتابا وسنة التى لا مجال للحس فيها ولا للعقل فى ادراكها بديهة ، وقد جعله الله أول صفة من صفات المتقين فقال : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب » فقدمه على الأعمال البدنية من الصلاة والزكاة . فمن كان من أهل التقوى قبل هداية العقل والكتاب والرسول ، ومن لم يشم رائحة الايمان لم يقرع باب التقوى فأنى له الايمان بالغيب ، بل يجعل تلك المغيبات التى يجب الايمان بها التى قامت القواطع الشرعية على اثباتها شكوكا وأوهاما وخيالات أو خرصا وكذبا. كما قال عنهم عز وجل « هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد » ، « أفترى على الله كذبا أم به جنة» ثم أجاب عنهم بقوله : « بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » وأكد أمثالهم هذا القول ، فى قولهم « ان هو الا رجل به جنة » أى جنون « أم يقولون به جنة» ورد عليهم تعالى فقال « أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة

ان هو الا نذير مبين . قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد» « وما صاحبكم بمجنون وماهو على الغيب بضنين » (بالظاء والضاد) وكم ذكر الله تعالى قولهم وقالوا ساحر أو مجنون ، وكم أجاب الله عنهم ومنه قوله « نون والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك » أى بالنبوة « بمجنون » وهذا باب واسع كما قالوا « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » ولم يزل ولن يزال لغوهم فى القرآن والرسول ، كذلك «ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون » والكفر فى الحقيقة أنواع وفنون .

هذا وقد دخل فى الايمان بالغيب كل ما جاء على ألسنة الرسل من الايمان بالله وأسمائه الحسنى (١) وصفاته العليا من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، والايمان بملائكته وباليوم الآخر وبأحوال البعث والحشر والنشر ، ومن ذلك عذاب البرزخ ونعيمه للأرواح الخبيثة والطيبة اجمالا كما ورد كتابا وسنة . وقد تواترت الأحاديث بذلك واتفقت عليه الأمة وقد شذ المخالف فى ذلك وهو محجوج بالكتاب وما تواتر من السنة والبحث عن كيفيته وماهيته وكونه على الأرواح أو على الأجساد والأرواح أو غير ذلك . يؤخذ من مثل فتح البارى للحافظ ابن حجر وغيره من المطولات على أن السنة قد بينت أن ذلك يرجع الى الأرواح أيام البرزخ وستأتى الاشارة الى ذلك فى الفصل التاسع ، ثم بعد ذلك الحشر والنشر للأجساد ، وبعثرة من فى القبور ، والحساب ونشر الصحف والمرور على الصراط والقرار فى الجنة أو النار مع ما فيهما من الجزاء على الأعمال كما نطقت به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والحاصل أن الألف واللام فى الغيب

---

(١) وقد شرحها جماعة من أئمة الحديث مع جمعها والجمع بينها فما أحقها بالتدريس بعد التلخيص للنشء الاسلامى عموما فضلا عن أبناء المدارس ومن عرف الله بأسمائه حق المعرفة زالت الرواسى ولم يزل وهى أحظ وأولى أن تغرس فى نفوس الطلاب ولكن قاتل الله السياسة التى كان من آثارها تأثير الفلسفة على معرفة الله حق المعرفة وتقرير شبهها فى نفوس المبتدئين من غير بيان ولا انتقاد وهى سبب تغيير الفطرة وقد نظم الاسماء الحسنى بعض العلماء وشرحها جماعة غير علماء الحديث .. ولامره قال الله تعالى (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه » والفلسفة الطبيعية فضلا عن الالهية مضادة لها .. ولهذا جعل الاعتراف بها فى كل تشهد من الصلاة سواء كان الأوسط أم الأخير مقرونا بكلمة الاخلاص والتوحيد على أن تفهيم الطلبة والعوام معانى سورة الفاتحة مفيد جدا جدا .

من قوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب » للعهد الخارجى كالألف واللام فى الكتاب لأنهما فى سياق واحد . فالغيب الذى يجب الايمان به هو ما أخبرت به آيات الكتاب وأوضحته السنة التى هى « وحى يوحى » كما تقرر . « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين » « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » لا ما أخبرت بل الفلاسفة والمنجمون والدهرية والطبيعيون والماديون والباطنية المحرفون وسائر فرق الضلال المضلين الذين دفعوا فى وجه الشرائع أوهامهم وشكوكهم وشبههم وتشكيكاتهم وخرصهم وخيالاتهم واتبعوا أهواءهم «بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون »

قال أبو السعود : والغيب ماغاب عن الحس والعقل غيبة كاملة ، بحيث لا يدرك بواحد منها ابتداء بطريق البداهة ، وهو قسمان : قسم لا دليل عليه ، وهو الذى أريد بقوله تعالى « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » وقسم نصب عليه الدليل كالصانع المختار وصفاته والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام والشرائع واليوم الآخر وأهواله وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء . وهو المراد هنا . انتهى .

أى لأنه صفة للمتقين ويدخل فى ذلك ايماننا الآنبالنبىوسائر الأنبياء والرسل وما جاء على أيديهم من المعجزات والآيات والشرائع والأحكام التى وردت معظمها فى القرآن الكريم لقوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » وأما ما طرأ على الكتب السابقة من تبديل وتحريف لا سيما ما يرجع الى تحريف الأوصاف النبوية كما قال الله فى حق نبينا عليه الصلاة والسلام « الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل » وقال فى حقه وحقهم « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » فكل ذلك لا يقدح فى الايمان بها جملة والاعتراف بأصلها ، وأنها كتب سماوية وأحكام ربانية . انما الضلال كان من

المغضوب عليهم ومن الضالين وهم أهلها الذين أمرنا بالاستعاذة من اقتفائهم فى كل يوم فى كل صلاة فى كل ركعة وذلك كالايمان بالمتشابه فى شرعنا والمنسوخ منه ولهذا لم نتعبد منها الا بما ورد منها فى شرعنا ولم ينسخ فالايمان بأنها من عند الله واجب والعمل بما لم يرد به شرعنا منها الناسخ لكل شرع قبله فيما عارضه لا فيما وافقه حرام ، وقصة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما كان يريد أن يطلع على التوراة فى عصر النبوة أو تعلمها فغضب الرسول عليه الصلاة والسلام حينئذ مشهورة وكل الرسل والكتب السماوية متفقة على وجوب الايمان بالغيب الذى حكته فيها كما يحكيه القرآن فى معرض قصص الأنبياء وقصصهم على قومهم وانذارهم وتبشيرهم . وقال سحرة فرعون بعد ايمانهم « انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » وقال الخليل عليه السلام « واجعلنى من ورثة جنة النعيم » ثم قال . ولا تخزنى يوم يبعثون » وقال هود عليه السلام « انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » وقال موسى عليه السلام « ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار » وكيف نحتاج الى تطويل النقل لمثل هذا بعد اتفاق الرسل عليه واتفاق كتبهم واجماع أمة الاسلام وسائر الملل من أهل الكتاب على ذلك كما يأتى وقد مر ، قال الله تعالى : «انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا » وقد عرفت أن أصل الاتفاق بين الأنبياء هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وأما اختلاف الشرائع فى التكاليف فهو غير ذلك الاتفاق .

فمسألة البرزخ ونعيمه وعذابه والبعث والنشور وما يتبع ذلك من مسائل الايمان بالغيب لا يقضى فى جملتها وتفاصيلها الا الشرع ولا يقبل فيها غير الشرع لا الفلسفة المنافية لذلك اللهم الا فلسفة اسلامية مطابقة للدين زمامها الشرع وخطامها العقل ورائدها العدل والانصاف كما قد تجد بعض ذلك فى كتب بعض فلاسفة الاسلام وان خالفوا أو أخطأوا كثيرا كالفارابى وابن سيناء وابن رشد وأمثالهم ويأتى التنبيه على بعضها فى كتبهم من المخالفات المنافية لصرائح الكتاب وصحيح السنة كما مرت الاشارة

الى ذلك لأن الدليل قد يكون عقليا فقط ، وقد يكون شرعيا محضا ، وقد يكون مركبا منهما كما تقرر فى مظانه،وظاهر الكتاب والسنة ان العقل الفطرى يقود الى الايمان والتوحيد ما لم يطرأ عليه ما يغيره لأنه كالماء القراح لا يغيره مغير ثم قد نجد فى من عرف الله بالعقل السليم والفكر الصحيح من عرف اليوم الآخر والبعث وذلك من الغيب كأهل الكهف وان تأول كلامهم من تأول وادعى أن الباعث لهم على الايمان من ادعى كما فى بعض التفاسير المشوبة بالاسرائيليات فالسبب فى ايمانهم صريح فىأنه كان عن نظر العقل فقط فى مخلوقات الله لما رأوا مارأوا من قومهم مع أصنامهم فىيوم عيدهم. ففكر أولئك الفتية فى بطلان ما عليه قومهم ثم نظروا فتوقفوا ، فعرفوا أن لهم الها غير تلك الآلهة وظاهر القرآن يؤيد ذلك لأنه يقول « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » والمعدول هنا الى التوصيف بالجملة الفعلية الماضوية المفيدة للحدوث (١) حينئذ وذلك هنا حدوث الايمان يفيد أن ايمانهم حدث حينئذ بعد ان لم يكن عقيب لحظات النظر والتفكير من كل واحد مع التوفيق وزيادة الهدى من الله . « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » .

ثم قال الله فى أثناء القصة : « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها » واذا كان بعثهم بعد لبثهم فى نومهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا آية لملك الوقت المؤمن حينئذ على أن المعاد جسمانى وروحانى معا لا روحانى فقط كما زعمه بعض قومه ، وهم الكفار القائلون ابنوا عليهم بنيانا بعد ذلك ، فطلب الملك من الله آية على صحة وصدق المعاد الجسمانى لاقناع المنازعين ، فجعل الله بعثهم على طول المدة من نومهم واتفاق أحدهم بالملك وهو الذى ارتاد لهم أزكى الطعام آية على المعاد الجسمانى وسقط حينئذ قول من زعم أن المعاد روحانى فقط . فاذا كان ذلك آية لمؤمنى

---

(١) وقد تفيد الاستمرار بعد الحدوث بالقرائن ـ انظر الدسوقى على شرح السعد للتلخيص على قوله أول الخطية نحمدك ص ٧ والقرائن هنا قوية منها استمرار ايمانهم الى حين بعثهم من نومهم لان النائم يتصف بالايمان ومنها موتهم بعد ذلك على أكمل وجوه الايمان والهجرة التى ابتدعوها . ومنها أن الآية فىسياق المدح والثناء ومنها قولهم قبيل نومهم بين يدى دقيانوس : ربنا رب السموات والارض الآيات .

ومنها أن المؤمن يتصف بالايمان بعد موته الى الابد منها قولهم الدال على اليقين والتعويض ينشر لكم ربكم من رحمته الآية .

عصرهم كان لأهل الكهف أنفسهم أعظم آية على ذلك على أن ضرورة المولى المؤمن فضلا عن أن يعرف الله وصفاته ووعده ووعيده . ويؤمن باليوم الآخر وهم الحجة الكبرى فى اثبات كرامات الأولياء كما يشهد بذلك الواقع ولم تظهر ولايتهم وايمانهم فى الخارج الا عنـد قولهم بعد نومهم « ربنـا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا » الى آخر الآيات ، فالايمان باليوم الآخر فرع عن ايمانهم بالله بالدليل العقلى ، مع احتمال الهامهم بذلك بعد الايمان لقوله : «انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنـا على قلوبهم اذ قـاموا » وكل هـذا مع غض النظر عن الاسرائيليات . ويؤيد ذلك أن ممن عرف الله من عرف اليوم الآخر . ماروآه الحلبى فى سيرته ص ٤ ج ١ فى ترجمة عبد المطلب فقال وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيئات الأمور وكان يقول لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة حتى هلك رجل ظلوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة فقيل لعبد المطلب فى ذلك ففكر . وقال والله ان وراء هـذه الدار دارا يجـزى فيها المحسن باحسانه ويعاقب المسىء باساءته . انتهى . فظاهر قوله «ففكر» أنه أدرك بفكرته السليمة الدار الآخرة اجمالا ، وانما جاء الشرع مطابقا ومتضمنا لتفصيل ذلك وتقرير ما ذهبت اليه العقول الصحيحة — وأدركته — المؤيدة بالايمان والالهام مع التوفيق ونبذ العناد والأوهام (١) .

وعبد المطلب لا يخلو من أن يكون من أهل الفترة الذين لم يبدلوا ولم يغيروا فهم ناجون فى الآخرة ، واما يكون من بقيـة من تمسـك بدين ابراهيم فكذلك لكن تفكيره يشعر بالأول . واما أن يكون قد عرف ذلك من الكتب القديمة كأمثاله فكذلك . ولم ينقل عنه هذا على ما فصله الزرقانى فى شرح المواهب . وقد أفردت أهل الفترة برسالة مستقلة تضم قوله ففكر

---

(١) ولا ينافى هذا ما تقدم من أن الايمان باليوم الاخر من الايمان بالغيب ولا يفيد فيه الا الشرع لأن من عرف الله بعقله لا يمتنع عليه أن يعرف اليوم الآخر بالنظر الى عدل الله وحكمته لان الايمان به كالتتمة للايمان بالله والالهام والهـداية من الله لمن اهتـدى بحجة العقل نطق بها القرآن والحاصل أنه لا مانع من الايمـان باليـوم الآخر بالنظر الصحيح وانما يتوقف على الشرع تقرير ذلك وتفاصيله تأمل وقصة عبد المطلب وأهل الكهف يشهدان لذلك .

وقال يشعران بأنه من أهل الفترة ، والا لقال . قد قال الله تعالى أو قال النبى الفلانى أو نحو ذلك كذا وكذا تأمل . على أنه لم يشتهر عنه الأخذ من الكتب القديمة كورقة بن نوفل وأمثاله .

***

فصــل

أما أهل الكهف من غير نظر الى الأقوال الشاذة والحكايات الاسرائيلية المنافية لظاهر القرآن فاليك زيادة وتأكيد أمرهم .

قال فى الفتوحات الالهية : قوله « ليعلموا أن وعد الله حق » يعنى الأمة المسلمة الذين بعث أهل الكهف على عهدهم ، وذلك أن ديانوس كان قد مات وجاءت قرون ثلثمائة سنة وزيادة مدة بعثهم فى كهفهم قبل بعثهم . ثم ملك تلك البلدة رجل صالح واختلف أهل مملكته فى الحشر وبعث الأجساد من القبور فشك فى ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا انما تحشر الأرواح دون الأجساد فان الجسد تأكله الأرض وقال بعضهم تبعث الأرواح والأجساد جميعا . فكبر ذلك على الملك . وبقى حيران لا يدرى كيف يبين أمر البعث لهم حتى لبس المسوح وقعد على الرماد وتضرع الى الله تعالى فى طلب حجة واظهار برهان على بعث الأجساد فأعثره الله على أهل الكهف . فيقال أنهم لما بعثوا أحدهم بورقهم الى المدينة ليأتيهم برزق منها استنكر شخصه واستنكر ورقه لبعد العهد فحمل الى الملك وكان صالحا قد آمن وآمن معه قومه أى بعضهم لما يأتى فلما نظر اليه قال لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك وقد كنت أدعــو الله أن يرينيهم ، وسأل الفتى فأخبره فسر بذلك وقال لقومه لعل الله قد بعث لكم آية فلنسر الى الكهف معه فركب مع أهل المدينة اليهم فلما دنوا من **الكهف** قال تمليخا أنا أدخل عليهم لئلايرعبوا ويفزعوا فدخل عليهم وأعلمهم بالأمر وأن الأمة مسلمة فسروا بذلك وخرجوا الى الملك وعظموه وعظمهم ثم رجعوا الى كهفهم .

وفى بعض الروايات أنهم ماتوا حين حدثهم تمليخا ميتة الحق ورجع من كان يشك فى البعث الجسمانى الى اليقين لأن القادر على انامتهم المدة الطويلة

وابقائهم على حالهم بلا غذاء قادر على احياء الموتى ، فهـــذا معنى قوله : « أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق » أى ليعلم الملك ورعيته أن القيامة وبعث الأجســـاد حق « اذ يتنازعون بينهم أمرهم » وانما استدلوا بذلك الواحـــد على خبرهم وهابوا الدخـــول عليهم على هـــذه الرواية كما فى القرطبى .

وفى الجلالين أنهم « يتنازعون » أى المؤمنون والكفار « بينهم أمرهم » أى أمر الفتية فى البناء حولهم « فقالوا » أى الكفار « ابنوا » عليهم « أى حولهم « بنيانا » يسترهم بيعة أو مصنعا « ربهم أعلم بهم . قال الذين غلبوا على أمرهم » أى أمر الفتية ، وهم المؤمنون « لنتخذن عليهم » أى حولهم « مسجدا » يصلى فيه وفعل ذلك فى باب الكهف ا. هـ .

وانما نقلت الكلام وسقته مطولا لأهمية القصة ودلالتها على الايمان بالغيب وكيفيـــة الدلالة المـــأخوذة منهـــا وبيـــان أن القـــائل بالمعـــاد الروحانى حينئذ فرقة كفرية ولا حجة لهم غير مجرد الاســـتبعاد لاعـــادة الأجساد وأن القصة أقنعتهم ، واستدلوا بها على اعادة الأجساد يوم المعـــاد كما قال الله تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه »أى بالنظر الى العادة البشرية المستمرة أن الاعادة أهون من الابتداء كما لا يخفى . أما بالنظر الى قدرة الله التى لا يمتنع عليها شىء من الممكنات واحاطة علمـــه بذرات الوجود واجزاء الأموات فكما قال تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » .

وكان بناء المعـــابد على الأمـــوات أو القبـــور ، أى حولهـــا جائز عنـــدهم . وأما فى شرعنا نسخ على ما قررته الأحاديث الزاجـــرة عن اتخاذ المســـاجد عليها والصلاة اليها ، الا أن ظاهر عبـــارة الجلالين أن البنـــاء للمسجد انما كان حول الكهف على بابه لأن الكهف قد سد بابه عليهم حينئذ فلا ينافى ذلك ما ورد فى الأحاديث النبوية مع ما ألقى الله عليهم من الهيبة حينئذ فلا يمكن الدخول والاطلاع عليهم . قال الله تعالى : « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » وقد لا يتسع البنـــاء عليهم فى

الفجوة التى لبثوا فيها ثم ماتوا فيها وكل ذلك من الآيات النافعة المفيدة لمن يؤمن بالغيب ، أمـــا من يجحد ذلك فقد يذهبـــون الى انكار الضروريات والمشاهدات ، « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقـــال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » ويشكون ويشككون فى المعجـــزات المحسوسات فضلا عن اعادة الرفات ، فضلا عن وجود جنة عرضها الســـموات والأرض ، ونار لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم .

***

الفصل الثالث

فى الايمان باحاطة علمه تعالى بالكليات والجزئيات ، فى العلويات والسفليات

وهو كالتتمة أو الفرع لما قبله ، لاشتراكهما فى الأدلة والموضوع فى الجملة .

فهو تعالى عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، كما قال الله تعالى : « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » فأخبر تعالى بما سيقاسيه صلى الله عليه وآله وسلم لو اطلع على أهل الكهف ولم يطلع ، وقال : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون» ولم يرد ، على ما سيكون منهم لو ردوا الى الدنيا ومنه « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » ، قيل : كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وآله وسلم : أحى لنا قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك بالنبوة وتؤمن بك ، والمعنى ولو علم الله فيهم خيرا وايمانا لأسمعهم كلام قصى ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ، وقال تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » « ولو شئنا لرفعناه بها » .

وقد تقرر أن مدخول «لو» فى حيز النفى لأنها حرف يقتضى امتناع ما يليه واستلزامه لتاليه اذا كان مساويا ، نحو : لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجودا ، بخلاف لو كانت الشمس طالعة لكان الضوء أو النور موجودا على ما فصل فى مظانه ، والنفى عدم محض ، وفى هذا ان الله يعلم المعدوم الممكن لو كان كيف يكون كما تتعلق به القدرة أيضا عند الارادة ، اذ لا تتعلق القدرة الا بالمعدوم والممكن بخلاف الموجود لاستغنائه عن الايجاد بعد ايجاده والمستحيل عقلا اذ لا تتعلق به القدرة كما يأتى .

وكاد الناس الآن أن يجهلوا المستحيل استحالة عقلية وهو مالا يتصور وجوده لا فى الدنيا ولا فى الآخرة كنفى الزوجية عن الاثنين والفردية عن الواحد وجعل المحدث قديما والعكس والجمع بين النقيضين أو الضدين القربين فى آن واحد ومكان واحد حتى يكون كل منهما عين الآخر ومنه النفى والاثبات مع اجتماع الثمان الوحدات اذ ذلك ليس من متعلقات القدرة ، انما تتعلق بالممكن ، حتى جعل من لايعرف معنى المستحيل المتعذر من قبيل المستحيل عقلا وهو ما تعذر وجوده ووقوعه لحصول مانع أو فقد شرط وان وجد المقتضى ، كطلوع السقف من خارج الدار بلا آلة ، والمرور فى الهواء أو فوق الماء ، وسماع الصوت البعيد كذلك، ولو كان ذلك مستحيلا استحالة عقلية ما كان ولا وقع ، والوقوع دليل الجواز والجائز ممكن والممكن غير المستحيل ، فلما انتفى المانع بوجود الشرط حصل ما كان متعذرا قبل ذلك لأن انتفاء الشرط وفقده ينقلب مانعا ألا ترى أن الهواء طريق مسلوك للطير ، والبحر طريق ومركز للحوت ؟! انما تعذر ذلك على الانسان لفقد الشرط وهى الآلة الواقية من الهوى ومن الغرق وفقد القوة الجاذبية للصوت مانع لسماعه من البعيد ووجودها شرط كذلك وهلم جرا .

وهذه الدقيقة جلية عند أهل العلم والعرفان ، انما جهل الحق والحقائق من كان بمعزل عن ذلك فوقعوا فى الشكوك والتشكيكات والأوهام التى أثرت الزيغ فى قلوب خاوية ، وعقول واهية ، وأثارت تغيير الفطرة ، « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » « ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة » .

وكان ذلك بظهور بعض المخترعات العصرية مع جهلهم بحقيقة المعجز الشرعى والمستحيل العقلى لاختصاص المعجز بالرسول تصديقا من الله عزوجل كما تقدم ويأتى . ومن هناك وهنا تركب الجهل عند العوام ومن ضاهاهم من الأنام ، ومن جهل شيئا عابه . واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم ، وقد أعرض الكثير عن علوم الدين وعقائد الاسلام فكان منهم ماكان ، وقد تقدمت الاشارة الى نحو هذا ويأتى له مزيد ايضاح فى أواخر الفصل الآخر

ان شاء الله ، وانما أكدت التنبيه عليه لزيادة التقرير والايقاظ وهذا استطراد ، نعم ولنعد الى مانحن بصدده .

قال الله تعالى حكاية عن اعتذار الخضر لموسى عليهما السلام وازاحة ما في نفسه وتأويل أفعاله التى أنكرها موسى ، وأما الغلام أى الذى قتله الخضر بأمر الله لقوله « وما فعلته عن أمرى » فقال : « وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا » أى علمنا لو لم تقتله « أن يرهقهما طغيانا وكفرا » وقصة الخضر مع مافيها من الأسرار تعد من المتشابه قبل التأويل .

***

فصل

وأما علمه تعالى بالجزئيات الدقيقة فى العلويات والسفليات من الجواهر والأجسام الصغيرة والأعراض الماضية والآتية والحالية ، فالقرآن مشحون بذلك والدليل العقلى يأتى لأن علمه تعالى لذاته فلا اختصاص له بشىء فهو أعم من القادرية ، وانظر الى وسوسة الشيطان التى ألقاها الى آدم فكانت سبب خروجه من الجنة والى خطبته التى يخطب بها فى قعر جهنم لأتباعه وقال الشيطان لما قضى الأمر « ان الله وعدكم وعد الحق » أى بالبعث والجزاء« ووعدتكم » أى بالوسوسة والقاء الشكوك بأن لا وعد ولا وعيد ولا ثواب ولا عقاب ولا بعث ولا جزاء « فأخلفتكم » فانظر ما بين المكانين والزمانين الكائنين مابين الوسوسة لآدم والخطبة فى النار،ووسوسته لتشكيك الناس فى الدنيا فى أمكنة وأزمنة لا تحصى ، تجد من ذلك علما جما فى العلم بحوادث العالم السفلى بين الشيطان وبين بنى آدم وما تحدث به أنفسهم وما تنطق به ألسنتهم وتمشى به أقدامهم وتبطش به أيديهم ، وهذا يستلزم جزءا كبيرا ، كتابا وسنة ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا ، ومن ذلك ما أخبر الله به عن محاجه أهل النار بعضهم لبعض ، وتبرىء الذين اتبعوا من الذين اتبعوا . وعتاب الذين استضعفوا للذين استكبروا ، ودعاء الضعفاء على ساداتهم الذين أضلوهم ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله ،

واستغاثة أهل النار بأهل الجنة بأن يفيضوا عليهم من الماء ومما رزقهم الله ، وأحوال أهل الأعراف وأهل الجنة وأحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار وما فيهما مما أخبر الله به أنه سيكون ، وكل ذلك من علم الغيب وهو صريح فى العلم بالجزئيات من الوساوس والأقوال والأفعال والأحوال والخطرات . « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » «وهو عليم بذات الصدور » « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » وهذا معلوم من الدين بل من ضروريات أديان الأنبياء والرسل والكتب السماوية وكلها وكلهم مطبقون عليه انما الخلاف فيه لقدماء الفلاسفة وأتباعهم تحكما بأوهامهم فى الذات العلية والصفات الكمالية فى العالم وصفاته وأحواله والله يقول : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » . وقد تفرع على نفى العلم بالجزئيات عندهم نفى المعاد الجسمانى لتفتت العظام الرميم وتفرق الرفات وتبدد الأجزاء فكل مسألة فلسفية كفرية يترتب عليها ويتفرع مسائل كفرية أكبر منها كفرا أو مثلها جدالا بالباطل ، « وكان الانسان أكثر شيء جدلا » « وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم »

***

فصل

قال فى المواقف وشرحه وحواشيه فى البحث الثانى من المقصد الثالث من المرصد الرابع من الموقف الخامس فى الصفات الوجودية « ص ٥٨ ج ٣ » . ما نصه .

البحث الثانى أن علمه تعالى يعم المفهومات كلها الممكنة والواجبة والممتنعة ، فهو أعم من القدرة لأنها تختص بالممكنات دون الواجبات والممتنعات لما تقدم فى القدرة وذلك أن الموجب للعلم ذاته والمقتضى للمعلومية ذوات المعلومات ومفهوماتها ونسبة الذات الى الكل على سواء .

ثم ساق الخلاف فى ذلك للدهرية وقدماء الفلاسفة وغيرهم من الفرق ، وأجاب عنهم حتى قال :

الفرقة الخامسة : من قال ، وهم جمهور الفلاسفة : لا يعلم الله تعالى الجزئيات المتغيرة والا لزم تغير ذاته من صفة الى صفة لأنه اذا علم أن زيـدا فى الدار الآن ثم خرج عنها فاما أن يزول ذلك العلم ويعلم أنه ليس فى الدار أو يبقى ذلك العلم بحاله ، والأول يوجب التغير فى ذاته من صفة الى صفة والثانى يوجب الجهل وكلاهما نقص يجب تنزيهه تعالى عنه ، قالوا وكذلك لا يعلم الجزئيات المتشكلة وان لم تكن متغيرة كأجـرام الأفلاك الثابتـة على أشكالها لأن ادراكها انما يكون بآلات جسمانية وكذا الحال فى الجزئيات المتشكلة المتغيرة اذ قد اجتمع فيها المانعان بخلاف ماليس كذلك أى ليس له شكل ولا تغير فانه يعلمها بلا محذور كذاته تعالى وذوات العقول .

قال فى حاشية المواقف : قولهم لايعلم الجزئيات المتغيرة ، لاشك أن هذا يستلزم الجهل بتلك الجزئيات من بعض الوجوه . ولهذا كفرت الفلاسفة فلا وجه لنفى علمه بالجزئيات المتغيرة الخ .

ثم قال صاحب المواقف وشارحه : والجواب منع لزوم التغير فيه بل التغير انما هو فى الاضافات لأن العلم عندنا اضافة محضة أو صفة حقيقية ذات اضافة ، فعلى التقـدير الأول يتغير نفس العلم ، وعلى الثانى تتغير اضافاته فقط ، وعلى التقـديرين لا يلزم التغير فى صـفة موجودة بـل فى مفهوم اعتبارى وهو جائز وادراك المتشكل انما يحتاج الى آلة جسمانية اذا كان العلم حصول الصورة ، وأما اذا كان اضافة محضة أو صفة حقيقية ذات اضافة بدون الصورة فلا حاجة اليها ، وقـد أجاب عنه مشايخ المعتزلة وكثير من الأشاعرة بأن العلم بأنه وجد الشيء ، والعلم بأنه سيوجد واحد ، فان من علم أن زيدا سيدخل الدار غدا أو البلد فعند حصول الغد يعلم بهذا أنه دخل البلد الآن اذا كان علمه هذا مستمرا بلا غفلة مزيلة له ، وانما يحتاج أحدنا الى علم آخر متجدد يعلم به أنه دخل الآن لطريان الغفلة عن العـلم الأول ، والبارى تعالى تمتنع عليه الغفلة فكان علمـه بأنه وجد عين علمه بأنه سيوجد ، لأن علمه تعالى ليس زمانيا يتقيد بأحد الازمنة ، أى ليس واقعا فى زمان كعلم أحدنا بالحوادث المختصة بأزمنة متعينـة فانه واقع فى زمـان مخصوص ، فما حدث منها فى ذلك الزمان كان حاضرا عنده ، وما حدث قبله

أو بعده كان ماضيا أو مستقبلا . وأما علمه تعالى فلا اختصاص له بزمان أصلا فالله تعالى عالم بجميع الأفعال والأقوال والهواجس والوساوس والحوادث والجواهر والأجسام والأعراض الجزئية وأزمنتها الواقعة هي فيها لا من حيث أن بعضها واقع الآن وبعضها فى الماضى وبعضها فى المستقبل ، فان العلم بها من هذه الحيثية قد يتغير على زعمهم بل يعلمها كما هى ، كما يعلم أزمنتها علما متعاليا عن التقيد والدخول تحت الأزمنة كعلمنا فعلمه ثابت مطابق للحقائق. قال الشارح رحمه الله وتوضيحه أنه تعالى لما لم يكن مكانيا كانت نسبته الى جميع الأمكنة على سواء فليس فيها بالقياس اليه قريب وبعيد ومتوسط ، كذلك لما لم يكن هو وصفاته الحقيقية زمانيا لم يتصف بالزمان فلا يكون مقيسا اليه بالمضى والاستقبال والحضور بل كان نسبته الى جميع الأزمنة سواء فالموجودات من ابتدائها الى الأبد معلومة له كل فى وقته ، وليس فى علمه كان وكائن وسيكون بل هى حاضرة عنده فى أوقاتها فهو عالم بخصوصيات الجزئيات وأحكامها ، لكن لا من حيث دخول الزمان فيها بحسب أوصافها الثلاثة اذ لا تحقق لها بالنسبة اليه . ومثل هذا العلم يكون ثابتا مستمرا لا يتغير أصلا كالعلم بالكليات انتهى .

قال عبد الحكيم السيالكوتى فى هذا المقام من حواشى المواقف بعد كلام ناقش فيه الشارح الأولى فى بيان عدم لزوم التغير أصلا أن يترك القياس على المكان ولا يبنى الكلام على أنه تعالى ليس زمانيا . بل يقال أن الله تعالى يعلم الجزء المعين من الزمان لا باعتبار الماضى والاستقبال والحضور بل بحسب ذاته تعالى . والعلم بهذا الوجه لا يتغير بتغير الأزمنة سواء كان العالم زمانيا أم لا ، وهذا ظاهر عند التأمل انتهى .

قلت : وانما أوردوا هذا الالزام لقياسهم الغائب على الشاهد ، وهو خارج عن مقدمات القياس وعن الفصول والأنواع والأجناس فالقياس فاسد الاعتبار « ليس كمثله شيء » فصفاته كذلك والا لأشبهت صفات المحدثات فيلزم أن لها مثلا فيلزم أن له مثلا اذ المشابه فى أخص الصفات مشابه ومماثل للذات كما تقدم .

وقال المحقق المقبلي فى العلم الشامخ ص ٦٠٣ أو فى الأرواح النوافخ المتصلة به في سياق تعداد هذيان بعض الفرق والفلسفة الباطلة فى الالهيات: ومنها قول الفلاسفة لو علم المتغيرات لتغير علمه الواحد الواجب هذا خلف ويلزم كذلك أن يتغاير علمه بتغاير المعلومات المستمرة فيتركب هذا خلف ويلزمهم أيضا أن يغاير هو صفاته فيتركب . ونحو ذلك وكل هذا هذيان ولغو . انتهى .

ويلزم على هذا المذهب الفلسفى بل يتضمن نفى المعاد الجسمانى بل صرحوا بذلك تفريعا على هذا الأصل الباطل ، فكيف يقوم الظل والعود أعوج ؟ وذلك لنفيهم عن الله العلم بالجزئيات المتغيرة وأى تغير أكبر من تغير بدن الانسان فى البرزخ الى يوم القيامه فضلا عما أكلته السباع والطير والحوت ويأتى البحث فى هذا فى الفصل الآخر لأن البعث يتضمن أو يستلزم الحساب على دقائق الأعمال والأقوال والارادات الجارفة فينبئهم بما كانوا يعملون « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . «وان تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» « أفلا يعلم اذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور » « ان ربهم بهم يومئذ لخبير » . فاعرف هذا الأصل الباطل تعرف فروعه المنهارة.واعرف الحق تعرف أهله . واعرف الباطل تعرف أهله . ولو كانت لهم أدنى مسكة بالشرائع فمزجوا فلسفتهم بها وتقيدوا بقيودها كما فعل متأخروهم من فلاسفة الاسلام على ما فى كلامهم من التقليد والمجازفة والتحريف لكان أمرهم أقرب الى الصواب ولو فى مهمات المسائل ومعظم الأبواب ؛ ولكن نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتبعوا ما تتلوا الشياطين وتملى لشياطينهم شياطين الجن والانس يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا : «وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون » . فجعلوا صفة الكمال العليا لله عز وجل نقصا وسلبها تنزيها . وكفى بذلك جهلا حتى اضطروا الى أن يجعلوا العلم بالجزئيات لغير الله من المخلوقات كما قال الامام الغزالى فى تهافت الفلاسفة .

مسألة : فى ابطال قولهم أن نفوس السموات أى الأفلاك مطلعة على جميع الجزئيـــات الحادثة فى هذا العالم الى آخرها وقال قبل ذلك ص ٥٣

مسألة : فى ابطال قولهم ان الله — تعالى عن قولهم — لايعلم الجزئيات المنقسمة بانقسام الزمان الى الآن والى ماكان والى مايكون ، وقد اتفقوا على ذلك ، وأن من ذهب منهم الى أنه لايعلم الا نفسه فلا يخفى هذا من مذهبه ومن ذهب منهم الى أنه يعلم غيره وهو الذى اختاره ابن سيناء فقد زعم أنه يعلم الأشياء كلها علما كليا لايدخل تحت الزمان ولا يختلف بالماضى والمستقبل والحال ومع ذلك قال أنه لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض الا أنه يعلم الجزئيات بنوع كلى الخ . ثم ساق الكلام فى أربع صحائف فطالعه ثمة . ولأمر ما كرر الله آيات العلم بالجزئيات الخفية وأنه يعلم السر وأخفى ويعلم ما تحت الثرى ويعلم ماتنقص الأرض منهم . « مايكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادســهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم » ، أى بعلمه وسلطانه واحاطته « أينما كانوا ثم ينبؤهم بما عملوا يوم القيامة ، ان الله بكل شىء عليم » ، « وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه » ، أى نضـيق لعدم ظنه بأنه عصى « فنادى فى الظلمات » ظلمة بطن الحوت وظلمة أمواج البحــر تلتطم فوقه وظلمة الليــل ، « أن لا اله الا أنت ســبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » ، فأى علم وادراك بالجزئيات الخفية والمتشكلة أدق من هذا يا هذا .

***

فصــل

واليك معيار العلم بالجزئيــات الغيبية والأشياء الخفية والمشاهدات الجلية من الجزئيات المتغيرة والمتشكلة فى قوله تعالى « وعنده مفــاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » قوله «وعنده مفاتح الغيب » قال أبو السعود بيان لاختصاص المقدورات الغيبية به تعالى

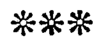
من حيث العلم أثر بيان اختصاص كلها به تعالى من حيث القدرة ، ثم تكلم على الاستعارة فى هذا التركيب والمجاز وقال فى قوله تعالى « لا يعلمها الا هو » تأكيد لمضمون ما قبله وايذان بأن المراد هو الاختصاص من حيث العلم ، لا من حيث القدرة ، والمعنى أى مع ملاحظة السياق (١) السابق له أن ما تستعجلونه من العذاب ليس مقدورا لى حتى تلزمونى بتعجيله ولا معلوما لدى لأخبركم بوقت نزوله ، بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلما . قوله تعالى «ويعلم مافى البر والبحر» بيان لتعلق علمه تعالى بالمشاهدات اثر بيان تعلقه بالمغيبات تكملة له وتنبيها على أن الكل بالنسبة الى علمه المحيط سواء فى الجلاء أى يعلم ما فيهما من الموجودات مفصلة على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثر أفرادها وأشخاصها يعنى مع أن كثيرا من ذلك غيب بالنسبة الينا اذ لا نشاهد فيهما الا المشاهد ولا نحس الا بالمحسوس والغيب عبـارة عما لا يدرك بحس ولا عقل ، والعقل انما يدرك لذاته الكليات والجزئيات المجردة ، ثم قال قوله تعالى «وما تسقط من ورقة الا يعلمها» بيان لتعلقه بأحوالها المتغيرة بعد بيان تعلقه بذواتها وهذا رد على الفلاسفة (واذا جاء نهر الله بطل نهر معقل) ولهذا قال فان تخصيص حال السقوط بالذكر ليس الا بطريق الاكتفاء بذكرها عن ذكر سائر الأحوال ، كما أن ذكر حال الورقة وما عطف عليها خاصة دون أحـوال سائر ما فيهما من فنون الموجودات الفائتة للحصر باعتبار أنها نموذج لأحوال سائرها ، قوله تعالى « ولا حبة » ، عطف على ورقة ، وقوله « فى ظلمات الأرض » متعلق بمحذوف هو صـفة لحبة مفيـدة لكمال نفـوذ علمـه تعالى أى ولا حبة كائنة فى بطون الأرض الا يعلمها أى ويشير الى هذا قوله « فالق الحب والنوى » ، « أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » ، لأنه الخالق للزرع والنبات فهو عالم بفعله وخلقه « ألا يعـلم من خلق وهو اللطيف الخبير » « ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا » الآية قال : وكذا قوله تعالى « ولا رطب ولا يابس » معطوفان عليها داخلان فى حكمها أى وهو من عطف العـام على الخاص المعطوف على العام لأن الرطب واليابس يعمان

(١) فى تفسير قوله تعالى « قل انى على بينة من ربى وكذبتم به ماعندى ماتستعجلون به » أى من العذاب الذى يطلبونه « ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين قل لو أن عندى ماتستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين » ، ثم قال (وعنده مفاتح الغيب) .

ما فى البر والبحر سواء كان ذلك بالفعل أم بالقوة أم بالخاصة فيدخل فيه العقاقير والحيوانات والعناصر والطبائع التى فطرها على ذلك وسائر الموجودات المتصفة بالرطوبة واليبوسة ويتبع ذلك الحرارة والبرودة كما فصل فى المفردات الطبية والتشريح وغيرها ، قال تعالى « يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها» فعم حركات جميع الموجودات فى العالم السفلى والعلوى ولوجا وخروجا من الارض ونزولا وعروجا الى السماء نباتا واحياء وأمواتا وسحابا وأمطارا وثلوجا ورياحا وغيرها ، وتفصيل ذلك أكثر من أن يحصر ، قال وقوله تعالى « الا فى كتاب مبين » من الاستثناء الأول يدل الكل على أن الكتاب المبين عبارة عن علمه تعالى أو بدل الاشتمال على أنه عبارة عن اللوح المحفوظ انتهى ثم قال تعالى : «وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار » ، أى ماكسبتم فيه «ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم اليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون»، «وهو القاهر فوق عباده » وقال تعالى : «ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » ، أى قد أحطنا بكم علما من لدن آدم الى يوم القيامة ، ثم قال : « وان ربك هو يحشرهم انه حكيم عليم » والحشر يستلزم الاحاطة علما بالأجزاء والجزئيات المتفرقة المتغيرة والمتشكلة ، ثم جمعها وتركيبها كما تقدم فهل بقى نفوذ عند مؤمن للمذاهب الفلسفية الخارجة عن نصوص القرآن بل المصادمة لها يا أهل العلم والايمان الذى نزل لابطال كل باطل « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » وقال تعالى ، فى الجزئيات المتغيرة ونحوها « وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » وقال عز وجل « عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » ، «ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون ومايعلنون » «واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه» ، «وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » وقال حكاية عن لقمان « يابنى انها ان تك

مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة ، أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير » والاتيان بها فرع من العلم بها فهل تقاس عالميته تعالى بعلم المحدثات أو صفاته بصفاتهم ، « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين » المبلغين للوحى الى المكلفين قولا وفعلا واعتقادا وأخلاقا ، المرشدين الى مصالح الدنيا والآخرة الهادين الى أعمال الخير فى الدنيا والدين لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة ، والحمد لله رب العالمين الذى أزاح العلل وبين مناهج الهدى ومعوجات السبل ، وقال تعالى « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » « لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما» ، « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا » ، « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما » ، « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى »، أى معلوماته الكلية والجزئية فى الدنيا والآخرة كما قرره المفسرون «لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » ، « والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله » ، أى معلوماته كما تقدم ، وكثيرا ما يرد لفظ السبعة ولفظ السبعين ونحوهما لمجرد المبالغة من غير ارادةالظاهر، فلا مفهوم له ، ومنه « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ، قال الله تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون »وفى حديث ان ثبت اسناده والا فمعناه غير بعيد ويشهد له الآية ، « ان لله ثمانية عشرألف عالم ، الدنيا وما فيها عالم واحد » وقد كشف الاكتشاف كثيرا من المخلوقات التى لانعلمها ويأتى ذكر بعضها فى الفصل الآخر ، وكل مؤمن غنى عن ايراد آيات احاطة علم الله بالكليات والجزئيات بيد أنى أوردت منها ما تقدم ليزداد المطلع المؤمن ايمانا ويزداد الذين آمنوا ايمانا « واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم » وبعلم المؤمنون أنهم على صراط مستقيم ، وانما جاءهم ما جاءهم من خلط الحق بالباطل وادخال الفلسفة فى الأصول وكتب الاعتقاد والتفسير كما

يأتى وهو القائل كما تقدم « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » «فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى» . وأمرنا بالدعاء كل يوم وليلة سبعة عشر مرة فى كل ركعة من كل صلاة بالهداية الى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم بها من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وأمرنا بالاستعاذة كذلك بقوله « غير المغضوب عليهم » وهم اليهود ، « ولا الضالين » وهم النصارى ، كما فى الحديث النبوى وهو تفسير بالأخص للاهتمام بذلك والافسائر من خرج عن الصراط المستقيم من المتفلسفين والماديين والطبيعيين والمنجمين والمشركين وكل من ألحد فى ذات الله أو صفاته وأسمائه أو فى أفعاله أو فى عبادته داخل فى هذه الاستعاذة كما تقدم فى رسم التوحيد الصحيح ، قال الله تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » ، والدين الاسلامى هو وضع الهى يهدى ذوى العقول الى قبول ما جاء به الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومجموع الأحاديث الواردة الدالة على هذه المسألة باحدى الدلالات الثلاث تبلغ جزءا وسطا أو ضخما كما تقدم فى الآيات فى هذا الموضوع ويأتى بعض ذلك ان شاء الله .



فصل

وترداده يزداد فيه تجملا

يزيدك وجهه حسنا اذا ما زدته نظرا

قال الحافظ المحقق ابن القيم فى كتاب شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل من بعد كلام طويل ما نصه : ونحن نذكر أصولا مهمة نبين بها جواب هذه الأسئلة حتى قال الأصل الاول اثبات عموم علمه سبحانه وتعالى واحاطته تعالى بكل معلوم وأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، بل قد أحاط بكل شىء علما وأحصى

كل شيء عددا (١) والخلاف في هذا الاصل مع فرقتين احداهما أعداء الرسل كلهم الذين ينفون عنه علمه بالجزئيات يعني الفلاسفة وحاصل قولهم أنه لا يعلم موجودا البتة فان كل موجود جزئي معين مشخص أي وجميع العالم مركب وكل مركب لا يكون الا من أجزاء وكل جزء على حدته وانفراده جزئي مستقل ودخوله في التركيب لايخرجه عن ذلك ، ولهذا قال فاذا لم يعلم الجزئيات لم يكن عالما بشيء من العالم العلوي والسفلي ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، ثم ذكر الفرقة الثانية وقد انقرضت في القرن الأول كما في ايقاظ الفكرة للأمير محمد بن اسماعيل رحمه الله وغيره وهم الموسومون بالقدرية الذين ظهروا في عصر الصحابة فانهم يقولون الأمر أنف ، وأن الله تعالى لا يعلم أعمال العباد حتى يعملوها الخ ، ولهم شبه من متشابه القرآن ، «فأماالذين فيقلوبهم زيغ فيتبعونماتشابه منه ابتغاءالفتنةوابتغاء تأويله» الآية . وهؤلاء هم الذين تبرأ منهم ابن عمر رضي الله عنهما لما بلغه قولهم ومذهبهم الخبيث الباطل ولم يبق لهم أثر ، ولم يقل مسلم بعدهم بهذا القول ، « قاتلهم الله انى يؤفكون » ، وأما ترامي الأشعرية والمعتزلة بهذا اللقب فهو من الألقاب المخترعة بينهم للتنابز ، كل فرقة تسمي به الأخرى لما يترتب على ذلك ، أنظر ايقاظ الفكرة وأصله العلم الشامخ وايثار الحق تعرف ذلك ، وأن ذلك مما شمله النهي من قوله تعالى : « ولا تنابزوا بالألقاب » الآية .

---

(١) وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، كما في ص ١٧٨ من نهج البلاغة التي علق عليها الشيخ محمد عبده رحمه الله في غضون خطبة الأشباح في سياق عالمية الله سبحانه وتعالى : عالم السر من ضمائر المضمرين ونجوى المتخافتين وخواطر رجم الظنون وعقد عزيمات اليقين ومسارق ايماض الجفون وماضمنته أكنان القلوب وغيابات الغيوب وما أصغت لاستراقه مصايخ الأسماع ومصايف الذر ومشاتي الهوام ورجع الحنين من المولهات وهمس الأقدام ومنفسح الثمرة من ولائج غلف الاكمام ومنقمع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها ومختبأ البعوض بين سوق الأشجار وألحيتها ومفرز الأوراق من الافنان ومحط الأمشاج من مسارب الأصلاب وناشئة الغيوم ومتلاحمها ودرور قطر السحاب في متراكمها وماتسفي الاعاصير بذيولها وتعفو الأمطار بسيولها وعوم نبات الارض في كثبان الرمال ومستقر ذوات الأجنحة بذرى شناخيب الجبال وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار وما أوعبته الأصداف وحضنت عليه أمواج البحار وماغشيته سدفة ليلها وذر عليه شارق نهار وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير وسبحات النور وأثر كل خطوة وحس كل حركة ورجع كل كلمة وتحريك كل شفة ومستقر كل نسمة ومثقال كل ذرة وهماهم كل نفس هامة وما على الارض من ثمر شجرة أو ساقط ورقة أو قرارة نطفة أو نقاعة دم ومضغة أو ناشئة خلق وسلالة لم تلحقه في ذلك كلفة ولا اعترضته في حفظ ما ابتدعته من خلقه عارضة ولا اعترته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة بل نفذ فيهم علمه وأحصاهم عدده ووسعهم عدله ، وهذا الكلام كالشرح لآية « وعنده مفاتح الغيب » الآية .

الفصل الرابع

انه تعـــالى قادر بالذات على خلق جميع الممكنـــات المعدومات وايجاد جميع الأجســـام وأعراضـــها من الناميـــات والجمـــادات فينـــدرج تحت ذلك الأحيـــاء والأموات أولا وبالذات وأصـــول العـــــالم وفروعه ، أما الأحياء فباخراجهم من ظلمة العدم الى نور الوجود أحياء ، وأما الأموات فهو على جمعهم اذا يشاء قدير ، وأما الجمادات والناميات فهي لا تخرج عن أصول العالم وفروعه وعناصره سواء كان ذلك اختراعا أم كان بواسطة الأسباب لأن فعل الله تعالى اما مخترع واما بواسطة أسباب تتوقف على المشيئة لا لذاتها كما تقدم لأنه تعالى قادر بالذات ، ونسبة الذا تالى الممكنات نسبة واحدة فلا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، أما الممتنعات فهي المستحيلات وليست من متعلقات القدرة ، لأن المقدور هو ما يمكن ايجاده فلا يدخل فيه المســـتحيل الممتنع ايجاده لا لقصور القدرة بل لأنه ليس من متعلقاتها ، وعلى هذا طبقت الملل المختلفة من أهل الكتب والشرائع ، واتفقت الكتب السماوية وأجمعت الرسل ، وعـــلم من ضرورة الدين ومن دين كل نبي الا جرثومـــة الفلاســـفة فأصـــولهم الباطلة أدتهم الى تعطيل جميع الصفات كما ســـلف ، واليك كلام أساطين الاسلام الذين كافحوا رجال الفلسفة بكل لسان وسنان في ميدان الايمان .

قال في المواقف وشرحه ص ٤٩ ج ٣ في البحث الثاني من المقصـــد الثاني من المرصد الثالث من الموقف الخامس في الالهيات وفيه سبعة مراصد ما لفظه .

البحث الثاني : في أن قدرته تعالى تعم سائر الممكنات والدليل عليه أن المقتضي للقـــدرة هو الذات لوجوب استناد صـــفاته الى ذاته ، والمصحح للمقدورية هو الامكان ، لأن الوجوب والامتناع الذاتيين يحيـــلان المقدورية

أى فلا تتناولهما ونسبة الذات الى جميع الممكنات على السوية واذا ثبتت قدرته على بعضها ثبتت على جميعها ، حتى قال : واعلم أن المخـالفين فى هذا الأصل وهو عموم قدرته تعالى فى الممكنات كلها وهو أعظم الأصـول وأساسها فرق . الأولى : الفلاسفة الالهيون قلت والتقييد بالالهيين لاخراج من لم يقل بالألوهية منهم ومنه تعرف تعدد فرق الفلاسفة واضطراب عقائدهم وأقوالهم ، كما تحكيه كتب الفلسفة وما نقل منها الى علم العقائد الاسلامية وغيرها ومنهم المنجمون والماديون وغيرهم ، نعم أما الفلاسفة الالهيون فانهم قالوا انه تعالى واحد حقيقى فلا يصدر عنه أثران والصادر عنه ابتداء هـو العقل الأول والبواقى صادرة عنه بالوسائط كما شرحناه من قبـل يعنى فى المقصد الثانى فى ترتيب الموجودات على رأى الحكماء من المرصد الرابع فى العقل من الموقف الرابع فى الجواهر ص ٥١٠ ج ٢ وقد رأيت الاشارة الى ذلك ليترتب الجواب على ذلك ولتعرف بعض أصولهم الساقطة التى فرعوا عليها التشكيكات والاشكالات ونفى صـفات الذات ونفى الاختيـار والخـلق والابداع فى الملكوت الأعلى والأسفل والحكمة والتدبير وخلق الحوادث اليومية وحشر الاجساد وبعثها وغير ذلك فهذا الاصل جرثومة كل قول لهم كفرى تفرع عليه ولفظه متنا وشرحا . المقصد الثانى فى ترتيب الموجودات على رأى الحكماء قالوا اذا ثبت (١) أن الصادر الأول عقل فله اعتبارات ثلاثة ، وجوده فى نفسه ، ووجوبه بالغير ، وامكانه لذاته فيصدر عنه بكل اعتبار أمر فباعتبار وجوده يصدر عنه عقل وباعتبار وجوبه بالغير يصـدر عنـه نفس وباعتبار امكانه لذاته يصدر عنه جسم (٢) هو الفلك الأول ، وانما قلنا أن

---

(١) هذه الشرطية مبنية على تسليم الدعوى وهى فى محل المنع لان كل من ادعى مالم يعلم بديهية العقل أو الحس لا يقبل منه ذلك الا ببرهان وليس لهم هنا سوى حدس وأوهام مبنية على كفر صريح من غير نظر صحيح فهذا على أصل غير ثابت .

(٢) وقد تحطمت أصول الفلسفة القديمة بالاكتشافات الحديثة كما قيل ان المتأخـرين أو بعضهم ينفون اجرام الأفلاك رأسا ويعتبرون مفهومها دوائر جوية كخطوط الطيران مثلا ثم اذا لم يؤمنوا الا بالمحسوسات فمتى أحسوا بهذه الأفلاك والعقول والنفوس ومادليل هذا الترتيب فى الوقوع على هذا النمط والكافر بالخالق المختار أتعب نفسه وعقله وجسده فى هذا العـالم ونظامه الغريب فخبط وخلط وأخطأ فى الدنيا وله فى الآخرة عذاب الخلد فشقى فى الدارين « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » أعاذنا الله من ذلك ، وكم كنت أبحث وأنكت وأطلب الحجج والبراهين المقنعة فضلا عن القطعية من شيخنا حمزة رحمه الله عند قراءة زيج المثنى فلم ينبس ببنت شفه فى ذلك كله ، وانما كان يقول أن ذلك يرجع الى أمور وهمية وخيالية .

صدورها عنه على هذا الوجه اسنادا للاشرف الى الجهة الأشرف ، والأخس الى الاخس فانه أحرى وأخلق ، وكذلك يصدر من العقل الثانى عقل ثالث ونفس ثانية وفلك ثان وهكذا الى العقل العاشر الذى هو فى مرتبة التاسع من الأفلاك أعنى فلك القمر ويسمى العقل الفعال المؤثر فى هيولى العالم السفلى المفيض للصور والنفوس والأعراض على العناصر البسيطة وعلى المركبات منها بسبب مايحصل لها من الاستعدادات المسببة عن الحركات الفلكية والاتصالات الكوكبية وأوضاعها انتهى .

فالى أهل العقول الصحيحة الذكية المتغذية والمقتبسة من الأنوار الشرعية وأولى النفوس المطمئنة والقلوب السليمة حكم هذه المقالة الشنعاء وحكم قائلها وما يتفرع عليها وحكم من ذهب اليها بعدهم أو قلدهم فيها ، وهذا القول والنقل عنهم مستفيض فى جميع الكتب والمقالات الكلامية والفلسفية فاتفق على روايته عنهم المتكلمون من المسلمين وغيرهم، ونقله عنهم عمن نقله من الفلاسفة ، ثم ابطاله وبيان فساده وحكم قائله « فارجع البصر كرتين » فقد بين الصبح لذى عينين . وهذا الأصل يستلزم خلع ربقة الايمان والتوحيد بجميع شعبه كما تقدم ولكن « وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون » ، قال فى المواقف وشرحه مع الأدب والمجاملة، وتسمية مثل هؤلاء بالحكام الالهيين بعد خراب البصرة ونفى الألوهية الحقة والصفات بحذافيرها وخلع جذور التوحيد من أصلها ولا شك أن المنجمين والباطنية والقرامطة وكثيرا من الفرق الكفرية يرجعون فى الأصل الى هذا وهو أصل الفلسفة ، فقال صاحب المواقف وشرحه : الاعتراض أن يقال هذه الاعتبارات أن كانت وجودية فلابد لها من مصادر متعددة والا بطل قولكم ، الواحد لا يصدر عنه الا الواحد فيبطل حينئذ أصل دليلكم (١) وان كانت اعتبارية امتنع أن تصير جزءا مصدرا للأمور الوجودية ، حتى قال وحديث اسناد الاشرف الى الأشرف خطأ لا يلتفت اليه فى المطالب العلمية واسناد الفلك الثامن مع مافيه من الكواكب المختلفة المقادير المتكثرة

---

(١) لأن كل واحد من هذه العقول صدر عنه ثلاثة أشياء اما الآخر فصدر عنه مالايحصى ولا يحصر فبطل قولهم الواحد لا يصدر عنه الا واحد وقد تقدم جواب المقبلى وغيره عن هذا الهذيان المزخرف .

كثرة لاتحصى الى جهة واحدة في العقل الثانى كما زعموه مشكل جدا وكذلك الصور والأعراض التى فى عالمنا مع كثرتها القائمة عن الحصر الى العقل الفعال مشكل أيضا ، قلت بل كفر صريح قال الشارح وبالجملة لايخفى على الفطن المنصف ضعف ما اعتمد عليه فى هذا المطلب العالى ، قلت بل لا يخفى بطلان ذلك وتفاهته وسقوطه اذ القول الضعيف قد يقرب الى الصحة ولو احتمالا بخلاف قولهم هذا ، ولهذا قال : وفى الملخص أنهم خبطوا ، فتارة اعتبروا فى العقل الأول جهتين ، وجوده وجعلوه علة العقل ، وامكانه وجعلوه علة الفلك ، وتارة اعتبروا فيه كثرة من ثلاثة أوجه كما ذكر فى متن الكتاب ، وتارة أربعة أوجه فزادوا علمه بذلك الغير وجعلوا امكانه علة لهيولى الفلك وعلمه علة لصورته ، فظهر أن العقول عاجزة عن ادراك نظام الموجودات على ماهى عليه فى نفس الأمر انتهى .

***

فصل

فهذا ما أحال عليه صاحب المواقف مع ما أجاب به عليه ثم قال فى الجواب على قولهم انه واحد حقيقى فلا يصدر عنه أثران والصادر عنه ابتداء هو العقل الأول الخ والجواب منع قولهم الواحد لايصدر عنه الا الواحد ، وما تمسكوا به فى اثباته فقد زيفناه أى كما نقلناه عنه آنفا وها هنا يتلى ، على من اتخذ الهه هواه وكانت هذه سبيله وحاله ومغزاه المتصرف بحدسه وتخمينه وأوهامه فى ذات ربه وصفاته ومخلوقاته والعالم وكيفياته والخلق وكمياته ، «ويخلق مالا تعلمون» (١) «ماأشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا» ، وهم ينفون عن الله سبحانه وتعالى أى خلق غير ما ادعوا أنهم أحاطوا به علما ، فلهذا أحالوا أن يخلق الله عالما مثل هذا العالم (٢) وانكروا النشأة الآخرة والجنة والنار ، ويتلى هنا

---

(١) « قل هاتوا برهانكم » ، « نبئونى بعلم ان كنتم صادقين » ، « ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » ، ان يتبعون الا الظن وماتهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .

(٢) بل انكروا أن يكون هذا العالم من خلق رب العالمين فضلا عن خلق مثله .

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون أم عنـــدهم خزائن ربك أم هم المسيطرون أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين » ، الى قوله ، «أم عندهم الغيب فهم يكتبون أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون أم لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون » ، وقال تعالى : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ومامسنا من لغوب» أى تعب واعياء ، «أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد» ، «أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى انه على كل شيء قدير » ، « أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

***

الفصل الخامس

فى طرف من كلام علمــاء الدين الذين يهــدون بالحق وبه يعدلون كافحوا بذلك فلاسفة الاسلام المتأخرين الذين كان ضررهم على الدين أكثر من حيث أنهم معتقدون عند العامة مجللون محترمون لما تحلوا به من المعارف كالقبور المجصصة ظــاهرها مليح وباطنها قبيح أو كالرياحين ريحهــا طيب وطعمها مر فيغترون بأقوالهم ويتمسكون بأذيالهم مسلمة لاشتهارهم وقــد حرفوا الكتاب والسنة واللغــة جبرا لخاطر المتفلسفين وترميما لمــا هدمتها معاول الاسلام من أقوال الفلاسفة المتقدمين التى ترجع الى الهراء والسفه ، الصادق عليهم قول الله عز وجل : « لم تلبسون الحق بالباطل » وقد مر بعض ذلك وانى لا أبالى من قائل سيتقول ويقول أو يشــكو الملل للطول ولكن سآخذ بقول الله «وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك» أى من أجل ذلك وبحديث « الدين النصيحة » كما تقدم وحديث « :الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى » الحديث كما مر كيف لا وقد كرر القرآن وأكد بزيادة التقرير حجج الالهية والنبوة والوعد والوعيد لما طار شرر الفلسفيات فى الالهيــات والطبيعيات فى كل جيل وعصر حتى حرف فلاســفة الاسلام القرآن الــكريم بدعوى التوفيق بين الفلسفــة والشريعة فقام علماء الدين المحامون على حوزة الاســلام فى كل قطر كل منهم بنصيب فى كبح جماح الفلسفــة وكشف عوار شبهها تأدية لحق الدين والتوحيــد ونصرة للرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام وانتصارا للشريعة المطهرة وحفظا لقواعد الملة وقوانين الكتاب المبين وسنة ســيد المرسلين وخاتم النبيين تمسكا بقول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . « ولينصرن الله من ينصره » ، ولعل ذلك فى عصرنا أكثر لضعف الايمان الذى بدأ غريبــا وســيعود غريبا كما فى الحديث النبــوى ، وفشو الزيغ والالحــاد أشد

مما كان وأكبر . فماذا على اذا كررت وأكدت كما تكررت حجج القرآن وتأكدت لابلاغ وتقريب كلام العلمـاء للقاصرين ومن لم يقف عليه من المغرورين أما أهل العلم واليقين فعندهم أضعاف هذا وذاك وبهـذا تثلج صدورهم وتخبت لله قلوبهم وتطمئن بذكره نفوسهم وصدورهم « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، وقد كشف الحافظ المحقق ابن تيمية قناع الشبه المزيفة فى المقام التى اتخذها ذريعة فلاسفة الاسلام الى توطيد دعائم الفلسفة الالهية التى عرفت أصولها وتمهيد سبلها المنهارة على شفا جرف فى الهاوية ولـكنه تبسط وتوسع لاقتضاء الحال ومناسبة المقام وسألتقط منـه لقطا وأقتطف قطوفا وأتناول نتفا لتعرف أن داء الفلسفة قد سرى كداء الكلب الذى لا يرجى برء صاحبه ولكن معذرة الى ربكم ولعلهم يرجعون وقد قصـدت النصيحة التى قصدها فأورد ذلك فى معرض جواب على سؤال كما فى ص ٥ ج ٥ من الفتاوى الكبرى وهذا لفظ السؤال الذى كان سببا لتأليفه كتاب بغيـة المرتاد فى الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الالحاد .

سئل شيخ الاسـلام علم العلماء الأعلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد السلام بن تيمية الحرانى رحمه الله : ماتقول السادة العلماء أئمة الدين فى الحديث المروى الذى لفظه « أول ماخلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال وعزتى ما خلقت خلقا أكرم على منك فبك آخذ وبك أعطى وبك الثواب والعقاب » الحديث .

والحـديث الثانى الذى لفظه « كنت كنزا لا أعرف فخلقت الخـلق ليعرفونى (١) فبى عرفونى » .

والحديث الثالث الذى لفظه « كان الله ولا شىء معه وهو الآن على ماعليه كان »، هل هذه الأحاديث صحيحة أم سقيمة أم بعضها صحيح وبعضها سقيم وما الصحيح منها ؟ حتى قال السائل والمقصود بيان ما بنى على هـذه الأحاديث من مقالات القـائلين بوحدة الوجود وما يتصل بذلك من أقاويل

(١) يأتى كـلام المقبلى على هذا الحديث فى الفصل السابع فى الحكمة قال وان كان ضعيفا أو موضوعا لكن ليس معناه ببعيد .

الفلاسفة الاسلاميين والقرامطة الباطنية ونحو ذلك وبيان الحق من الباطل انتهى .

وقد أطال الجواب فى المؤلف المذكور فانتهى الى مائة وثلاثة وأربعين صحيفة مع أنه قد أحال كثيرا من التفاصيل على مؤلفات له أخرى ، وحق هذا الكتاب أن يفرد بالطبع وينشر ويدرس ويدرس حتما فى عموم المدارس الاسلامية ويذكر به فى القرى والبوادى العامية أو يلخص وينشر ويدرس أيضا لاغاثة الاسلام وانقاذ المسلمين لاسيما فى عصر قل فيه أو ندر تدريس كتب التوحيد والعقائد الدينية وكثرت فيه الشبه فعم شرها وفشا أثرها وضرها وقل العلم الدينى والعلماء الربانيون وضعف الايمان واليقين كما تقدم وقد نقل فى أوله كلام الامام الغزالى فى معيار العلوم الذى فيه ذكر مذاهب الفلسفة وفلاسفة الاسلام وناقش عليه فى بعض مانقل مناقشة تتضمن الرد على الفلاسفة وعليه حيث تساهل فى النقل عنهم .

أما الحديث الأول ، فنقل عن جماعة من أئمة الحديث أنه ساقط من حيث الاسناد بل موضوع ، قال وقد روى الحديث ابن الجوزى فى موضوعاته باللفظ المذكور وبلفظ لما خلق الله من طريق لا تثبت ثم رواه من طريق أخرى بلفظ لما خلق الله العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال أدبر فأدبر فقال وعزتى ما خلقت خلقا هو أعجب الى منك فبك آخذ وبك أعطى وبك الثواب وعليك العقاب ، قال ابن الجوزى هذا حديث لايصح عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وقد روى من طرق ليس فيها شىء يثبت ، قال أحمد بن حنبل هذا حديث موضوع . وقال العقيلى لايثبت فى هذا الباب شىء . قال الحافظ ابن تيمية بعد أن أورد كلام سائر الأئمة فى الحديث . فهذا اتفاق أهل المعرفة بالحديث على بطلان هذا الحديث مع أن أكثر ألفاظه لما خلق الله العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال وعزتى ماخلقت خلقا هو أعجب الى منك فبك آخذ وبك أعطى وبك الثواب وعليك العقاب قال وهذا بمنزلة قوله أول ماخلق الله العقل بالنص لكن هذا اللفظ مكن هؤلاء الملحدين أن يغيروا اعرابه بخلاف ذلك اللفظ فانه لا حيلة لهم فى اعرابه ثم انه من العجب أن هذا الحديث قد جعله عمدتهم فى أصول الدين والمعرفة والتحقيق

من يروم الجمع بين الشريعة الالهية والفلسفة اليونانيـة وكل هؤلاء غيروه
وان كان موضوعا فرووه أول ماخلق الله العقل وجعلوا هذا حجة لهم موافقا
لما يقوله الفلاسفة المشاءون أتباع أرسطو لقولهم أول الصادرات عن واجب
الوجود هو العقل الأول وقد شاع هذا فى كلام كثير من المتأخرين بعد أن
رأوه فى كتب ورسائل اخوان الصفا فان هذه الرسـائل هى عمدتهم ويأتى
الكلام عليها ووجدوا نحو هـذا فى مواضع من كلام أبى حامد قلت لعله
أورده فى بعض مؤلفاته التى أشرت اليها أو فى الاحياء والله أعلم وفى الاحياء
من الاحاديث الواهية والموضوعة ثلثمائة وثلاثين حديثا كما أفردها بالتأليف
السيد العلامة عبد اللهبن محمدبن اسماعيلالأمير رحمه الله وقدأشارالحافظ
العراقى فى تخريج أحاديث الاحياء الى جميع ذلك ولعله لخصه من التخريج
وربما كان بعضها فى حيز الضعف المنجبر بالشواهد وتعـدد الطرق على أن
شارح الأحياء قد أشار الى الذب عنها أو عن بعضها والاعتـذار عن الامام
الغزالى فى ايراده الأحاديث الواهية والموضوعة فى الفصل الحادى والعشرين
من المقدمة اعتذارا اجماليا من خمسـة أوجه وان لم تجر كلهـا على قوانين
الحديث الاصطلاحية فابحثه ان شئت ص٤٩ ج١ .

قال الحافظ ابن تيمية وقد قيل ان الغزالى قد رجع عن ذلك قلت وقد
ذكر رجوعه عما فى بعض مؤلفاته السيد أحمد بن محمد بن صلاح الشرفى
فى شرح الأساس الكبير قال وله كتاب يشهد له بذلك يسمى سر العـالمين
ولعله فيما يرجع الى باب الكسب أو يوهم الجبر والله أعلم . قال ابن تيمية
ثم وقع الحديث المذكور بعده فى كلام من سلك هذا السبيل من الجهميـة
والمتفلسفة القـائلين بوحدة الوجود وغيرهم أى فصـار شبهة لهم يحجون
ويغالطون به عوام المسلمين .

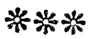
ثم قال ابن تيمية وهذا باطل من وجوه كثيرة .

أحدهـا : أن هـذا الحديث بهـذا اللفظ والاعراب لم يروه أحـد
من رواة الحـديث لا باسـناد صحيح ولا سقيم بل الحـديث المـروى
وان كان باسـناد سقيم لفظـه أول مـا خلق الله العقـل بنصب أول

والعقـــل وذلك لا حجة فيـــه على أن العقـــل أول مخلوق خلق اذ لفظـــه
أول ما خلق الله العقـــل قال له أقبـــل فأقبل فهو نصـــب على الظرفيـــة اذ
« ما » هى المصدرية بتأويل المصدر الذى يجعل « أول » ظرفا كما يقـــال
أول ما لقيت فلانا سلمت عليه أى فى أول أوقات لقيته سلمت عليه واذا كان
معناه أنه قال فى أول أوقات خلقـــه هـــذا القـــول لم يـــدل على أنه أول
مخلـــوق بل هو دليـــل على أنه خلق قبلـــه غيره اذ قد قـــال فى أول
أوقات خلقـــه ما خلقت خلقـــا أكرم على منك وان كان قـــد تحـــذلق من
تحذلق فحرف المعنى من الجهميـــة القائلين بوحـــدة الوجـــود وغيرهم
ففسروا الاقبال والادبار بما لايدل عليه اللفظ باحدى الدلالات ثم اختلفوا
حتى أن صاحب « البد » اسم كتاب يفسر الاقبال والادبار بما يرجع محصوله
الى أصله الفاسد من أن وجوده وجـــود الحق ومعلوم أن هـــذا ليس هو
قول هؤلاء الفلاسفة ولكن أرسطو حكى عن بعض قدماء الفلاسفة أنه كان
يقول الوجود واحد ورد عليه غيره من الفلاسفة : فقول هؤلاء يواطىء هذا
القول الذى لم يرضه هؤلاء الفلاسفة وقد كان صاحب البد يقول عن صاحب
الفصوص والفتوحات المكية أن كليهما فلسفة محمومة أى عفنـــة فيكون
كلامه هذا فلســـفة منتنة وسواء كان قولهم أو لم يكن فمعلوم أن اللفظ
المـــذكور لايدل على ما فسره به بوجه من الوجوه ولا دلالة من الدلالات
اللفظيـــة ولكن هؤلاء سلكوا مسلك القرامطة البـــاطنية وهم من المتفلسفة
المنتسبين الى الاسلام وكان ابن سيناء يقول كان أبى من أهل دعوتهم ولذلك
قرأت كتب الفلاسفة ، ومعلوم أن مقالات هؤلاء من أبعد المقالات عن الشرع
والعقل فانهم يسفسطون فى العقليـــات ويقرمطون فى السمعيات فيحرفون
الكلم عن مواضعـــه أعظم من التحريف الذى عيب به اليهود والنصـــارى
الا من تقرمط من الأميين من متفلسفتهم فانه شبيه بهم وقد علم بالاضطرار
أن ما يفسرون به كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم
بل وكلام غيرهما ليس داخلا فى مرادهم فضـــلا عن أن يكون هو المراد بل
غالب تفاسيرهم منافية لما أراد الله تعالى اما من ذلك اللفظ واما من غيره وان
كان طوائف من المشهورين بالفقه والتصوف يطلقون عباراتهم هذه ويخلطونها

بالتفاسير الفلسفية القرمطية فقد صرحوا بأن ذلك مأخوذ عن هؤلاء كما ذكر أبو حامد الغزالى فى كتاب «معيارالعلوم»حيث قال فقد أوردنا حدود ألفاظ أطلقهـا الفلاسـفة على معان تخصهم لتعـرف اصـطلاحهم فأطلقـوها فى الالهيـات والطبيعيات وشيئا قليلا من الرياضيات حتى قال والمستعمل فى الالهيات أربع عشرة لفظـة وهى بلسانهم المبـدأ الأول وهو البارى جل وعلا ، والعقل ، والنفس ، والعقل الكلى ، وعقل الكل ، والنفس الكلى ، ونفس الكل ، والملل ، أى لأنه فى عرفهم غيره فى عرف الشرع كما يأتىقال: والعلة ، والمعلول ، والابداع ، والخلق ، والاحداث ، والقديم ، ثم فسرها حتى قال وأما عقل الكل فيطلق على معنيين أحدهما جملة العالم ، فعقل الكل على هذا المعنى بمعنى شرح اسمه ان جملة الذوات المجردة عن المادة من جميع الجهات التى لاتتحرك لابالذات ولا بالعرض ولاتتحرك الا بالشوقوآخر رتبة هذه الجملة هو العقل الفعال المخرج للأنفس الانسانية فى العلوم العقلية من القوة الى العقل ، حتى قال وأما الكلىبالمعنى الثانى فهو الجرم الأقصى أعنى الفلك التـاسع الذى يدور فى اليوم والليلة فيتحرك سائر الأفلاك بحركتـه فيقال لجرمه جرم الكل ، ولحركته حركة الكل وهو أعظم المخلوقات ، وهو المراد بالعرش عندهم ويزعمون أن المراد بقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ــ الحديث ــ قلت هنا قول فلاسفة الاسلام كما مر لأن أصل الفلسفة متقدم على الحـديث بقرون طويلة وتأخر الفلسفة السخيفة لو كان للحديث أصل الاسلامية بعد النبوة كما عرفت ثم سـاق تفسير تلك الألفـاظ ومنها قوله ويعنون بالملائكة السماوية نفوس الأفلاك فانها حية عندهم وبالملائكة المقربين العقول ، ثم ناقشه المحقق الحافظ ابن تيمية حتى قال : وليس المقصود هنا الآن الا أن أبا حامد وأمثاله يقرون بأن هذه المعانى الفلسفية مسميات بهذه الأسماء النبوية ، هو من كلام هؤلاء المتفلسفة فاذا وجد مثل ذلك فى كلام أحد من هؤلاء الفـلاسفة الاسلاميين علم أنه احتذى حذوهم لئلا يغتر بذلك من قد ينـازع فى ذلك أو يرتاب لحسن ظنه لمن يتكلم بالعبارات الاسلامية النبوية انه لا يريد بها الا ما يعنيه هؤلاء المتفلسفة وما أحسن ما قاله شيخ الاسلام الهروى فى من هو أحسن

حالا من هؤلاء من أهل الكلام قال أخذوا مخ الفلسفة فلبسوه لحاء الشريعة حتى قال وأما عقل الكل فيطلق على معنيين أحدهما جملة العالم : فعقل الكل وبسبب هؤلاء ضل طوائف ممن لم ينكشف لهم حقيقة مقاصد الناس فلا يفهمون ما يقصده الأنبياء والرسل ولا مايقصده هؤلاء حتى يقابلوا هذه المعاني والمعاني الشرعية واللغوية حتى يعلموا هل هي متفقة أم متشابهة أم مختلفة بل هي متضادة ، بل قد يحرفون ما جاءت به الرسل حتى لا يفهم منه الا المعاني التي قصدوها المنافية لما هم عليه ، وكذلك يحرفون كلام أئمتهم اذا ظهر المسلمون عليه فيصرفونه الى ما يقبله المسلمون . وكذلك ظهر الكاشفون لأسرار القرامطة الهاتكون لأستارهم كالقاضي أبي بكر بن الطيب والقاضي أبي يعلى وطوائف كثيرة ماوجدنا مصداقه في كتب القرامطة من أنهم وضعوا لأنفسهم اصطلاحات روجوها على المسلمين ومقصودهم بها مقصود الفلاسفة الصابئين والمجوس والثنوية كقولهم السابق والتالي يعنون بذلك العقل والنفس ويقولون هما اللوح المحفوظ والقلم وأصل دينهم مأخوذ من دين المجوس والصابئين وكذلك السهروردي الحلبي المنقول كلامه في علم الباطن يأخذه من عادة الفلاسفة الصابئة والمجوس وهذا الثاني يتميز عن غيره من الفلاسفة المشائية ولهذا يعظم الأنوار وهؤلاء الذين سلكوا مسلك فارس والروم هم الداخلون في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحديث الصحيح « لتأخذن مآخذ الأمم قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع قالوا يا رسول الله فارس والروم قال ومن الناس الا هؤلاء » ، وفي رواية اليهود والنصارى قال فمن أي فمن غيرهم قال وقد بسطنا ما يتعلق بهذا في غير هذا الموضع . انتهى .



فصل

ولهذا الحديث ألفاظ وطرق وقد عد أصل الحديث المحقق المقبلي في الأحاديث المتواترة معنى ومن ذلك قوله في الأبحاث المسددة أنه تواتر معنى حديث « ان هذه الأمة تحذو حذو بني اسرائيل حتى لو أتى أحدهم أمه علانية

لفعلت ذلك هذه الأمة وان أولئك افترقوا الى اثنين وسبعين فرقة وتفرق هذه الأمة الى ثلاث وسبعين فرقة » وقال فى موضع آخر فى سياق الكلام على قوله تعالى : « ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » وهذه الأمة تحذوا حذوهم كما تواتر ذلك عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم تواترا معنويا وقال جبـريل للنبى عليه الصلاة والسـلام « انا لله وانا اليه راجعون » : فمم ذلك يا جبـريل قال : ان أمتك أو قال هذه الأمة مفتونة بعد قليل فقـال عليه الصـلاة والسـلام فتنة ضلال أم فتنة كفـر ؟ قال جبريل عليـه السلام : كل ذلك كائن قال : فهـذه الجملة معلومة مسلمة عند الناظرين لكنهم غرهم فى دينهم ما كانوا يفترون « كل حزب بما لديهم فرحون » . وعد فى الأحاديث المتواترة معنى فى موضع آخر من الأبحاث : حديث « لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم » ، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه (١) وقال فى العلم الشامخ ص ٤١٤ : حديث افتراق الأمة الى ثلاث وسبعين فرقة ، رواياته كثيرة يشد بعضها بعضا بحيث لا تبقى ريبة فى حاصل معناها ، وفى رواية أبى داود قام فينا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : « ألا من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وان هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة اثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة » ، وهى الجماعة ، وفى رواية « سيخرج من أمتى أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى فيه عرق ولا مفصل الا دخله » وفى رواية للترمذى « ليأتين على أمتى ما أتى على بنى اسرائيل حذو النعل بالنعل حتى ان كان منهم من أتى أمه علانية ليكونن فى أمتى من يصنع ذلك وان بنى اسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلها فى النار الا ملة واحدة قالوا من هى يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابى » قال المحقق المقبلى فى موضع آخر وما أحسـن زيادة لفظ اليوم فى آخر الحديث كما يأتى ثم تكلم على الحديث وأطال وقد صنف فيه المحققون عدة أبحاث ورسائل خاصة فى تزييف زيادة كلها فى النار

(١) رواه حاكم فى المستدرك عن ابن عباس .

الا ملة واحدة كالامام محمد بن اسماعيل الأمير والمحقق الشوكانى والامام محمد بن ابراهيم الوزير فى العواصم . والقصد هنا تأييد الحديث الذى أورده الحافظ ابن تيمية وقد رواه الحاكم فى آخر كتاب العلم من المستدرك من طريقين ص ١٢٩ ج١ وفيه « وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا ملة واحدة فقيل له ما الواحدة قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابى » ، وفى الأخرى : ثم انكم أنتم تكونون على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة الا فرقة واحدة الاسلام وجماعتهم » انتهى . على أن بعض الحفاظ من المتأخرين صحح رواية اثنتين وسبعين فى الجنة وواحدة فى النار كما أوضحت ذلك فى الحلقة الثامنة والعشرين من حلقات الاذاعة اليمنية فى ارشاد الأمة اليمنية وذكر مجدها وجدودها ووفودها أيام النبوة وتلبيتهم للخلفاء الراشدين والجهاد معهم وغير ذلك كما تحكيه دفاتر التاريخ اليمنى، نعم فأوردت هذه الرواية المصححة بعد ايراد الحديث الأول بثلاث روايات ؛ مع نقل كلام الشيخ عبد المتعال وفيه فقال : وقد قال الشيخ المقدسى فى كتاب أحسن التقاسيم بعد أن ذكر حديث اثنتين وسبعين فى الجنة وواحدة فى النار وحديث اثنتين وسبعين فى النار وواحدة فى الجنة : هذا الحديث الأخير أشهر على الألسن والأول أصح اسنادا انتهى . وقال صاحب العواصم اياك أن تغتر بزيادة كلها فى النار الا واحدة فانها زيادة فاسدة ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة انتهى . وبعد هذا فالجمع ممكن بالترجيح على أن الصحيح اسنادا على كلام المقدسى مع انتفاء العلة والشذوذ لا يعارض المتواتر معنى ، لأن الصحيح انما يفيد الظن والمتواتر يفيد العلم وهذا وجه وجيه راجح من وجوه الترجيح المعتبرة كما تقرر فى الأصول ولكن المتواتر حصول الافتراق والاختلاف حذو أهل الكتاب لا الزيادة المذكورة .

***

فصل

وها هنا وجه آخر فى الجمع وهو أن الاختلاف والمخالفة فى المسائل العلمية القطعية واقع والخلاف فى المسائل الظنية العملية كذلك فتحمل رواية

كلها فى النار على الاختلاف فى الأول ، ورواية كلها فى الجنة على الخلاف والاختلاف فى الثانية ، ويشهد لهذا جواز الاختلاف ووقوعه من الصحابة والتابعين والأئمة المشهورين وسائر العلماء المجتهدين فى المسائل الفرعية العملية كما حملوا على ذلك حديث اختلاف أمتى رحمة ، وان قال كثير من علماء الحديث أنه لا أصل له ـ أنظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للحافظ المناوى ، وروى نحوه عن عمربن عبد العزيزرضى الله عنه ، وأسنده صاحب الفردوس عن ابن عباس مرفوعا بلفظ اختلاف أصحابى لكم رحمة، ويؤيد معناه عمل العلماء والجرى عليه والعمل بمقتضاه ، كما قرروا أن كل مجتهد مصيب فى المسائل الفرعية الظنية العملية لا القطعية الاعتقادية كما عرفت هذا ، وقد يحمل قوله أمتى : على أمة الدعوة لا أمة الاجابة فيكون وجها نيرا بيد أن مصداق الحديث واقع فى أمة الاجابة وظاهر سياق الأحاديث فى أمة الاجابة فالوجه ما تقدم تأمل وقد طال الفصل بين كلام ابن تيمية لمناسبة المقام والحديث ذو شجون .

***

فصل

ثم قال الحافظ ابن تيمية : ثم انهم مع اقرارهم بأن جعل هذه المعانى الصابئية الفلسفية هى مسميات هذه الأسماء النبوية هو من كلام هؤلاء المتفلسفة يقطعون بذلك فى مواضع أخر ، بل فيما يجعلونه من أشرف العلوم والمعارف حتى أنهم يجعلونه من العلوم التى يضن بها أى يبخل بها على غير أهلها ، ومن العلم المكنون الذى ينكره أهل الغرة بالله ولا يعرفه الا أهل العلم بالله وهذا موجود فى مواضع كثيرة كما فى كتاب « التفرقة بين الايمان والزندقة » لما ذكر أن الكفر هو تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام فى شىء مما جاء به ، والايمان هو أن ينظر فى الخبر ويعترف به وحقيقة الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بوجوده الا أن للوجود خمس مراتب ذاتى وحسى وخيالى وعقلى وشبهى الى أن قال فى المثال العقلى كما قال عليه الصلاة والسلام : أول ما خلق الله العقل فقال بك

أعطى وبك أمنع قال ولا يمكن أن يكون المراد بذلك العقل عرضا كما يعتقده المتكلمون اذ لا يمكن أن يكون العرض أول مخلوق بل ويكون عبارة عن ذات ملك من الملائكة سمى عقلا من حيث أنه يعقل الأشياء بجوهره وذاته من غير حاجة الى تعلم وربما سمى قلما باعتبار أنه ينقش به حقائق العلوم فى ألواح قلوب الأنبياء والأولياء وسائر الملائكة وحيا والهاما فانه قد روى فى حديث آخر أول ما خلق الله القلم فان لم يرجع ذلك الى العقـل تناقض الحديثان ويجوز أن يكون لشىء واحد أسماء كثيرة باعتبارات مختلفة . ثم قال المحقق ابن تيمية فى الجواب عن هذا : وهذا القائل يكون قد أثبت قلما عقليا لا حسيا وخياليا لا كونيا وجعل القلم والعقل عبارة عن شىء واحد وجعل ذلك هو المراد عندهم فى هذه الأسماء الواردة فى الكتاب والسنة وكذلك قال فى كتاب « مشكاة الأنوار » لما تكلم عن المشكاة والمصـباح والزجاجة والشجرة والزيت والنـار وجعل المشـكاة هى الروح الحسى ، والزجاجة الروح الخيالى ، والمصباح العقل ، والشجرة الروح الفكرى ، والزيت الروح القدسى النبوى ، الذى يختص به الأنبياء وبعض الأولياء قال وهذا الكتاب كالعنصر لمذهب الاتحادية القائلين بوحدة الوجود وان كان صاحب الكتاب لم يقل بذلك بل يكفر من يقول بذلك يعنى الغزالى ولكن ذلك لما فيه من الاجمال تارة ومن التفلسف وابراز مقاصـد الفلاسفة فى الألفاظ الشرعية وتأويلها عليها تارة ومن المخالفة لما دل عليه الكتاب والسنة والاجماع تارة ومن المخالفة لما علم بالعقل الصريح تارة ولما فيه من الأمور التى يقولون أنها تستلزم قولهم ولهذا عظم انكار أئمة الاسلام لهذا الكتاب ونحوه حتى جرت فى ذلك فصول يطول وصـفها وقد جعل الكتاب ثلاثة فصول : الفصل الأول فى بيان أن النور والحق هو الله تعالى وأن اسم النور لغيره مجاز محض لا حقيقة له ، وعاد كلامه الى أن النور يعنى الوجود ، وقد سـلك ابن سـيناء قبله نحوا من ذلك فيمـا جمـع فيـه بين الشريعـة والفلسفة ، وكذلك سلك ذلك المسلك الاسماعيلية الباطنية فى كتابهم الملقب « برسائل اخوان الصفاء » ، وكذلك فعل ابن رشد بعده وكذلك الاتحادية والكلام على هذا واسع نذكره فى غير هذا الموضع ، اذ الغرض هنا بيـان

ما يعلم به من كلامهم من متابعتهم للمتفلسفة الصابئين ، والتعبير عن تلك المعانى بألفاظ الأنبيــاء والمرسلين مع العلم من كل من أوتى العلم والايمان بل من كل مؤمن ، بأن ما فى ذلك من مخالفة كتاب الله تعالى ورسله ودينه أعظم مما فى كتب اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل ، حتى قال : لكن من لم تكن له عناية تامة باتباع المرسلين واقتفاء آثارهم والاهتداء بأعلامهم ومنارهم واقتباس النور من مشكاة أنوارهم ، فانه يجعل الحديث الصحيح ضعيفا ، والضعيف بل الموضوع صحيحا ، والمعنى الحق باطلا ، والباطل حقا صريحا ، يوجد ذلك فى كلام سائر الخارجين عن منهاج السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، وفارقوا به سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل الحق حتى قال : ولما تكلم صاحب «مشكاةالأنوار » على طريق هؤلاء فى الباطن بألفاظ الكتاب والسنة فى الظاهر — وان كان قد روى عنه أنه رجع عن ذلك كله ومن الناس من يطعن فى اضافة هذه الكتب اليه . والمقصود التنبيه على ما فى هذه الكتب المخالفة للكتاب والسنة من الضلال لئلا يغتر بها وينسبها الى العظماء الأخيار أقوام من الجهال « فقال القطب الأول فى سر التمثيل ومنهاجه . اعلم أن العالم عالمان روحانى وجسمانى وان شئت قلت علوى وسفلى وان شئت قلت حسى وعقلى وساق مثلا لذلك حتى قال فأقول ان كان فى عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية يعبر عنها بالملائكة ، منها تفيض الأنوار على الأرواح البشرية ، ولاجلها قد تسمى أربابا ويكون الله رب الأرباب الخ قلت فانظر الى هذا الكلام هل تقبله الحنيفية الســمحة ويلائم التوحيد أو يتمشى على قواعد الاسلام أو تساعد عليه آيات القرآن أو تقبله السنة النبوية كلا وألف كلا ، سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم ، وقد أطال الكلام فى ذلك المحقق ابن تيمية ثم تعقبه قائلا: قلت ليس المقصود هنا الكلام المفصل على ما فى هذا الكلام وأمثاله فان علماء الاسلام قد بينوا من ذلك ما فيه الكفاية وقد تكلمنا فى غير هذا الموضع على ماشاء الله من ذلك ، والكلام الجملى أن مثل هذا الكلام يشتمل على أمور باطلة من جهة النقل . ثم بين ذلك وقال ، ويشتمل على أمور باطلة وهى فى نفسها مخالفة للشرع والعقل مثل

ما فيه : أن ملكا من الملائكة وهو العقل الفعال المبدع لجميع ما تحته من المخلوقات ، وأن الملائكة التي يسمونها العقول والنفوس : أبدع بعضها بعضا ، وأن عالم الشهادة هو المحسوسات وعالم الغيب المعقولات وأن تفسير القرآن هو مثل تعبير الرؤيا ، وأمثال ذلك مما ليس هو من أقوال المسلمين ولا اليهود ولا النصارى بل من أقوال الملاحدة من الصابئين والفلاسفة والقرامطة ، وفيها ماهو من جنس الاشارة والاعتبار الذي سلكه الفقهاء والصوفية ، حتى قال في الوجه الثاني من الجواب في الفرق الذي أبدوه بين عالم الخلق وهو الأجسام ، وبين عالم الملك وعالم الملكوت وهو النفوس ، لأنها باطن الأجسام ، وبين عالم الجبروت المفسر بالعقول بناء على أصول الملحدة والفلاسفة الباطلة فقال : انهم يعبرون بهذه العبارات مع اضطرارهم واختلافهم فيها عن المعاني التي تلقوها عن الفلاسفة وضعا وضعوه واصطلاحا اصطلحوه ثم يريدون أن ينزلوا كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على ما وضعوه من الاصطلاح ، وهذا لو كانت تلك المعاني التي يذكرها الفلاسفة صحيحة ما جاز ، بل كان من الكذب على الله وعلى رسوله أن يقال انه أرادها ، فكيف وأكثر تلك المعاني باطلة مضطربة ، وما يذكرونه من الأقيسة العقلية على ثبوتها أقيسة ضعيفة بل باطلة ، وقد اعترفت أساطين الفلاسفة بأنها لاتفضي الى اليقين ، وكل منهم يعبر عن المعاني الفلسفية بعبارات اسلامية ، ومنهم من لايبين لأكثر الناس أن مراده ذلك، ومنهم من يزعم أن تلك المعاني حصلت له بطريق الكشف والمشاهدة كما يزعمه صاحب الفتوحات المكية وأشباهه. وقد يقول : أنوار في أنوار ، وأنوار في ظلمة ، والأول هي العقول ، والثاني هي النفوس الفلكية ، والثالث النفوس الطبيعية القائمة بأفراد ونوع الانسان، ومعلوم أن الملائكة ـ الذين وصفهم الله ورسوله عليه الصلاة والسلام في الكتاب والسنة ـ لا ينطبقون على هذه العقول العشرة والنفوس التسع التي يذكرونها ، ولهذا يؤول بهم الأمر الى أن يجعلوا الملائكة والشياطين أعراضا تقوم بالنفس ، ليست أعيانا قائمة بأنفسها حية ناطقة ، ومعلوم بالاضطرار أن هذا خلاف ما أخبرت به الرسل ، واتفق عليه المسلمون ، حتى قال : وهذا كما يجعلون كلام الله ما يفيض على نفس النبي من غير أن يثبتوا لله كلاما

خارجا عما فى نفس النبى وعند التحقيق فلا فرق عندهم بين الفيض على نفس النبى وسائر النفوس الا من جهة كونها أصفى وأكمل وحينئذ فيكون القرآن كلام النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهذه حقيقة قول الوحيد الشقى الذى قال فى القرآن . « ان هذا الا قول البشر » ، ولهذايقولون لم يسجد لآدم الا الملائكة الأرضية ويعنون بالسجود انقياد هذه القوى البشرية كما فى جواهر القرآن وقد أطال المحقق فى نقل هذه الترهات وتلخيص هذه الخزعبلات التى دنسوا بها الشريعة المطهرة ثم أجاب عنهم بما يطول حتى قال ثم قوله بعد ذلك ومنها الملائكة الأرضية الموكلة بنوع الانسان أى أفراده وهى التى سجدت لآدم وزعم أن ملائكة السموات والكروبيين لم يسجدوا لآدم وهو أبعد قول عن أقوال المسلمين واليهود والنصارى فان القرآن قد أخبر أنه سجد الملائكة كلهم أجمعون فأتى بصفة العموم ثم أكدها بتأكيد بعد تأكيد وليت شعرى اذا أراد المتكلم الاخبار عن سجود جميع الملائكة هل يمكنه أبلغ من هذه العبارة لكن من يفسر الملائكة بقوى النفوس لايستبعد أن يقول مثل هذا والملائكة السماوية (عندهم) هى النفوس الفلكية والكروبيون على اصطلاحهم ، هى العقول العشرة ، ومعلوم أن هذا كله ليس من أقوال أهل الملل اليهود والنصارى فضلا عن المسلمين ، حتى قال بل كان من قولهم أن الله لايجيب داعيا ، ولا يقدر على تغيير ذرة فى العالم ، وانما دعاء العباد وتصرف نفوسهم فى هيولى العالم ، وان كان العالم لازما لذاته لايمكنه دفعه عن هذا اللزوم بل قال أئمتهم انه لايشعر بأعيان خلقه ، واذا كان قولهم كذلك لم يستنكر أن يقولوا فى ملائكته ماقالوا ، ثم قال بعد الزامهم على أن من يرسل أكمل من الرسل بناء على حالة الفناء التى يعبر بها الصوفية عن استغراق القلب فى الحق ، حتى لا يشعر بغيره فقال : وهذا خلاف دين المسلمين واليهود والنصارى ، لكنه يوافق قول دين غالية الصابئة من المتفلسفة الذين يفضلون الفيلسوف على النبى والرسول ، وحال الجهمية الاتحادية الذين يفضلون الولى أو خاتم الأولياء على الرسل الكرام ، ومعلوم أن هذا باطل وكفر عند المسلمين • ثم قال وان كان قول الفلاسفة فى الله تعالى ليس موافقا

لقول المسلمين في علمه وقدرته ومشيئته ، فالكلام مع من يذكر مطابقة الكتاب والسنة لأقوالهم وهذا لا يكون الا مسلما ، وأما من لا يبالى بدين الرسول ويفضل الفيلسوف على النبى فهذا لكلامه مقام آخر يستقصى فيه ذلك كما بسط تناقض أقوال الفلاسفة على أصولهم وفسادها فى غير هذا الموضع أى وكما تقدم عن كتاب تهافت الفلاسفة وغيره ثم قال :

الوجه الثالث ان هؤلاء يدعون أن العقل الأول صدر عنه ما تحته فصدر عنه عقل ونفس وفلك ، وعن العقل الثانى عقل ونفس وفلك الى العقل الفعال ، فصدرعنه جميع ما تحته من المواد والصور ، ويسمون هؤلاء الأرباب الصغرى ، والآلهة الصغرى ، ومعلوم بالاضطرار من دين جميع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى ان شيئا من الملائكة ليس فاعلا لجميع المصنوعات، ولا أنه مبدع لجميع ما تحت فلك القمر الذى يسمونه العقل الآخر الفعال ، بل وقد قال تعالى فى وصف الرسل « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين» أى كاملين فى العالم الربانى والعمل به «بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون » قال « وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » وقال « ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له حتى اذا فزع عن قلوبهم » أى عن قلوب الملائكة « قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير » وقال «لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا» وقال : «وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين » ثم ساق آيات أخر حتى قال ولأن ما اتفق عليه أهل الملل من أن الملائكة سجدوا لآدم كلهم أجمعون ، يبطل قول هؤلاء : أن أضعف العقول وأدناها التى هى الملائكة عندهم هو مبدع جميع البشر ورب كل ما تحت القمر ثم قال :

الوجه الرابع ان من تدبر الكتب المصنفة فى العقل لأهل الآثار ـ وان لم تصح أحاديثها ـ تبين له تحريف هؤلاء المتفلسفين لمرادهم ثم ساق نبذة من من الأحاديث المزيفة ، ومنها حديث أول ما خلق الله العقل كما تقدم ، ثم قال : فهل يشك من سمع هذه الأحاديث فى أن المراد بها عقل الانسان الذى يحصل عنده التكليف ، وليس المراد ما هو أعظم الموجودات بعد البارى جل وعلا عندهم ، وهو عندهمأبدع كل ماسواه ، وان الاستدلالبهذا الحديثونحوه على ارادة هذا المعنىالفلسفى ، من أعظم الضلال وأبعد الباطلوالمحال ، وهذا لعمرى لو كان الحديث ثابتا ، كيف وقد اتفق الحفاظ على سقوطه ووضعه كما تقدم وان لفظ العقلوما تصرف منه كتابا وسنة ولغةوعرفا، انما ورد فى عقل الانسان الذىعليه مناطالتكليف ، وأصلهمصدرعقليعقل : بمعنىضبط وعرف وأمسك ومن ذلكحديث الصحيحين عن أبى سعيد يرفعه مطولا وفيه ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهبللب الرجلالحازم منكن قلن وما نقصان عقلنا وديننا يارسول الله ،فقال : أليس شهادة المرأةنصف شهادة الرجل قلنبلى قال : هذا من نقصان عقلها (الحديث) فالعقل والامساك والضبط والحفظ والتمييز ونحو ذلك ضد الارسال والاطلاق والاهمال والتسبيب والجنون ، حتى قال : فلهذا صار العقل يطلق على العمل بالعلم ، أى كما تطلق على الصفة التى يتميز بها القبيح من الحسن على ما فى كتب الأصول والكلام الاسلامية كما يأتى له أيضا وتقدم ، قال : وقد بسطنا الكلام فى مسمى العقل وأنواعه فى غير هذا الموضع اذ الغرض هنا بيان كذب هؤلاء على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم قال :

الوجه الخامس ، ان العقل فى لغة المسلمين كلهم أولهم وآخرهم ليس ملكا من الملائكة ، ولا جوهرا قائمابنفسه ، بل هو عرضقائم بالانسانيحصل فيه بعد البلوغ أو عنده ، ولم يسم أحد من المسلمين قط أحدا من الملائكة عقلا ، ولا نفس الانسان عقلا ، بل هذه الأسماء من لغة اليونان ، ومن المعلوم أن حمل كلام رسول الله عليه الصلاة والسلام أو كلام الله على ما لايوجد فى اللغة التى خاطب بها أمته ولا فى لغة أمته حمل باطل ، فهذا يبين أن الذين وضعوا الأحاديث التى رويت فىالعقل ليس المراد بها عند واضعيهاماأثبتته

الفلاسفة من الجوهر القائم بنفسه فهؤلاء المتفلسفون المستدلون بهذه الأحاديث الباطلة على قول الفلاسفة لم يفهموا مراد الكذابين الواضعين للأحاديث بل حرفوا معناها كما حرفوا لفظها فاذا كان حالهم هكذا فى الحديث الذى استدلوا به فكيف فى غيره ؟! فتبين أن استدلالهم باطل قطعا ، أى فى هذا الحديث وفى غيره مما حرفوه من آيات القرآن الكريم .
ثم قال :

الوجه السادس (١) ان العقل لغة وكتابا وسنة وفى كلام الصحابة والأئمة ، لايراد به جوهرا قائما بنفسه باتفاق المسلمين وانما يراد به العقل الذى فى الانسان ، وهوعند من يتكلم فى الجوهر والعرض من قبيل الأعراض لا من قبيل الجواهر ، وهو المصدر الذى يأتى ثالثا فى تصاريف الفعل ، يقال عقل يعقل عقلا كما يأتى فى القرآن بلفظ المضارع كثيرا قال الله تعالى «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » وهذا كثير (٢) ، وقد يكون العقل هنا بمعنى التعقل والتفهم والتمييز أى كما جعل بعض المتكلمين علوم العقل عشرة يعنى أنها من مدركاته، فمهما كمل ادراكها فى شخص فهو عاقل مكلف ثم ساق كلام العلماء والسلف فى العقل ولا حاجة الى التطويل به . ومن نظر بعين البصيرة والانصاف عرف العقل المقرون بالهداية والايمان والتوفيق ، والعقل المحفوف بالهوى والشيطان والشهوات والخذلان ، وأما العقل التكليفى فهو على سواء فى الأصل وهو الموهوب غير المكسوب حتى بين موسى وفرعون ، الا أن عقل المؤمن يتنور وينمو ، « ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » «واتقوا الله ويعلمكم الله» «ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » ، «مثل نوره » «أى فى قلب المؤمن » كمشكاة

---

(١) هذا الوجه قد تقدم معناه اجمالا وانما أعاده لزيادة التأكيد والتقرير مع زيادة بسط وايضاح .

(٢) وقد كرر القرآن هذه المادة ماضيا ومضارعا ومنفيا ومثبتا فى نيف وأربعين موضعا لايراد بها فى ذلك الا العقل التكليفى الا فى قوله «من بعد ماعقلوه» فالمراد بذلك الفهم والحفظ وكفى بالقرآن حجة ولو فى موضع واحد « أفلا يعقلون » ، « كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ».

« الى قوله ، نور على نور » ، وقال تعالى «ومن يجعل الله له نورا فما له من نور » فالمراد بالنور التوفيق ونور الهداية ، وزيادته ثواب لا يستحقها الا من قبل هداية العقل وسائر الهدايات ، أعنى هداية الآفاق بدلالتها ، وهداية الكتب والرسل ، فهناك يحصل النور ، وزيادة الهدى ، وبذلك يكمل عقل المؤمن أى يكتسب زيادة وكمالا فوق العقل الطبيعى ، والكتاب والسنة يشهدان بذلك . فى الحديث النبوى : يابن آدم أطع ربك تسمى عاقلا ، ولا تعصه فتسمى جاهلا ، رواه أبونعيم فى الحلية . وروى أبو طالب عن جابر ، يرفعه : العاقل الذى عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه . وفى أحاديث العقل ما تقدم عن الحافظ بن تيمية ، بيد أن ضعف الاسناد قد لايؤثر فى المتن اما لتعدد الطرق أو كثرة الشواهد أو موافقة الكتاب من غير نظر الى حديث المعرض ، فالكلام عليه يطول ، أودعته مقدمة « العارض الهموع على البرق اللموع » ، الا أن شاهد القرآن أقوى من شاهد السنة وذلك يرجع الى تأييد المعنى فقط ، فتأمل ، وفى الحديث المار اطلاق العلم والعمل .

***

فصل

وقد فصل أنواع العقل بالنظر الى أحواله وعوارضه لا بالنظر الى ذاته فهو قدر مشترك بين عموم المكلفين كما تقدم فخصه برسالة وأبلغها الى ستة أنواع :

الأول يرجع الى ما عليه الجمهور الذى يصفون به ذا العلم والفضل والدين بأنه عاقل ، قال : وذلك يرجع الى التعقل وجودة الروية فى الخير لا فى الشر ، قلت : وهذا يرجع الى ما تقدم .

الثانى الذى يردده المتكلمون على ألسنتهم فيقولون هذا الشىء مما يوجبه العقل وينفيه العقل ، وهذا فى الحقيقة هو العقل التكليفى العرض القائم بالقلب كما مر .

الثالث قوة النفس التي يحصل بها للانسان اليقين بالمقدمات الكلية الصادقة الضرورية ، لا عن قياس ولا فكر ولا روية بل بالفطرة وهذا انما يرجع الى صفات العقل التكليفي ومدركاته لأن من لايميز الضروريات والوجدانيات والمشاهدات ليس بعاقل فلا يكلف .

الرابع أراد به العقل المكتسب بطول التجارب ، وهذا من نتائج العقل ، لا أنه عقل مستقل ، لأن التجارب لقاح العقل وكذلك التقوى والايمان كما تقدم .

أما الخامس والسادس فهما يرجعان الى العقل الذي يجرى على اصطلاح الفلاسفة كما تقدم ولا دليل لهم عليه ولا يرد بذلك استعمال لا لغة ولا شرعا . هذا وقد أطال الحافظ ابن تيمية المقال في هذا المقام حتى آل كلامه الى أن العقل من قبيل الأسباب التي يتوصل بها الى الادراك في المعقولات ، كالسمع والبصر في المحسوسات ، وانتقد الذين ينكرون أحكام العقل والأسباب ، حتى خرجوا عن دائرة الشرع والعقل ولزمهم ان يسقطوا الأمر والنهي ، وأن يبطلوا الوعد والوعيد وأن لا يحمد محسن ولا يذم مسيء وأنكر بعضهم ما جعله الله من الأسباب والعادات ، ثم ساق الكلام في الجواب عليهم وأمثلة ذلك حتى قال : ونفي هذه الأسباب أن تكون أسبابا في الأمور المخلوقة ، شبيه بنفي طوائف من المتصوفة للسعي اتكالا على القدر ، ودعوى التوكل ، ولهذا قال : ومن نظر الى هذين الانحرافين كأبي حامد الغزالي وأبي الفرج بن الجوزي وغيرهما في كتاب التوكل ، علم أن الالتفات الى الأسباب فقط شرك في التوحيد ومحو الأسباب فقط شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا باذن الله تغيير في العقل . والاعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع قال : والسلف والأئمة متفقون على هذه القوى في الانسان فالقوة التي يعقل بها كالقوة التي يبصر بها ، والله خالق ذلك كله ، كما أن العبد يفعل بقدرته والله خالقه وخالق قدرته ، ثم بسط الكلام في هذا الوجه السادس والقصد الاشارة الى الخلاصة حتى قال .

الوجه السابع يعني من وجوه الجواب على الحديث الموضوع في العقل وعلى تحريف معناه كما تقدم ان هذا يبين كذب هذا الحديث الموضوع في

العقل كما رووه فان العقل اذا كان في لغة المسلمين عرضا قائما بغيره ، لم يكن مما يخلق منفردا عن العاقل ، وانما يخلق بعد خلق العقلاء (1) وأيضا فان مثل هذا لايخاطب ولا يقبل ولا يدبر ، وأيضا فقوله ما خلقت خلقا أكرم على منك، لايجوز أن يسند الى الله تعالى فانه من المعلوم أن الأنبياء والملائكة أكرم على الله منه لأنه صفة من صفاتهم ، ولو فرض أن العقل فى لغتهم يكون جوهرا أو ملكا ، وفرض أن هذا الحديث قاله الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، لم يجز أن يراد به ما تقوله الفلاسفة ومن سلك سبيلهم لمابيناأنه يدل على أنه خلق قبله خلق آخر غيره ، وأيضا فقوله بك آخذ وبك أعطى وبك الثواب وبك العقاب ، تخصيص له بهذه الأعراض ، وعندهم هو المبدع لكل ما سواه من العقول والنفوس البشرية والعناصر والمواليد يعنى مواليد الحيوان والنبات والمعادن ، فكيف يخصه بأربعة أعراض فقط ، أى وهى لا تناسب الا العقل التكليفى على سبيل التمثيل مثلا ، لو ثبت الحديث قال : وأيضا فقوله لما خلقه قال له أقبل فأقبل يقتضى أنه خاطبه فى أول أوقات خلقه، وعندهم يمتنع خلقه فى زمان ، بل يمتنع أن يكون مخلوقا بالاختيار عندهم لما تقدم . انتهى .

وقد رأيت الاقتصار وترك تلخيص سائر الأجوبة خشية الملال وزيادة التكرار فيها والمقصود هنا معرفة خلاف الفلاسفة والمتفلسفين فى كونه تعالى خالقا للعالم قادرا عالما مختارا ، ومن ذلك تعلم أن الخلاف فى ذلك يرجع الى جحد الربوبية لله عز وجل ، ويتفرع على ذلك جحد الشرع كتابا وسنة ، ومايتفرع عليه من الايمان باليوم الآخر كما تكرر .

أما خلاف المتكلمين فى معنى كونه قادرا وعالما : فلايؤول الى جحد القادرية والعالمية ونحوهما ، انما اختلافهم فى المرجع بهما وتفسير ذلك كما عرفت ، وقد عرفت مذهب الفلاسفة ، وما يلزم اتباعهم فى أصول العلم وكيفية وجوده وكونه معلولا مقارنا ، فيرجع ويؤول ذلك الى اتصافه بالقدم لا الحدوث ، ومن هناك تفرع لهم ما اضطروا اليه من اسناد الخلق

(1) ولهذا لم يتعلق الخطاب التكليفى شرعا الا على البالغ العاقل دون الصبى والمجنون ومظنة وجوده عند البلوغ فهذه الدلالة متفق عليها .

والحوادث الى مؤثر ليإذا منهم من انكار ضرورة أن كل مؤثر لابد له من مؤثر ، وكل مصنوع لابد له من صانع ، فاصطلحوا على جعل الفلك الأسفل (فلك القمر) هو المؤثر كما جعلته المنجمة مع اعتبار تأثير النجوم وتدبيرها وهى ثلة من الفلاسفة والطبائعية فرقة (١) منهم القائلون بأن التأثير للطبيعة والعناصر ، وكذا سائر فرق الضلال لا تخرج عن التعلق بشعبة من شعب الفلسفة فلزمهم ، بل نفوا الصانع المختار القادر العالم الخالق الرازق المحيى المميت المستحق للعبادة والشكر على أصول النعم وفروعها ، ولا بعث عندهم ولا نشور ولا جنة ولا نار ، بل هم من قبيل الدهرية القائلين ليل ونهار ، وشمس وأقمار ، وفلك دوار ولا جنة ولا نار ، وهذا هو الكفر الصريح ، بل يكفى بعضه فى كفر قائله ، فليت شعرى كيف ساغ للعقلاء المتفلسفين الحرص على خدمة أقوال مثل هؤلاء والذب عنهم ، وتأويل الشرع من أجل تمشية أقوالهم ، وانما بعثت الرسل وأنزلت الكتب لمكافحة الكفر وأئمته قديما وحديثا الى نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم ،ولارشاد الناس الى كيفيةازاحة غطاء الكفر عن عقولهم ، ولاقامة حجج الربوبية ومعرفة الله حق معرفته وطاعته والتصديق بوعده ووعيده وباليوم الآخر ، وأن اللهيبعث من فىالقبورويحيىالموتى وغير ذلك، وقدوقفالباحث هنا على فوائد من كلام المحققين وأساطين علماء الدين والأعلام الراسخين وما قاموا به من الذبعن التوحيد وعنشريعة سيد المرسلين لئلا يغترالجهال والمغفلون بأقوال الفلاسفة ، وما فرعه عليها أتباعهم المتفلسفون من أهل الملة من الأقوال الكفرية ، والاعتقادات الشركية ، والخلافات البدعية ، نصيحة منهم ، وهى أخص مقاصدى ، لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، عملا بالحديث الصحيح بل المتواتر فى هذا المعنى كما تقدم والتوفيق بيد الله ، والله ذو الفضل العظيم .

---

(١) وهم الذين حكى الله مذهبهم حيث قالوا « ومايهلكنا الا الدهر ، وأجاب عليهم بقوله «ومالهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » فعلمهم تخمينات وظنون وهكذا كل متحير جحد الحق يتلون فى الباطل قال فى أوضح التفاسير للشيخ محمد محمد عبد اللطيف فى تفسير قوله تعالى «وقالوا ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا» الآية . أنكروا البعث وهو أشد أنواع الكفر وقد وجد فى هذا العصر من يدين بهذا الدين ويدعو لهذا المذهب فلهم الويل يوم يقال لهم « فاليوم ننساكم» أى نترككم « كما نسيتم لقاء يومكم هذا » بعدم الايمان به والعمل له » ومأواكم النار ومالكم من ناصرين » وهذا من أكبر الدواعى الى تطويل أبحاث هذا الكتاب .

الفصل السادس

فى ذكر بعض الأسباب (١) التى أثرت فى قبول المسلمين الفلسفة الالهية الطبيعية بادىء بدء قبل فحصهما ومخضهما واخراج غثهما من سمينهما وفى تطور أحوال الفلاسفة الاسلاميين بعد ذلك فى الجمع بين الفلسفة والشريعة مع مجازفة بعضهم فى تحريف النصوص الشرعية لأجل خاطر تقرير القوانين الفلسفية المحترمة عندهم المبنية على تلك الأصول الكفرية ، وفى انقسام هؤلاء المتفلسفين الى أقسام .

الأول الدقة التى كان عليها المنطق الأرسطى وغيره من العلوم الرياضية وأثر هذه الدقة فى النفوس العربية التى لم تألف قبل ترجمتها الا أسلوب الاقناع ، ولم تتعود الاسعة الخيال ومرونته وتسوجه فى التصوير ، كذا قال (٢)

---

(١) وقد تقدم فى كلام الامام الشيخ محمد عبده وغيره الملم ببعض ما يأتى من الاسباب ، والمراد التقريب والارشاد الى أقوال علماء الاسلام المكافحين عن حوزته وان تقاربت معنى حتى تعرف محل الاتفاق من موضع الافتراق وكلهم متفقون على رد كل ما صادم الشريعة من الفلسفة .

(٢) لأن القضايا المنطقية عبارة عن قضايا عقلية فطرية انما ترجم المنطق عنها وكل ذلك كان مشتركا فى العقول السليمة وربط النتائج بالمقدمات يعرفه كل عاقل بعد النظر ولكنهم قربوا وهذبوا كعلوم العربية بالنظر الى العرب . تأمل .

وفيه تأمل ، قال فهذه الدقة التي عرفها المسلمون منذ ترجم المنطق والرياضيات في عهد المنصور ، وازداد وقعها في نفوسهم منذ هذا التاريخ حتى ترجمت الناحية الالهية في عهد المأمون ، ارتبطت في أذهانهم بعصمة الفكر الاغريقي وحملهم فوق ذلك على أن يتجاوزوا بهذه العصمة الناشئة عن المنطق الأرسطي والرياضيات الى الحكمة الاغريقية كلها فلما ترجمت الناحية الالهية في أوائل القرن الثالث الهجرى في عهد المأمون لم يتطرق في أذهانهم أول الأمر شك في دقتها وبالتالي شك في عصمتها فأقبلوا عليها ، آمنين خطأها أو ظانين أنها بعيدة عن الخطأ أي كالمنطق والرياضيات ، قال فتناولوها على أنها شيء يجب الحرص عليه والدفاع عنه ، وفي هذا يقول الغزالي في المنقذ من الضلال ص ١٢ و١٣ طبعة المطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٢٩هـ ، وقد تولدت عن العلوم الرياضية آفتان احداهما أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ويحسب أن جميع علومهم في الوضوح ووثاقة البرهان كهذا العلم .

الثاني قال وبجانب دقة المنطق الأرسطي والعلوم الرياضية هذه الدقة التي كانت أشبه بالاغراء للعقل الاسلامي على الاقدام على قبول الناحية الالهية والانسانية أي الأخلاقية من الفلسفة الاغريقية ، وتناول ما فيها من آراء بالشروح والتوضيح ، كان لصورة هذه الناحية الفلسفية التي وردت فيها دخل في قبولها كذلك وهي صورة الاعتراف باله واحد خالق معبود(١) وفيه بحث يعرف مما تقدم ، قال وصورة هذا الزهد والتصوف في سلوك الانسان وصورة الافناء كوسيلة لتقرب الانسان من الله : اذ أن فلسفة الاغريق كما عرف من قبل في القسم الأول من هذا الكتاب لم تقف عند معالجة العقل الاغريقي لها وأن فلسفة أفلاطون وأرسطو على الأخص ، لم تبق كما تركها الفيلسوف بل تناولت ذلك منذ وفاة أرسطو كآخر فيلسوف اغريقي ، عقليات أخرى مختلفة قبل أن يصل ذلك الى المسلمين ، فتناولته عقلية الرومان في روما وعقلية المصريين في الأسكندرية وعقلية الفينيقيين

(١) لو كان الأمر كذلك ما خالفوا الاسلام ولا خالفهم المسلمون وقد تقدم تفصيل مذهبهم في ذلك تصريحا ومايلزمهم . تأمل .

والساميين فى مدارس الشرق الأدنى ، ومن غير شك كان لثقــافات هذه العقليات المختلفة أثر فى تعديل التراث الاغريقى وفى تصويره بصورة ليست كلها للاغريق اذ من بين ثقافات هذه العقليات تناولته ثقافة العقليات الشرقية وهى دينيــة الى حد كبير فأضفت عليــه ثوب الدين السماوى بجانب ثوب الزهد الصوفى الشرقى فى الاهياته وانسانياته : الزج برسائل دينية موسوية أو مسيحية عليها صبغة الفلسفة الاغريقية بين المؤلفات الفلسفية الاغريقيــة ونقلها بعد ذلك منسوبة الى فلاسفة الاغريق كما تقدم ص ٢١٨ من القسم الأول لهذا الكتاب . وانتهى ، وهنا وجه رابع فى اغترار الناس بالمترجمين والشراح لعلوم الفلسفة كمــا تقدم لكونهــم من الأشــخاص البــارزين واشتهارهم بالتحقيق ، وليسوافىالحقيقة من أئمةالدين والشريعة المعتمدين المشهورين الذين يعرفون لأول وهلة خطأ الفلسفة الالهية كمــا قام الامام الغزالى والحافظ ابن تيمية وغيرهما لما عرفوا مزالق الخطأ وشموا روائح الكفر ، بل من هؤلاء المتفلسفين من لبس وغرر بالتوفيق على زعمه بين الشريعة والفلسفة الالهية كما صنع ابن رشد واخوان الصفا وغيرهم وان كان عالما بالشرعيات ، ولكن لكل جواد كبوة كما يأتى كلامه والمناقشة عليه، فهذا من أسباب قبولها عند من لم يعرف أو يقدم الكتاب والسنة وقواعد الدين ويدع ماصادمها من ذلك ولهذا تعقبه الحافظ ابن تيمية وغيره كمــا يأتى .

***

فصــل

ثم ان بعضهم حاول التوفيق بين الفلسفة والدين كالفارابى وابن سينا والسجستانى وغيرهم من فلاسفة الاسلام ، أى وكابن رشد أيضا ، ولعل ترك التوفيق كان أقرب الى التوفيق . حتى لقد صــور التوفيــق تلك الصورة الجذابة من الوجهة الدينية التى صاحبت الآراء الاغريقية وانخدع بها بعضهم من المسلمين فمنحوها ثقتهم أم كان مبعثــه شىء آخر غيــرها فتوفيقهم كان له نمطان .

النمط الأول : هو النمط البدائى الساذج وهو شرح الحقائق الدينية المجملة بالآراء الفلسفية التى من شأنها أن تكون مفصلة كالفارابى فى كتابه نصوص الحكم وابن سيناء فى رسائله فى الحكمة والطبيعيات ، واخوان الصفا فى رسائلهم ، وفقوا بين الدين والفلسفة على هذا النمط اذ شرحوا الحقائق الدينية بالآراء الفلسفية الاغريقية .

قلت : وهذا مثار النقع ، ومحط الخبط والخلط ، ومحل التلبيس والتحريف ، ومناط الايهام للعوام ، باتحاد أو تقارب بين الفلسفة والاسلام ، وفيه كل ماتقدم ، ويؤكده ويوضحه ما يأتى .

قال : فاذا ذهبنا الى كتاب فصوص الحكم للفارابى وجدنا مؤلفه يشرح قوله تعالى « هو الأول والآخر » بشرح أفلوطينى : فيذكر أنه الأول من جهة أنه منه ، ويصدر عنه كل موجود لغيره ، وهو أول من جهة أنه أول بالوجود لغاية قربه منه . وهو أول لأنه اذا اعتبر كل شىء كان فيه أولا أثره وثانيا قبوله لا بالزمان ، هو آخر لأن الأشياء اذا لوحظت ونسبت اليها أسبابها ومبادئها وقف عنده المنسوب فهو آخر لأنه الغاية الحقيقية فى كل طلب فالغاية مثل السعادة فى قولك لم شربت الدواء فيقول لتغير المزاج ، فيقال لم أردت ألا يتغير المزاج ؟ فيقول للصحة فيقال لم طلبت الصحة ؟ فيقول للسعادة والخير ، ثم لايورد عليه سؤال يجب أن يجاب عنه ، لأن السعادة والخير يطلب لذاته لا لغيره فهو الأول فلذلك هو آخر كل غاية ، أول فى الفكرة ، آخر فى الحصول قال : ويرجح أن هذا الشرح الفلسفى لأفلوطين أو الطريقة الأفلوطينية الحديثة لدى العموم لما فيه من تعبيرات تشعر بمذهب الانتخاب والاختيار ، كالتعبير بالوجود لغيره الذى ينم عن رأى أرسطو بجانب التعبير بقوله : يصدر عنه الذى يمثل رأى أفلوطين كما يفسر قوله تعالى « والظاهر والباطن » فى الكتاب المذكور ص ١٧٠ على النحو الآتى : لاوجود أكمل من وجوده ، فلا خفاء به من نقص الوجود فهو فى ذاته ظاهر ، ولشدة ظهوره باطن ، وبه يظهر كل ظاهر ، كالشمس تظهر كل خفى ، وتستبطن لا عن خفاء . وفى موضع آخر ص ١٧٢ من الكتاب المذكور يشرح هذه الجملة مرة أخرى بقوله : هو باطن لأنه شديد الظهور غلب ظهوره على الادراك فخفى ، وهو

ظاهر من حيث أن الآثار تنسب الى صفاته وتجب عن ذاته ، فتصدق وتحقق بها ، فقد اقتبس فى شرحه لهذه الآية الكريمة من فلسفة عصر الانتخاب والاختيار أيضا ، وهى هنا الفلسفة الأفلوطينية الحديثة ، لأن أسلوب الفلسفة المشروح به ، يعتمد على الشعر فى التعبير والتصوير ، والشعر فى التعبير والتصوير من مظاهر فلسفة أفلوطين على الخصوص ، وبجانب هذا الأسلوب الشعرى تعبر هذه الفلسفة المشروح بها عن وجود العالم عن الله بأنه وجب عن ذاته .

قلت ومن هذا تعرف ما فى كلام الفارابى .

قال : وهذا التعبير لأرسطو والجمع بين خصائص فيلسوفين فأكثر فى نطاق واحد طابع هذا العصر المشار اليه ، قال كما يشرح الملائكة بأنها صور علمية جواهرها علوم ابداعية قائمة بذواتها تلحظ الأمر الأعلى فينطبع فى هوياتها ما تلحظ وهى مطلقة الروح القدسية تخاطبها فى اليقظة والروح البشرية تعاشرها فى النوم كما فى ص ١٤٦ من المصدر السابق فى شرح الملائكة بما شرح به أفلاطون مثله من أنها حقائق مجردة قائمة بذاتها ومن أنها كلية ومطلقة ومن أن علمها ليس انتزاعا من هذا العالم المحسوس .

***

فصل

قال واذا انتقلنا الى ابن سيناء رأيناه يقرأ قول الله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىءعليم» ثم يشرحهابالمزيج من فكرتى أفلاطون وأرسطو ص ١٢٥ من الرسالة السادسة من رسائله فى الحكمة والطبيعيات فيقول : النور اسم مشترك حقيقى لمستعار مجازى قلت الاشتراك بين الحقيقة والمجاز عند أرباب الأصول والعربية انما يكون

الاشتراك اللفظى فى المعانى الحقيقية لجواز تعدد الوضع أو الواضع كالعين ونحوها . قال والذاتى هو كمـال المشف من حيث هو مشتف كما ذكـر ارسطاطاليس ، والمستعار على وجهين اما الخير واما السبب الموصل الى الخير والمعنى هنا هو القسم المستعار المجازى بجزأيه ، أعنى أن الله خير بذاته وهو سبب لكل خير قوله «السموات والأرض» عبارة عن الكل ، قلت هذا التفسير انما عدل اليه لأنه ليس فى أصول الفلاسفة ذكر ولا وجود للسموات التى أخبر عنها الشرع وقد يعبرون عنها بالأفلاك بل يغالطون بذكرها ويريدون غيرها كماتقدم ، فقد تضمن الكلام سرا فلسفيا ، قوله مشكاة ، عبارة عن العقل الهيولانى والنفس الناطقة ، قلت فانظر كيف صرف الآية عن الحكمة الشرعية والوضع اللغوى الى الدعاوى الفلسفية ، قال لأن المشكاة متقاربة الجدران جيدة التهيؤ للاستضاءة ، لأن كل ما تقارب الجدران كان الانعكاس فيه أشد والضوء أكثر ، كما أن العقل بالفعل مشبه بالنور ، كذلك قابله العقل الهيولانى مشبه بقابله وهو النور وهو المشف وأفضل المشفات الهـواء ، وأفضـل الأهوية هو المشكاة فالرموز بالمشكاة هو العقل الهيولانى الذى نسبته الى العقل المستفاد كنسبة المشكاة الى النور ، قلت : وهذا من قبيل كلام الصوفية المتفلسفة والباطنية المحرفة للكتاب والسنة على مقتضى اعتقاداتهم الفلسفية الداحضة. قال والمصباح هو عبارة عن العقل المستفاد بالفعل ، لأن النور كماهو كمال المشف ومخرج له من القوة الى الفعل ، ونسبة العقل المستفاد الى العقل الهيولانى كنسبة المصباح الى المشكاة . وقوله : فى زجاجة لما كان بين العقل الهيولانى والمستفاد مرتبة أخرى وموضع آخر نسبته كنسبة الذى بين المشف والمصباح فهو الذى لا يصل فى العيان المصباح الى المشف الا بتوسط ، وهو المسرجة ، ويخرج من المسارج الزجاجة لأنها من المشفات القوابل للاضائة : ثم قال بعد ذلك : كأنها كوكب درى فيجعلها الزجاج الصافى المشف لا الزجاج المتلون الذى لايستشف « يوقد من شجرة مباركة زيتونة » يعنى به القوة الفكرية التى هى موضع ومادة الأفعال العقلية كما أن الدهن موضـوع ومادة للسراج «لاشرقية ولاغربية» : الشرق فى اللغة حيث يشرق منه النور والغرب حيث يفقد النور ، ويستعار الشرق فى حيث يوجد فيه النور والغرب

فى حيث يفقد فيه النور فانظر كيف راعى التمثيل وشرائطه ، فالرمز بقوله لا شرقية ولا غربية ما أقول ان القوة الفكرية على الاطلاق ليست من القوى المحضة النطقية التى يشرق فيها النور على الاطلاق فهذا معنى قوله شجرة لا شرقية ولا هى من القوى البهيمية الحيوانية التى يفقد فيها النور على الاطلاق . وهذا معنى قوله «ولاغربية» وقوله : يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار » مدح للقوة الفكرية ثم قال « ولو لم تمسسه نار » ، يعنى بالمس : الاتصال والافاضة ، وقوله : « نار » لما جعل النور المستعار ممثلا بالنور الحقيقى وآلاته وتوابعه بآلاته وتوابعه مثل الحامل الذى هوسبب له فى غيره بالحامل له فى العادة وهو النار وان لم تكن النار بذى لون فى الحقيقة ، فالعادة العامية أنها مضيئة ، فانظر كيف راعى شرائط التمثيل ، وأيضا لما كانت النار محيطة بالأمهات مشبها بها المحيط على العالم لا احاطة سقفية بل احاطة تولية مجازية وهو العقل الكلى . فسّر :

أولا : النور بالخير ليكون الله هو الخير كما جعل أفلاطون الخير أعلى المثل عنده كما جعله أفلوطين أول الموجودات فى سلسلة الوجود .

وثانيا : السموات والأرض بالكل وهو تعبير الفلاسفة عن العالم . قلت تقدم أنهم يريدون بالسموات الأفلاك والعرش والكرسى وينفون السبع الطباق التى ورد بها الكتاب والسنة كما أفردت ذلك برسالة خاصة . قال :

وثالثا : المشكاة بالعقل الهيولانى كاستعداد للنطق والادراك وهو أحد أقسام العقل عند ارسطو .

ورابعا : المصباح بالعقل المستفاد بالفعل بعد التحول من استعداد ، وهو القسم الثانى من أقسام العقل عند ارسطو أيضا .

وخامسا : الزجاجة بالواسطة ، وهى : العقل الفعال الذى بين العقل الهيولانى والعقل المستفاد بالفعل . والعقل الفعال هو ثالث الأقسام التى فرضها أرسطو للعقل على الاطلاق . قلت وقد أشار اليها والى غيرها من أقسام العقل الفارابى كما أشرت اليها قريبا ، قال .

وسادسا : « شجرة مباركةزيتونة» بالقوة الفكريةالتيهيمادة الأفعال

وسابعا : النار بالعقل الكلى المدبر للعالم المشاهد وهو النفس الكلية عند أفلاطون ورجال المدرسة الأفلاطونية الحديثة ، قال وهكذا ابن سيناء فى تعسفه أي يحرف القرآن مطابقةللفلسفة كأنها عنده الأصل الحق الثابت . وقد تقدم كلام الفلاسفة فى تقسيم العقول والنفوس على زعمهم ، قال وذلك رغبة منه فى التوفيق بين الدين والفلسفة فجعل ما فى الآية الكريمة من الكلمات رموزا لاصطلاحات فلسفية بعضها لأفلاطون وبعضها لأرسطو ، وجعل محصل الآية بعدعناء أن الله خيروسبب الخير فيالعالم ومثل خيريته أو صورة خيريته فى هذا العالم ذلك العقل الانسانى الذى يتحول من استعداد للادراك الى عقل مستفاد بالفعل بواسطة العقل الفعال .

***

فصل

وزاد بالهامش قوله : ولمعرفة التعقيد ، أى والتحريف ، الذى وقع ينشأ من تفسير النصوص الشرعية بالفلسفة نذكر هنا تفسيرا آخر للآية الكريمة ليس هو بأوضح التفاسير المتداولة فيها ، ولكنه على كل حال ليس تفسيرا للدين بالفلسفة .

يقول الامام الزمخشرى المتوفى بخوارزم سنة ٥٣٤ هـ فى كتابه « الكشاف » فى تفسير هذه الآية من سورة النور : « الله نور السموات والأرض » أى ذو نور السموات والأرض أو الله صاحب الحق الواضح كالنور فى السموات والأرض ، أو صاحب الحق الواضح لأهل السموات والأرض ، « كمشكاة » أى كصفة مشكاة وهى الكوة فى الجدار غير النافذة ، «فيها مصباح المصباح فى زجاجة » : أراد قنديلا من زجاج أزهر كأنه درى ، شبه القنديل بأحد الدرارى من الكواكب ، وهى المشاهير كالمشترى والزهرة والمريخ ، « يوقد من شجرة » يعنى زيت ذبالته بزيتها ، « مباركة » كثيرة المنافع ، « لا شرقية ولا غربية » أى منبتها الشام وأجود أنواع الزيتون ما كان بالشام ، وقيل معنى ذلك لا فى مضحى ولا مقنأة ولكنه الشمس والظل يتعاقبان عليها وذلك أجود لحملها « يكاد زيتها

يضيء » أى من غير نار مبالغة فى صفائه « نور على نور » : أى هذا الذى شبهت به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق مما يقوى النور ويزيده اشراقا ويمده باضاءة بقية ، ومعنى الآية الكريمة كما نقل عن على كرم الله وجهه ، « الله نور السموات والأرض » أى نشر فيهما النور الحق وبثه فأضاءت بنوره أو نور قلوب أهلها .

ولا شك أن هذا معنى يتناسب مع طبيعة الدين فى أنه ميسر دراكه لكثيرين ، بخلاف المعنى الفلسفى الذى شرح به ابن سينا هذه الآية الكريمة ، اذ ادراكه واقف على الخاصة — يعنى من غير ارشاد الى هداية الله الدينية كما هى عادة القرآن ، ولهذا قال آخر الآية « يهدى الله لنوره من يشاء » ، ومن غير تفسير بمأثور منقول ، أو وضع معقول ، بل هو مبنى على تخمينات وحدسيات وظلمات بعضها فوق بعض تستمد من أصول فلسفية بعضها كما عرفت « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور » ، « ومن لم يجعل الله له نورا ، فما له من نور » ، وما أشبه الماء بالماء ، والجنادل بالحصى ، واليوم بالبارحة . ولهذا قال فى الأصل : وما أبعد هذا المعنى الذى فسر به ابن سيناء عن أن يكون مقنعا للناس بوضوح هداية الله فى السموات والأرض وما يحول دون وضوحها حائل ، شأنها شأن ذلك النور الحسى الذى توافرت فيه عوامل الوضوح فى اشاعه والصفاء فى ضيائه ، أى وقد وصف الله جميع الكتاب بأنه هداية محضة فقال « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » وأين المتفلسفون من المتقين الذين أوصدوا أبواب الهداية من أبوابها الأربعة كما تقدم ، وانما تمكن منها التقوى ، كما قال الله عز وجل « أولئك على هدى من ربهم » « الا على الذين هدى الله » ، « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » يعنى الأنبياء والمرسلين .

***

فصل

هذا ، وقد رأيت التوسع قليلا هنا حتى يتبين لك الذين صدقوا من فلاسفة الاسلام ، وتعلم الكاذبين منهم ، أما فلاسفة الكفر : فقد

كفاك الكتاب العزيز والسنة البيضاء والعلماء الراسخون حكمهم وتحكمهم والحادهم .

***

فصل

فقال أبقاه الله : ويفسر ابن سيناء سورة الناس على الوجه الآتى « من شر الوسواس الخناس » : القوة التى ترفع الوسوسة هى القوة المتخيلة بحسب صيرورتها مستعملة للنفس الحيوانية ثم ان حركتها تكون بالعكس فان النفس وجهتها الى المبادىء المفارقة والمتخيلة اذا جذبتها الى الاشتغال بالمادة وعلائقها فتلك التى تخنس أى تتحرك بالعكس وتجذب النفس الانسانية الى العكس ، فلذلك سميت خناسا ، « الذى يوسوس فى صدور الناس » معناه أن الخناس وهو القوة المتخيلة ، انما توسوس فى الصدور التى هى المطية الأولى للنفس لما قد ثبت أن المتعلق الأول للنفس الانسانية هو القلب وبواسطته تنبث القوى فى سائر الأعضاء فتأثير الوسوسة أولا فى الصدر ، ثم قال الله عز وجل « من الجنة والناس » الجن هو الاستتار والانس هو الاستئناس ، فالأمور المستترة هى الحواس الباطنة ، والمستأنسة هى الحواس الظاهرة كما فى ص ٣٢ من جامع البدائع فى رسالة المعوذتين ففسر :

أولا : الوسواس بقوة نفسية للانسان وهى القوة المتخيلة . زاد بالهامش بينما الشىء الذى يشرح به مصدر الشر عادة هو الشيطان وهو فى أكثر شروحه طبيعة خارجة عن الانسان انتهى . قال .

وثانيا : فسر الجنة والناس بالحواس الظاهرة والباطنة أى بقوى انسانية أيضا ، وبهذا التفسير وفق بين الدين والفلسفة بأن حمل نصوص الدين فى الشرح ما تحكيه خاصا بالشر ومصدره اذ الفلسفة فى القديم والقرون الوسطى تميل الى أن يكون الانسان نفسه مصدر تصرفاته الخيرة والشريرة ، عقله مصدر النوع الأول ، وجسمه مصدر النوع الثانى ، وبعبارة أخرى معرفته أساس الفضائل ، وغرائزه أو قواه الشهوية مصدر الرذائل

وتستوى فى أن الانسان مصدر التصرفات كلها خيرها وشرها فلسفة أفلاطون وأرسطو والفرق بين فلسفتيهما فيما وراء ذلك فى النظرة الى الانسان أهو مركب من جزأين سبق وجود أحدهماوجود الآخر ، أم هو وحدة واحدة ذات شعبتين ، قال بالرأى الأول أفلاطون ، وبالثانى أرسطو .

أنظر الى تفسير ابن سيناء هذا وتفسير الصحابة والتابعين وسائر علماء الدين تجد بين مدى ذلك بيدا لاتبيد .

***

فصل

قال واخوان الصفا يشرحون الجنة والنار بما يفهم منه أن الجنة هى عالم الأفلاك وأن النار هى عالم ما تحت القمر ، وهو عالم الدنيا قلت وهذا جحود للدار الآخرة والبعث والحشر والجزاء ونعيم الجنة وعقاب النار ومعاقبة المسيء بالاساءة والمحسن بالاحسان فى الدار الآخرة ، وفى ذلك طى لبساط الشرائع كلها وتكذيب لله عز وجل وللرسل الكرام وهذا اللازم (١) إن صرحوا به فهو كفر صريح كما تقدم وهذا فى قوم من فلاسفة الاسلام أقماهم الله وقد فعل ، قال ، ففى الرسالة الثالثة من رسائلهم ص ٩١ ج ١ فى الحديث عن تجرد النفس واشتياقها الى عالم الأفلاك يقولون : بل النفس اذا فارقت هذه الجثة ولم يعقها شيء من سوء أفعالها أو فساد آرائها وتراكم جهالاتها أو رداءة أخلاقها ، فهى هناك فى عالم الفلك طرفة عين

(١) أى أن صرحوا به قولا واعتقادا على أن لازم المذهب مذهب عند كثير من أهل العلم ويشير الى ذلك قوله تعالى « وما خلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا .. الآية » وهم لم يقولوا بأنهما باطلا بل يعرفون ويعترفون ببدائع الصنع وعجائب الحكم فيهما لكنهم ينكرون الآخرة وهى حق فلزم من انكار الآخرة أن يكون خلق السماء والأرض باطلا لعدم ترتب الحكمة الأخروية على ذلك كما قال فى آية أخرى « وما خلقنا السماء والأرض ومابينهما لاعبين » ، « وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما الا بالحق ، وأن الساعة لآتية » ، فسمى الله لازم مذهبهم وهو الباطل مذهبا وقال « ذلك ظن الذين كفروا » ، وليس ذلك الا لازم قولهم بجحود الآخرة لأن مظالم الدنيا ومضارها والتخلية بين القوى والضعيف ان لم يكن فيها حكمة وهى الجزاء فى الآخرة لزم أن يكون خلق الدنيا ومافيها باطلا « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » واعلم أنه لا تكفير ولاتفسيق الا بقاطع كما اشرت الى هذا تعليقا وهذا يطرأ فى علماء الاسلام وعوامهم وان أطلق الكفر على بعض المعاصى اذ المتروك فالكفر أنواع ولا يخرج من الملة الا كفر الاعتقاد الجازم وهذا ضابط لما مر ومايأتى ان شاء الله .

بلا زمان لأن كونها حيث همتها ومحبوبها كما تكون نفس العاشق حيث معشوقه ، فاذا كان عشقها هو الكون مع هذا الجسد ومعشوقها هذه المستلذات المحسوسة المموهة الجرمانية وشهواتها هذه الزينة الجسمانية فهى لاتبرح من هاهنا ولا تشتاق الصعود الى عالم الأفلاك ولا يفتح لها أبواب السموات ولا تدخل الجنة مع زمرة الملائكة ، بل تبقى تحت فلك القمر سائحة فى قعر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة تارة من الكون الى الفساد وتارة من الفساد الى الكون . لعل مرادهم بهذا هو التناسخ بدليل جعلهم آيات عذاب النار ووعيد الله وعيدا للنفس التى تحت القمر تحريفا وتلبيسا كما قالوا « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » ، « لابثين فيها أحقابا ، مادامت السموات والأرض » ، « لا يذوقون فيها بردا » ، فى عالم الأرواح الذى هو الروح والريحان ولا يجدون لذة شراب الجنان المذكورة فى القرآن ، ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : الجنة فى السماء والنار فى الارض ا.هـ فانظر كيف حرفوا الحديث بعد القرآن لو صح اسنادا أو متنا أو معنى على زعمهم ، والحديث عزاه الحافظ السيوطى فى جمع الجوامع وهو الجامع الكبير الى الديلمى عن عبد الله بن سلام وقد جمع فيه ما وقف عليه من صحيح وسقيم وواه وموضوع ثم جرده الى الجامع الصغير وزياداته ولم يورده فيهما لأنه قال فى خطبة الجامع الصغير وصنته عما تفرد به وضاع أو كذاب ، على الشارح المناوى ناقشه فى صحة هذا الكلام ، وقال فى خطبة الجامع الكبير : ان ما عزاه للعقيلى وابن عدى والخطيب وابن عساكر والحكيم الترمذى والحاكم فى تاريخه والديلمى فهو ضعيف فيستغنى بالعزو اليها أو الى بعضها عن بيان ضعف الحديث ا.هـ . أما الحافظ ابن تيمية فقال فى المنهاج ص ٧٨ ج ٤ ابن شيرويه الديلمى ذكر فى هذا الكتاب أحاديث كثيرة صحيحة وحسنة وأحاديث موضوعة ا.هـ .

ولعل الأقل يشم منه رائحة الصحة أو الحسن ، ولو لغيره ، ثم من أين لنا ان هذا من هذا القبيل (١) ومعنى الحديث ان ثبت أن الجنة الموعود بها فى

(١) والفرد المجهول يحمل على الاعم الاغلب وهو الضعف على مقتضى كلام الحافظ السيوطى ولعله اقعد بمعرفة الحديث .

الآخرة فى السماء لقوله تعالى ، «وفى السماء رزقكم» ، أى المطر « وما توعدون » ، قال البيضاوى أى ما توعدون من الثواب لأن الجنة فوق السماء السابعة ، قال الحافظ المناوى فى فيض القدير ص ٣٦٣ ج ٣ وقد ورد أى فى الحديث أن الجنة فوق السماء السابعة ويشهد له قوله تعالى : «عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى» وماورد فى أحاديث الجنة ورؤية النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ورؤياه لها ، ورؤيا الأنبياء حق ، وهؤلاء الفلاسفة وأتباعهم لايقولون بالسموات السبع التى هى فوق الأفلاك وهى التى يحرفون أسماءها ويعبرون بها عن الأفلاك والجنة والنار والفلك والسماء ونحو ذلك حقائق شرعية يفصلها أو بعضها حديث المعراج على اختلاف ألفاظه ، وفيه وصف «سدرةالمنتهى » « عندهاجنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى » كما فسر ذلك حديث المعراج ، والسدرة فوق السماء السابعة ، وقد قيل انها سميت جنة المأوى لأن أرواح الشهداء والمؤمنين تأوى اليها مدة أيام البرزخ ، وأما بعد البعث للأجساد فتعود الى الأجساد للحشر والحساب ، « كما بدأكم تعودون » « ثم فريق فى الجنة وفريق فى السعير » ، وقد وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض فهى خارجة عن السموات والأرض وأعظم (١) منها وأوسع ، « ويخلق مالا تعلمون » وهى دار خلود لا تكون الا على صفة مخالفة لصفات الأجسام الجمادية والحيوانية فى الدنيا ، لأنها خلقت للأبد وهذه خلقت للفناء ، ولكن القوم فى لبس من خلق جديد ، وفى حاشية المواقف ص ٢٣٠ج٣ مايلى : قوله المقصد الرابع الجنة والنار هل هما مخلوقتانالآنالخ ولميرد نصصريحفى تعيين مكانهما ، والأكثرون علىأن الجنة فوقالسمواتالسبع وتحتالعرشلقوله تعالى «عندسدرةالمنتهى عندها جنة المأوى » وقوله عليه الصلاة والسلام : سقف الجنة عرش الأعلى ، والنار تحت الأرض السبع ، والحق تفويض علم ذلك الى العليم الخبير ، وكذا فى شرح المقاصد قال : أقول ان كون سقفها عرش الأعلى لا يستلزم كونها فوق السموات السبع لجواز أن يكون تحتها سماء الدنيا وكذا كونها

---

(١) واحاديث سعة الجنة ومايعطاه ادناهم فضلا عن اعلاهم تشهد بذلك .

عند سدرة المنتهى لاتستلزم ذلك ، لتحقق (١) العندية بكون طرفها عندها والحق أن ليس لهما موضع معين بل كل موضـــع تجلى فيه جمـــال الحق فجنة ، أو تجلى جلاله فنار ، لأن المصلوب فى الهواء والغريق فى الماء يعذب بالنار أو يستعذب بالجنة اتفاقا ، وما هذا شأنه لا يكون له موضع معين يؤيده أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم تناول شيئا فى صلاة الخسوف ثم تكعكع فسئل عنه بعد الصلاة فقال رأيت الجنة فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا (٢) ورأيت النار ولم أر كاليوم منظرا قط أفظع ا.هـ . ولا يخفى ما فيه من التكلف والتجويزات البعيدة المخالفة للظاهر كما تقدم ، والفوقية والعنديةحقيقية (٣) واضافية ، والأصل الحقيقة ولامانع منها هنا ، ولا وجه لتأويل النصوص الا عند مصـــادمة القواطع العقلية أو السمعية كما عرفت وقوله بل كل موضع تجلى فيه جمال الحق فجنة أو تجلى جلالهفنار ، نفثةصوفية منبطها سلسلة فلسفية . أما عذاب البرزخ ونعيمهفهو غير عذاب النار الكبرى وغير نعيم الجنة بعد القيامة بدليـــل أن الشهداء والمؤمنين يتنعمون وأهل النار يعذبون مدة البرزخ وذلك يرجع الى الأرواح فاذا بعث الله منفى القبور ، عادت الأرواح الى الأشباح وكان النعيم والعذاب للأرواح مع الأشباح ، «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها » ، «وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا » ويأتى مزيدلهذا ان شاءالله . قال الحافظ ابن حجر فىالفتح ص٤٣٣ جـ٢ قوله انى رأيت الجنة فتناولت منها عنقودا : ظاهره أنها رؤية عين فمنهم من حمله على أن الحجب كشفت له دونها فرآها

---

(١) ومتى تحقق هـــذا التحقق ثم ان سلم فرضا فقد تحقق ان الجنة أو جنة المأوى فوق السماء السابعة وعلمت الجهة والمكان اجمالا سواء كانت عند سدرة المنتهى أو عند طرفها وأى محظور أو محذور أو ملجىء لهذا التجويز الخارج عنالدلالة الوضعية والتجويز العقلى يطرق جميع النصوص والظـــواهر ويلـــزم من اعتباره اهدار الدليل لغير دليل ولا يخفى مافى ذلك » على ان مثل هـــذه التجويزات تراها فى كلام كثيـــر من العلماء يدعمون بها القـــدح فى النصوص والظواهر ، والتجويز العقلى ليس من الاحتمال اللفظى لأن الأول خـــارج عن الدلالة اللفظية ، والثانى من قبيل المشترك ، فحرر ويأتى حديث أرواح الشـــهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت وتأوى الى قناديل معلقة بالعرش . الحديث رواه مسلم .

(٢) وأى دلالة فى هذا على العندية المشار اليها أو ان الجنة مجهـــولة الجهة لأن هذا من الكرامات والمعجزات الخارقة للعادات . وقد كفانا الحافظ ابن حجر فى الكلام على الحديث .

(٣) فالسماء الـــدنيا فوقنا حقيقة لعدم الفاصل والسماء التى فوقها الى السابعة فوقنا مع الفاصـــل فهذه فوقية اضافية وهذا يعم سائر الجهات والاصبع البنصر عند الخنصر حقيقة وعنـــد السبابة عندية اضافية للفاصل ، وقد تقدم أو يأتى نحو ذلك .

حقيقة وطويت المسافة بينهما حتى أمكنه أن يتناول منها وهذا أشبه بظاهر هذا الخبر ، ويؤيده حديث دنت مني الجنة حتى لو اجترأت عليها لجئتكم بقطف من قطافها ، ومنهم من حمله على أنها مثلت له فى الحائط كما تنطبع الصورة فى المرآة فرأى (١) جميع مافيها ، ويؤيده حديث : لقد عرضت على الجنة والنار آنفا فى عرض هذا الحائط وأنا أصلى وفى رواية لقد مثلت وكلها فى البخارى ولمسلم لقد صورت ، ولا يرد على هذا أن الانطباع انما هو فى الأجسام الصقيلة لأنا نقول هو شرط عادى فيجوز أن تنخرق العادة خصوصا للنبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لكن هذه قصة أخرى وقعت فى صلاة الظهر ولا مانع أن يرى الجنة والنار مرتين بل مرارا على صور مختلفة قال القرطبى ولا احالة فى ابقاء هذه الأمور على ظواهرها ، لاسيما على مذهب من يقول ان الجنة والنار قد خلقتا ووجدتا كما يدل على ذلك الكتاب والسنة فيرجع الى أن الله تعالى خلق لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ادراكا خاصا به أدرك به الجنة والنار على حقيقتهما ا.هـ وهذا عارض ساق اليه السياق فتأمل .



فصل

هذا ويفسر اخوان الصفا الشريعة الالهية أو الوحى بشرح أفلوطينى ، فيقولون : اعلم أن الشريعة الالهية هى جبلة روحانية تبدو من نفس جزئية فى جسد بشرى بقوة عقلية تفيض عليها من النفس الكلية باذن الله تعالى فى دور من الأدوار ، وفى وقت من الأوقات لتجذب النفوس الجزئية وتخلصها من أجساد بشرية متفرقة ليفصل بينها يوم القيامة ، «ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم » ، وقوله تعالى : « وينجى الله

(١) ومن هذا القبيل قصة بيت المقدس لما كذبت قريش صبيحة الاسراء بوقوعه ثم قالوا صف لنا بيت المقدس فمثله جبريل حينئذ فوق جناحه أو كشفه له حتى شاهده حقيقة ثم وصفه فقالوا صدقت ، « وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » .

الذين اتقوا بمفازتهم» قال فقدربطوا بين الله والنفس الكلية من جهة والعقل الانسانى المفاض عليه من جهة أخرى . كما ربطت الافلاطونية الحديثة بين الله والنفس الكلية من جانب والعالم من جانب آخر ، وجعلوا الخلاص من هذا العالم المادى غاية الانسان كما فرضه التصوف الشرقى الذى يعد عنصرا رئيسيا فى بناء الأفلاطونية الحديثة ، ويفسرون الشهداء فى قوله تعالى : «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » بهؤلاء الذين شهدوا تلك الأمور الروحانية المفارقة للهيولى ويعنون بها جنة الحياة ونعيمها ، قال وشبيه بهذا النمط وهو شرح الحقائق الدينية المجملة بالآراء الفلسفية المفصلة جميع المعانى الدينية مع المعانى الفلسفية فى نطاق واحد لتقرير غاية واحدة . واخوان الصفاء فوق شرحهم على النمط السابق جمعوا بين الدين والفلسفة فى الاستشهاد على أمر يريدون تقريره كاستشهادهم على بقاء النفس بعد مفارقة الجسد بقولهم ويحكى عن هرمس المثلث بالحكمة وهو ادريس النبى عليه السلام أنه صعد الى فلك زحل ودار معه ثلاثين سنة ، حتى شاهد جميع أحوال الفلك ثم نزل الى الأرض فخبر الناس بعلم النجوم قال الله : «ورفعناه مكانا عليا » ، ا.هـ ولعل هذه الرواية بين الخرافات الاسرائيلية أو الموضوعات النجومية (١) فان الحافظ السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ص ٢٧٤ ج ٤ ساق فى تفسير الآية ما وقف عليه على سعة اطلاعه وكثرة أصوله من الأحاديث النبوية والآثار ما يطول بسطه وليس فى رواية منها أن ادريس عليه السلام رجع الى الأرض بعد رفعه مكانا عليا ، ولا أن رفعه كان لأجل معرفة سر الأفلاك ، وأحاديث المعراج صريحة بأنه فى السماء الرابعة أو السادسة على اختلافها

---

(١) ومن أين كن قوته مدة بقائه والفلاسفة الآخرون يمنعون بقاء الحياة فى الأجواء المرتفعة بل يمنعون وجود أجرام الأفلاك عندهم ثم يقال لهم هل كان رفع ادريس الى ذلك المحل من قبل نفسه أم بأمر الله وارادته ، الأول ممنوع لتعذره على البشر بدون واسطة والثانى ممنوع لأنه يكون من أكبر المعجزات والكرامات كالكرامات التى كانت لمريم العذراء وابنها وأصحاب الكهف وسائر المعجزات ومثل ذلك لا يهمله الكتاب او السنة ثم ان عادة الرسل أن يوحى الله اليهم وحيا او يكلمهم تكليما بما فيه صلاح أحوال العباد والبلاد والمعاد وكان يغنى عن تلك المدة الوحى المتصل بضعة أشهر بل بضعة أيام فيوحى اليه فيها بجميع أحوال الفلك ، ثم أن التاريخ المشهور عند العلماء لم يغفل ذلك وعادة الله مع الرسل ان يرسلهم لارشاد العباد لا لتعليم علم الأزياج والأفلاك وقد حكى القرآن قصص الأنبياء والرسل مع اممهم ولم يحك ماحكته الفلاسفة بل جاء الشرع يذم المنجمين والمنع من تعليم علم النجوم الا ما يرشد الى معرفة الأوقات ونحو ذلك . تأمل وقد تقدمت أبيات المقبلى فى هذا المعنى .

باق كما كان بعد الرفع ، وفى حديث أبى سعيد يرفعه : « ورفعنــاه مكانا عليا » قال فى السماء الرابعة . أخرجه ابن مرويه وصــححه الترمذى من حديث أنس يرفعه . وأخرج ابن المنذر عن عمر مولى غفرة حديثـا مطولا يرفعه فى كيفية صحبته ملك الموت ورؤية النار ودخول الجنة ، واحتجاجه على عدم خروجه منها وفى آخره : فلما قر قرار ادريس فى الجنة وألزمه الله دخولها قبل الخلائق عجت الملائكة الى ربهم : فقالوا ربنا خلقتنا قبل ادريس بكذا ألف سنة ولم نعصك طرفة عين وانما خلقت ادريس منذ أيام قلائل فأدخلته قبلنا ، فأوحى الله اليهم ياملائكتى انمــا خلقتكم لعبــادتى وتسبيحى وذكرى جعلت فيها لذتكم ولم أجعــل لــكم لذة فى مطعم ولا مشرب ولا فى شىء سواها ، وقويتكم عليهــا وجعلت فى الأرض الزينــة والشهوات واللذات والمعــاصى والمحــارم ، وأنه اجتنب ذلك كله من أجلى وآثر رضاى على هواه ، ورضاى ومحبتى على رضــاه ومحبته ، فمن أراد منكم أن يدخل مدخل ادريس فليهبط الى الأرض فليعبدنى بعبادة ادريس ، الحــديث بطوله وفيه قصة هاروت وماروت بطولهــا ، وفى هذا الحديث أن الملائكة تطمع فى دخول الجنة ويرجونها ، وأن ادريس (١) فى الجنة ، وهو كالتفسير لقوله « ورفعناه مكانا عليا » ولم يرجع الى الأرض أصلا ، وربما كانت هذه الرواية التى ذكر فيها رجوعه الى الأرض لتعليم علم الفلك من وضع المتفلسفين الاسلاميين من المنجمين ترويجا لما هم عليه ولم تأت الأنبياء والرسل والشرائع بتفاصيل علم الهيئة انما يشيرون اليها اجمالا ولكن يفصلون حيث يأتون بشرائع وعقائدلاصلاح أمر الدين والدنيا والآخرة.

قال الله تعالى «يسألونك عن الأهلة» ، أى عن سبب زيادتها ونقصانهافأجاب عليهم بخلاف ما يتطلبون وغيــر ما يترقبون تنبيها على أنه الأهم والأولى

---

(١) ووجود الرسول عليه الصلاة والسلام لادريس فى السماء اما لأنه احضر اليها للاتفاق كما احضر الرسل للصلاة بهم اما باعيــانهم واما بأمثالهم وذلك عن أمر الله كما أخذ عليهم الميثاق فى قوله : « ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه » باتفاقهم به مع التكريم له ايمان به وشهادة له بالنبوة والصلاح » واما لأن أحــوال أهل البرزخ وهو مابين الدنيــا والآخرة تختلف الأحوال فيهــا لبثا وانتقــالا والأول أظهر والله اعلم ، وقد اورد صاحب كنز العمال عدة روايات ومنها عن أميــر المؤمنين على رضى الله عنه فى اختلاط علم النجوم والتباسه وقد كان معروفا فى عصر داود ثم دعا على أهله فاختلط عليهم والتبس ، ولهذا قال ما قال فى المنجم كما ترى .

بالسؤال عنه ، وهى الحكمة والغاية المترتبة على ذلك فقال تعالى « قل هى مواقيت للناس والحج » ولم يفتح لهم خوخة الى علم النجوم بل ورد شرعنا بمنعه وتحريمه الا ما يتعلق بأوقات العبادات ومعرفة سائر الأوقات والسنين والحساب . وحكم المنجم مع الاعتقاد فى تأثير النجوم غير خاف على أهل العلم بل المنجمون هم شعبة من الفلاسفة كما تقرر فى علم الكلام على ما فى المواقف وغيرها .

وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه فى نهج البلاغة ، المنجم كالساحر والساحر كالكاهن والكاهن كالكافر ، وللحافظ الهيثمى بحث حسن فى هذا أودعته فى الفتاوى الحديثية وحكمهم مقرر فى مظانه على أن هذا الدليل عليهم لا لهم لأن نزوله وتعليمه علم الفلك بعد رجوعه ، دليل على أن المرفوع الجسد مع الروح كما أن النازل والمعلم كذلك على زعمهم فأين الحجة فى هذا على بقاء النفس بعد مفارقة الجسد فى هذا ، وان كانت الدعوى مسلمة من دليل آخر كما مر ويأتى .

أما الحجج على بقاء النفس بعد مفارقة الجسد فقد قال أرسطو فى كتاب الثالوجيا ربما خلوت بنفسى وخلعت بدنى وصرت كأنى جوهر تجرد بلا بدن فأكون داخلا فى ذاتى خارجا عن جميع الأشياء فأرى ذاتى من الحسن والبهاء ما أبقى له متعجبا هنا ، فاعلم أنى جزء من أجزاء العالم الأعلى الفاضل الشريف . قلت هذا لا يدل على الدعوى لأن خلع النفس عن البدن هنا كناية عن ترك الالتفات الى حظوظ النفس البدنية كما يجرى على ذلك بعض الصوفية وأبدانهم مع الأرواح فى قيد الحياة ولو انفصلت النفس حقيقة لبطل الجسد حقيقة ، فهذه حكاية عن حال من أحوال هذا الحكيم مبنية على أن السعادة للنفوس هو ما ذكر غير السعادة الواردة كتابا وسنة قال : وقال فيثاغورس فى الوصية الذهبية : اذا فعلت ما قلت لك ياديوجانس وفارقت هذا البدن لتكون حينئذ سائحا غير عائد الى الانسانية ولا قابلا للموت اهـ وهذا يقرب من ذاك الطراز عند التأمل ، وكل نفس ذائقة الموت (١) ، قال

---

(١) وهذا اقرب الى ان يكون المراد به فى حالة البرزخ وهى حالة حياة برزخية لا دنيوية ولا اخروية كما مر ويأتى ولى قصيدة ابن القيم النونية كلام حسن فى هذا المعنى .

وقال المسيح عليه السلام للحواريين فى وصية له ، اذا فارقت هذا الهيكل فأنا واقف فى الهواء عن يمنة عرش ربى ، وأنا معكم حيثما ذهبتم (١) فلا تخالفونى حتى تكونوا معى فى ملكوت السماء غدا ، وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأصحابه فى خطبة طويلة « أنا واقف لكم على الصراط وأنكم ستردون على الحوض غدا فأقربكم منى منزلا يوم القيامة من خرج من الدنيا على هيئة ما تركته ، ألا لا تغيروا بعدى ، ألا لا تبدلوا بعدى » .

قال فهذه الأخبار والحكايات كما يقول اخوان الصفاء دليل على بقاء النفس بعد مفارقة الجسد ، وأن الانسان العاقل اذا استبصرت نفسه فى هذه الدنيا وصفت من درن الشهوات والمآثم وزهدت فى الكون هاهنا فانها عند مفارقة الجسد لا يعوقها شىء عن الصعود الى السماء ودخول الجنة والكون هناك . قلت أما بقاء النفس بعد مفارقة الجسد أيام البرزخ فيشهد له الكتاب والسنة أعنى ما ورد فيهما فى نعيم البرزخ وعذابه كما أشرت اليه قريبا ولكنهم يفسرون الجنة والنار بغير ما ورد به الكتاب والسنة واتفقت عليه الرسل وتنزلت به الكتب وأجمعت عليه الأمة بل وأهل الكتاب ، والحديث النبوى صريح فى البعث والحشر لأنهما مستلزمان لورود الحوض فهو حجة عليهم لا لهم ، وكلام عيسى عليه السلام فى أيام البرزخ لقوله اذا فارقت هذا الهيكل ، وقد فارقه عند أهل الكتاب ، أما عندنا فالقرآن صريح بأنهم ماقتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم بل رفعه الله اليه ، ويأتى كلامه صريحا فى دخول العصاة النار أعنى نار جهنم يوم القيامة ، هذا وقد أورد بعض المؤلفين سبع حجج فلسفيةعلى بقاء النفسأو الروحبعدمفارقة الجسدواستقلالها ، والأمر كما قال ، الا أن مراد الفلسفى فى ذلك غير مراد الأنبياء والمؤمنين والشرائع لقولهم بالعقول والنفوس كماسلف ، فالاتفاق(٢) فى الجملة لافىالتفصيل ،

---

(٢) هذه المعية معنوية لا حسية وهى من صفات الربوبية كما قال الله تعالى « وهو معكم أينما كنتم » وحاش المسيح أن يدعى صفات الربوبية الخاصة ، « ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » ، « ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم » .

(٢) محل الاتفاق غير محل الافتراق .

وقد عرفت أن الحديث النبوى لا حجة فيه على مطلوبهم لأن اجتياز الصراط من أحوال ما بعد البعث والحساب ، وأن عيسى رفع قبل أن يفارق هيكله روحه فهو حى بالحياة الأولى ، وعلى الصحيح أنه سيموت بعد نزوله آخر الزمان ، ولهذا فقد استدلوا بالقرآن والسنة وقول الرسول وعيسى بن مريم ، كما استدلوا بقول فيثاغورس وأرسطو على ما أرادوا تقريره من بقاء النفوس بعد مفارقة الأجسام ومثل هذا الجمع بين الأقوال المختلفة دينية وفلسفية ينتظم الشرح الفلسفى السابق للنصوص الدينية المجملة فيما سميناه النمط البدائى لقلة الصنعة العقلية فيه ا.هـ . وقد زاد الهامش تعليقا فى التعريف بأحوال اخوان الصفاء المتقدم ذكرهم والآتى فى النمط الثانى كيلا يغتر مغتر برسائلهم كما تقدم عن الحافظ المحقق ابن تيمية قائلا ان اخوان الصفاء كما يبدو من التعريف بهم فيما يلى وجهوا نظرهم الى جذب الجمهور أكثر من توجيهه الى الخاصة وطبع الجمهور يميل الى السطحية دون التعمق ، والنمط الثانى من نمطى التوفيق وهو نمط التأويل أدق وأعمق من الأول .

(ا) البيئة السياسية لاخوان الصفاء :

فى القرن الرابع الهجرى وان كان السلطان فى مركز الخلافة فى بغداد لبنى بويه الا أنه كان دولة الآخرين فى أطراف المملكة الاسلامية فى الأندلس لبنى أمية وفى افريقية للعبيديين وفى مصر للأخشيديين وفى حلب للحمدانيين وفى الجزيرة الفراتية للشيبانيين وفى عمان والبحرين واليمامة للقرامطة وفى خراسان وما وراء النهر لآل سامان ، مما يدل على أن الأمر والسلطان أصبح مطلوبا لكل واحد من الأفراد ولكل جماعة فى الأمة الاسلامية وعلى أنه فى متناول بعض الأفراد وبعض الجماعات والأسر وعلى أنه لا طاعة لخليفة الا بقدر انتفاع المطيعين من صلتهم بالخلافة وطلب السلطان والرغبة فيه الى هذا الحد من شأنهما التفريق بين أفراد الأسرة الواحدة فضلا عن أن يكون سببا فى انحلال وحدة الأمة المتكونة من عناصر متعددة ومن شأنهما كذلك حمل الناس على التفنن فى الأساليب الموصلة الى السلطان وفى أساليب الايقاع والكيد لمن بيده السلطان والدين كله كان ولم يزل من أشد هذه

الأساليب أثرا لما له من صلة وثيقة فى تحريك العاطفة وبالتالى فى تأليف الأحزاب والجمعيات لغايات ايجابية أو سلبية واخوان الصفاء نشأوا فى هذا الدور وتأثروا ببيئته وفتحوا أعينهم على ابراز المظاهر فيه وجربوا أشد الوسائل فتكا بالخصوم وأقربها فى نيل الغايات وهى التحكك بالدين .

(ب) ظهور تعاليم اخوان الصفاء :

ومما لا ريب فيه أن أواسط القرن الرابع الهجرى كان مسرح النشاط لاخوان الصفا فى بث تعاليمهم التى وصلت اذ ذاك الى مسامع صاحب السلطة فى مقر الخلافة ببغداد سنة ٣٧٣هـ وهو صمصام الدولة المرزبان بن عضد الدولة بن ركن الدولة الحسن بن بويه تولى السلطة فى بغداد فى عهد الطائع من سنة ٣٧٢ الى ٣٧٦ وكان اخوان الصفاء من قبل لايجرؤون على الظهور بتعاليمهم أمام الحكام وولاة الأمر ، وفى هذا القرن أخرجوا دائرة معارفهم وهى رسائلهم وانتشر تداولها فى المكتبات والمجالس .

(ج) من اخوان الصفاء ؟

يقول أبو حيان التوحيدى فى مقابساته ص ٤٥ طبع المطبعة الرحمانية سنة ١٩٢٩ م سألنى الوزير صمصام الدولة فى حدود سنة ٣٧٣ هـ فقال حدثنى عن شىء هو أهم من هذا وأخطر على بالى انى لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولا يريبنى ومذهبا لا عهد لى به وكناية عما لا أحقه واشارة الى ما لا يتضح شىء منه بذكر الحروف وبذكر النقط ويزعم أن الباء لم تنقط من تحت واحدة الالسبب ، والتاء لم تنقط فوق باثنتين الا لعلة والألف لم تهمل الا لغرض وأشباه هذا وأشهد منه فى عرض ذلك دعوى يتعاظم بها فما حديثه وما شأنه وما دخلته فقد بلغنى يا أبا حيان أنك تغشاه وتجلس اليه وتكثر عنده ، ومن طالت عشرته لانسان صدقت خبرته به وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه وخافى مذهبه فقلت أيها الوزير أنت الذى تعرف قبلى قديما وحديثا بالاختبار والاستخدام فقال دع هذا وصفه لى فقلت هناك ذكاء غالب وذهن وقاد ومتسع فى قول النظم والنثر مع الكتابة البارعة فى الحساب والبلاغة وحفظ أيام الناس وسماع المقالات وتبصر فى الآراء

والديانات . قال فعلى هذا ما مذهبه ؟ قلت لاينسب الى شيء ولا يعرف برهط لجيشانه بكل شيء وغليانه بكل باب ولاختلاف مايبدو من بسطته ببيانه ، وسطوته بلسانه وقد أقام بالبصرة زمنا طويلا وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستي والمعروف بالمقدسي وأبو الحسن على بن هارون الزنجاني ، وأبو أحمد المهرجاني ، والعوفي وغيرهم ، فصحبهم وخدمهم ، وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله ، وذلك أنهم قالوا أن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها الا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، ووضعوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها وأفردوا لها فهرسا ، وسموها رسائل اخوان الصفاء وكتموا فيها أسماءهم وبثوها فى الوراقية ووهبوها للناس وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية والحروف المحتملة الطرق المموهة ا.هـ .

ولقد كان الصواب فى عكس ماقالوا ، فان الشريعة المطهرة الحنيفية البيضاء ظاهرة على الدين كله طاهرة من عند الله ورسوله محفوظة فى الصدور والدفاتر محررة منقحة فاذا حدثت مقالات شاذة ليست منها فالصواب غسلها هى ببراهين الكتاب والسنة والفطرة السليمة ، « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم» «فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول » « ذلك خير وأحسن تأويلا » «ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » كيف بمن يحكمون الفلسفة على الشريعة أو يقرنونها بها ، وقد عرفت تفسيرهم للجنة والنار وغيرهما مما سبق ، ولكن حسنوا القول وقالوا ما قالوا وهكذا اعتذار كل مبطل ومبتدع بتحسين القول ترويجا لقبول بدعته .

(د) غرض اخوان الصفا :

الأول : قد يكون اخوان الصفاء اعتقدوا حقا أن الشريعة دنست بأقوال وتأويلات لا تتصل بها وأن حكمة الفلسفة وحدها علاج هذا الطارىء المشين فدرسوا الفلسفة بناء على هذا الاعتقاد ومزجوها بالدين لتحقيق هذه الغاية حتى يصلوا من وراء ذلك الى تطهير أنفسهم والصعود بهـا الى ملكوت السموات ، ولكنهم كتموا أسماءهم عن الناس حتى لا تتسرب الى الحكام خشية أن ينزل بهم العقاب منذ عهد المتوكل ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ الى استقلال بنى بويه بالسلطان فى خلافة المستكفى ٣٣٤ هـ كانـوا يميلون الى تأييد مذاهب الفقهاء وأهل النص ، والاعراض عن المذاهب العقلية مذهب المعتزلة وآراء الفلاسفة ، وقد حرم المتوكل بالفعل الظهور بهذه المذاهب فى المجالس وتداول تعليمها وتعلمها واشتد فى هذا التحريم فاخوان الصفا أرادوا أن يجمعوا بين الاشتغال بالحكمةوعدم التعرض للعقاب كما تقول جماعتهم ج٤ ص ٨٥ — ٨٦ من رسائلهم : اعلم أيها الأخ البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه انا نحن جماعة أصدقاء وأصفياء كرام كنا بتنا مرة فى كهف مدينتنا تتقلب بنا تصاريف الزمان ونوائب الحدثان حتى أشرقت علينا الشمس وجاء وقت المعاد فانتبهنا لما انقضى دور الرقاد ، فاجتمعنا بعد تفرق فى البلاد فى مملكة صاحب الناموس الأكبر ، وشاهدنا مدينتنا الروحانية فهل لك يا أخى أن تبادر وتركب معنا سفينة النجاة التى بناها أبونا نوح عليه السلام فتنجو من طوفان نار الطبيعة قبل أن تأتى السماء بدخان مبين وتسلم من أمواج بحر الهيولى ولا تكون من المغرقين .

الثانى : أنه قد يكون غرضهم الأول الحامل ، أن ينالوا فوزا سياسيا وأن يكونوا لجماعتهم سلطانا زمنيا بين هذه الأحزاب والجماعات والدويلات المختلفة التى تميز بها القرن الرابع الهجرى ، ولضعف السلطة المركزية وقتئذ بسبب تحكيم العناصر الأجنبية وتحكمهم فتكونوا باسم الاصلاح الدينى وألفوا رسائلهم فى تهذيب النفس واصلاح الأخلاق ودعوا الى نشر مذهبهم على أنه المذهب الصحيح الذى جمع بين مبادىء الدين والفلسفة الاغريقية أى جمع بين الوحى والعقل ، وكتموا كذلك أسماءهم لئلا يضطهدهم صاحب

السلطان أو أصحاب السلطان فى البقاع المختلفة . والداعى الى الكتمان هنا أشد ، لأن الولاة والحكام اذا غضبوا لمذهب دينى ففى الواقع لما لهم فى هذا المذهب من منفعة ، لما لهم فيه من سند العصبية وقوة الرابطة الحزبية ويبدو أن غايتهم الخفية والمهمة فى رأيهم هى الحصول على السلطان لأن اصلاحهم للدين وعلاجهم لتطهيره وتصفيته لم يكن اصلاحا يلتئم فى كثير من نقطه مع مبادىء الدين نفسه ولم يكن علاجا ينم عن رغبة التطهير الحقيقية ، ففلسفتهم التى كانوا يميلون اليها كانت فلسفة طبيعية ورياضية والأولى تتعارض بشدة مع وجهة نظر الدين فى شرح العالم ، فعلم الفلك وهو فرع من الفلسفة الطبيعية وكان محببا لنفوس اخوان الصفا تختلف وجهة نظره تماما مع الدين ، فالدين يرى الله والعالم أو الحياة الدنيا والحياة الآخرة الغيبية وعلم النجوم أو علم الأفلاك يرى عالم السموات أى الأفلاك عندهم والأرض فقط ، أى ليس وراءهما عالم آخر عندهم ، وبينما نظرة علم النجوم توحى بتأثير عالم السموات أى الأفلاك كما سبق فى عالم الأرض ، اذا بنظرة الدين تملى بأن الأثر كله لله وعلم الفلك يرى أن الأرض وما فيها من نفوس مرتبط بتصرف القوى السماوية وهى الكواكب ويرى أنها شعاع للنور السماوى وصدى للتآلف السماوى الدائم والفيلسوف الذى ينسب الى عقول الأفلاك ادراكا وارادة يعتبرها نائبة مناب القضاء الالهى ويرجع الى تأثيرها وعملها خير الأرض وشرها ، ويستنتج من أحوال أجسامها ومواقعها الحوادث المقبلة . أما الذى يجعلها عقولا محضة فينسب اليها أحداث الخير جملة فى العالم فقط دون التأثير على الشخص ، وهذا معناه أن الشر فى العالم السفلى من تصرفات الفرد ومنسوب اليه ، ولأن جمعهم بين عناصر دينية من مذاهب مختلفة : من مذاهب المعتزلة والشيعة ومن التوارة والانجيل ومن الزرادشتية والمانوية مع الفلسفة الاغريقية ينم عن أنهم كانوا يميلون الى المذهب العالمى وهو النظر الى كل الآراء الدينية والانسانية بمقياس واحد أكثر من التعبير عن تحيزهم الى دين بعينه يبغون تبسيط عقيدته وتيسير أمره بين أتباعه قلت اذا كان الأمر كما ذكر فقد جمعوا بين المتضاد ، ومزجوا وسووا بين المتناقضة وبين الحق والباطل ،«ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » ،

«وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » «وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله» ، فماذا بعد الحق الا الضلال » ، وكل من خالف أصول الاسلام وقواعد الدين ضلال باجماع الأمة فالحكم لله العلى الكبير ، ولهذا قال ومن نظر فى رسائلهم لا يسعه الا أن يوافق أبا حيان التوحيدى من أن اخوان الصفاء كانوا يدينون بالمعارف الانسانية والديانات كلهـا على السواء يرون أن أنبيـاءهم نوح وابراهيم وسقراط وأفلاطون وزرادشت وعيسى ومحمد وعلى ، فسقراط وعيسى وحواريوه والعلويون فى نظرهم شهداء الايمان بالعمل ، حتى قال فالغاية السياسية واضحة لتكون هدفا لعملهم والمحافظة على كتمان أسمائهم ، وكتمانهم لأسمائهم هو الأمر الذى بسببه يصعب على الباحث أولا تحديد غايتهم على وجه اليقين ، لعدم التمكن حينئذ من دراسة شخصياتهم وبيئاتهم ، ويصعب عليه ثانيا فهم مذهبهم كوحدة عامة تجلى فى رسائلهم ولهذا يجب فى دراسة مذهبهم عدم محاولة التوفيق فيما يبدو فيه من تعارض فى الفكر لأن التعارض حينئذ من خواص الخلط المختلف المصادر ، ويكتفى بدرسه على أنه خليط من مذهب المعتزلة والشيعة وبعض آراء المسـيحية والزرادشتية بالفلسـفة الاغريقية وبالأخص الفلسفة الطبيعية والفيثاغورية ، وربما لا تكون هناك قيمة علمية فى دراسة مذهب اخوان الصفاء لأنهم لم يأتوا بجـديد فى الفكرة كما لم ينجحوا فى التوفيق بين المذاهب المختلفة ، ولكن دراسته على كل حال تعطينا من الناحية التاريخية كيف كان يستغل الدين فى المنافع الشخصية والسياسية ومبلغ قوة العاطفة الدينية عند الشعوب الاسلامية فى هذه المدة ، وأخيرا تعطينا صورة للبحث العلمى حتى قال : على أنه لا يصح اغماط هذه الجماعة حقها فى الفضل على كثرة اطلاعها واستيعابها للمذاهب الفلسفية والآراء الدينية ونشر ذلك كله بأسلوب مبسط وواضح ومفهوم ا.هـ .

فصل

لنعد الى النمط الثاني الذى جناه فلاسفة الاسلام على الدين حرصا على الافادة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فقال :

النمط الثاني : وهو نمط التأويل وهو أدق وأعمق من سابقه والمراد به تأويل الحقائق الدينية بما يتفق مع الآراء الفلسفية أو اخضاع تلك الحقائق لهذه الآراء الفلسفية ، وهذا النوع ان وجد عند الفارابى فوجوده واضح عند ابن سيناء ، ولكنه لايكاديوجدعند اخوان الصفاء ، أما ابن رشدفتوفيقه ليس بين مشاكل الدين ومشاكل الفلسفة الاغريقية بقدر ما بين طبيعة العقل وطبيعة الدين ، أو بين ماتهدف اليه الفلسفة ويهدف اليه الدين : يعنى بل يرى وجوب تناول علم الفلسفة لأنه كالمكمل أو المقوى للدين كأنه لم يدرس « اليوم أكملت لكم دينكم » ، «وأن هذاصراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ولهذا قال فهو يقول فقد تبين من هذا أن النظر فى كتب القدماء واجب بالشرع ، اذ كان مغزاهم فى كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذى حثنا عليه الشرع .

قلت : انما المقصد الذى حثنا عليه الشرع هو معرفة الله بما نصب من الآيات فى العالم العلوى والسفلى ، وقبول ما جاءت به الرسل ، وأما معرفة الطبيعيات والالهيات الفلسفية الكفرية فقد نهانا عنها وأجاب عنها كما أجاب علماء الاسلام الذين درسوا الحقائق وعرفوا الحق من الباطل كما تقدم عن المحقق المقبلى وابن تيمية وشارح الأساس وغيرهم ، كيف وهو يقول : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » ، كيف بمساكن الذين كفروا بربهم ورتبوا العالم . والربوبية ترتيبا جديدا على عقولهم الضالة ونفوا عن الرب صفاته أو أكثرها ، ونفوا المعاد الجسمانى فهم على هذا أعداء الله ، والله يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » وأى ولاية مثل ولاية من يقدم الفلسفة على الشرع أو يسوى بينهما أو يحرف القرآن وقواعد الدين لأجل القواعد الفلسفية ، وها هنا يتلى « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » وكل ضال

ومبتدع لا بد أن يدعم فى وجه العموم شبهة تروج جانب قبول ما هو عليه ، وهذه سنة قديمة فى بنى الانسان ، بل وفى الشيطان ، فانه لما امتنع من السجود لآدم وأبى واستكبر وكان من الكافرين ، نصب له شبها يلوذ بها ، فتارة يقول « أأسجد لمن خلقت طينا » ، وتارة يقول « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » ، رجوعا الى الاعتداد بالعناصر ، فهو أول فاتح لأبواب العنصرية ، وتارة يقول « رب بما أغويتنى » ، وهذه عادة المبطلين قديما وحديثا . « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » ، « وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون » .

واذا كان أنظار الشيطان عدو لبنى آدم لاغوائهم لحكمة الابتداء والتكليف بالجهاد النفسى والبدنى والمالى كما يأتى فان لم يكن كل باطل بتزيينه فأين عمله واضلاله ، والقرآن صريح بذلك كله .

قال ابن رشد : « وان من نهى عن النظر فيها من كان أهلا للنظر فيها ، وهو الذى جمع أمرين : أحدهما ذكاء الفطرة ، والثانى العدالة الشرعية والفضيلة العلمية والخلقية — فقد صد الناس عن الباب الذى دعا الشرع منه الناس الى معرفة الله ، وهو باب النظر المؤدى الى معرفته حق المعرفة وذلك غاية الجهل والبعد عن الله تعالى » .

كذا قال ابن رشد فى كتابه (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ص ٦ طبع مطبعة الشرق الاسلامية ، قلت : وفيه ما تقدم ، والسم فى الدسم ، والعلم الدينى والعدالة يمنعان من علم ينافى الشريعة كما عرفت (١) ومعرفة الله التى شهد بها لنفسه وشهدت بها ملائكته وشهد بها أولو العلم من الأنبياء والمرسلين والصديقين والعلماء الراسخين والشهداء الصالحين — كانت من غير طريقة الفلسفة ، بل الفلسفة تضادها كما سلف ، ولهذا لم تعرف الفلاسفة وأتباعهم رب العزة حق المعرفة ، بل

---

(١) الا من باب قول الشاعر :

عـلمت الشـــر لا للـــ ... شـــر لـــكن لتوقيــــه
ومن لـــم يعـــرف الـــ ... شـــر من الخيـــر يقـــع فيه

فمعرفة العقائد الباطلة لردها ، والجواب عنها من تمام توطيد العقائد الاسلامية الصحيحة كما هو معلوم عند اهل العلم .

شبههم هى التى أثيرت فى فساد وافساد كثير من الفرق ، وقد يقول القائل كلمة حق يراد بها باطل أو تؤدى اليه ، ومنه ما يأتى له وما تقـدم على جلالته ورسوخ قدمه فى فن الفلسفة كابن سيناء والفارابى ، و « كل حزب بما لديهم فرحون » كما يشهد بذلك كتاب الاشارات لابن سـيناء وغيره وكتاب الفصوص وما يتصل به للفارابى .

وفلسفة ابن رشد يأتى التنبيه عليها فى تعداد مؤلفاته الفلسـفية ، الا أنها تشتمل على كتابين خاصين بالفلسفة الاسلامية : الأول فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال والثانى فى الكشف عن منـاهج الأدلة فى عقائد الملة ويليهما الرد والجواب على فلسفة ابن رشد للحافظ ابن تيمية كما يأتى . قال الحافظ المحقق الامام ابن الجوزى فى كتاب صيد الخاطر فى فصل البدع المهلكة ما يلى : رأيت ابليس قد احتال بفنون الحيل على الخلق وآمال أكثرهم عن العلم الشرعى الذى هو مصباح السالك فتركهم يتخبطون فى ظلمات الجهل وشغلهم بأمور الحس ، حتى قال ثم نظر ابليس فى المسلمين قوما فيهم يقظة وفطنة فأراهم أن الوقوف على ظواهر الشريعة حالة يشاركهم فيها العوام فحسن لهم علم الكلام وصاروا يحتجون بقول ابقراط وجالينوس وفيثاغورس وهؤلاء ليسوا بمتشرعين ولا تبعوا نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم انما قالوا بمقتضى ما سولت لهم أنفسهم ، وقد كان السلف اذا نشأ لأحدهم ولد شغلوه بحفظ القرآن والحديث والتفقه فى الدين فيثبت الايمان فى قلبه وقد توانى الناس الآن عن هذا فصار الولد الفطن يتشاغل بعلوم الأوائل والفلسفة وينبذ أحاديث الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ويقول أخبـار احاد ، حتى قال : وانما مذاهبهم السرقة من ابقراط وجالينوس وأفلاطون وأمثالهم وقد استفاد من تبع الفلاسفة أن يرفه نفسه من تعب الصوم والصلاةأى مع ارتكاب المنكرات والمحظورات لعدم الوازع الدينى ومعظمه التصديق بحجج الوعد والوعيد التى يقدحون فيها كما يأتى . وقال فى فصل أين الصراط المستقيم ص ٣١٩ من كتاب صيد الخاطر بعد كلام طويل فى الانحراف من بعض الأمة عنه ما نصه : فالأصوليون يعنى أهل أصول الدين وهو علم الكلام بدليل قوله : تشاغلوا بالكلام وأخذوه من

الفلاسفة وعلماء المنطق الى آخر كلامه . وهو بحث حسن يحسن الوقوف عليه مع الانصاف .

ويقول ابن رشد فى المصدر السابق صفحة ٢٧ : فان النفس مما تخلل هذه الشريعة من الأهواء الفاسدة ، والاعتقادات المحرفة فى غاية الحزن والألم وبخاصة ما عرض لها من ذلك من قبل من ينسب نفسه الى الحكمة ، فان الأذية من الصديق أشد من العدو ، أعنى أن الحكمة هى صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ، فالأذية ممن ينسب اليها أشد الأذية مع ما يقع بينهما من العداوة والبغضاء والمشاجرة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة الخ . قلت فى مواضع مخصوصة وهى مالا تصادم قاطعا ولا تعارض فيها أو مما لايرجع الى الدين والاعتقاد كما عرفت . أما الالهيات الطبيعيات فغالبها الخطأ والضلال البعيد .

وتوفيق المتصوفة — وفى مقدمتهم ابن عربى — بين الدين والفلسفة ، أقرب الى الشرح الرمزى منه الى التأويل حسب عرف اللغة لأنه اذا كان غير المتصوفة من فلاسفة المسلمين ، يجدون فى بعض الأحيان بعدا بين الآراء الفلسفية والآراء الدينية الاسلامية التى يحاولون التوفيق بينها ، فانهم فى كثير من الأحيان يجدون قربا بين النوعين وعلى وجه التخصيص اذا كانت الآراء الفلسفية مستمدة من تعاليم أفلاطون ، أما المذهب الصوفى فأساسه يبعد بعدا شديدا عن أساس الاسلام . يقول جلد زيهر فى كتابه محاضرات فى اتجاهات المسلمين فى تفسير القرآن : ليس من السهل لدى صوفية الاسلام أن يعثروا فى القرآن على فكر المذهب الصوفى وأن يستشهدوا بالكتاب المقدس على نظرتهم فى الدين وفى العالم ، اذ من الصعب تصور فكر دينية يضاد بعضها بعضا وراء الاسلام الأول والمذهب الصوفى فهناك فى الاسلام الفهم المعقول لانفصال الله التام عن العالم وهنا فى المذهب الصوفى اعتقاد حلول الله فى العالم ا.هـ .

وقد أوضح المحقق المقبلى مذهب الصوفية وكثرة بدعه ، وحكم ابن عربى وسائر الحلولية والاتحادية فى العلم الشامخ والأرواح النوافخ بما يطول

فراجعهما ان شئت . وفى ذلك بعض نصوص ابن عربى التى صرح فيها بما يخرجه عن التوحيد والشرائع ، ومن أجلها كفر «علماء الاسلام .

فمحاولة التوفيق اذن بين التصوف والاسلام لابد أن تعتمد على جذب عنيف بين الطرفين ، أو بالأحرى جذب عنيف لنصوص القرآن نحو التصوف وليس من اليسير اذن أن يوجد فى عبارات الدين عن طريق ما يسمى بالدلالة الوضعية وهى الدلالة المتبادرة أى الحقيقة أو ما يعرف بالدلالة الثانوية وهى المجاز ما يعطى أساس التصوف ، ولا شك بعد هذا اذا حملت العبارات الدينية المعانى التصوفية وفسرت تلك بهذه تكون دلالة تلك العبارات على هذه المعانى أشبه بدلالة الرموز على ما جعلت رمزا له ، أو الاشارات على ما اعتبرت له اشارات ، وبعبارة أخرى تكون دلالتها عليها على خلاف العرف العام للغة وعلى غير النمط الجارى فى اطلاق ألفاظها على معانيها وفهم هذه من تلك ، ولكنهم فى سبيل غايتهم ربما لايحفلون برعاية هذا العرف العام للغة ، وربما يتجاوزونه على العكس قصدا ، لأنهم يرون أن معنى القرآن والسنة ليس فيما يتبادر من ألفاظهما بل فيما وراء هذا المتبادر ، كما أن مغزى الوحى الالهى لا يرونه فى مبتذلات هذا المتبادر بل فى الفكر العميقة التى وراءه ، اذ وراء المعنى الظاهر المحسوس للفظ يوجد سر عقلى ، ووراء الظاهر يوجد الباطن ، وجسم الايمان هو تفسير النص ومسكنه كعقل المعنى العميق ، وأين يوجد جسم فيه حياة بغير عقل هكذا يروى عنهم . والفارابى وابن سيناء اذن زعيما النمط الثانى من التوفيق بين الدين والفلسفة ، ولكى تتبين قيمة عملهما العقلى الخاص بهما فى هذا التوفيق وهو أساس تفلسفهما يتحتم عرض مشاكل الفلسفة الاغريقية الالهية قبل أن يتناولها الفارابى وابن سيناء ثم تصوير هذين لها فى ظل محاولة الملاءمة بينهما وبين الاسلام وبالموازنة يتميز عملهما الخاص كما تتحدد القيمة الذاتية له كما يظهر أثرها بالنسبة للاسلام كعقيدة ا.هـ .

واذا لفت النظر الى ما ساقه هنا وما ساقه فى النمط الأول عنهما من تحريف ألفاظ القرآن لمطابقة الفلسفة وخروجها بذلك من اللغة والشرع على ما تقدم فى كلام المحقق ابن تيمية وغيره ، وما يأتى فى الذين حرفوا وغيروا

وبدلوا عرفت قيمة الرجلين بالنسبة الى ماجنياه على الدين والقرآن وان جليا فى غير ذلك .

***

فصـــل

وقد وجدت مقالا حسنا ورد برسالة الاسلام فى العدد الرابع للسنة السادسة التى تصدر عن دار التقـريب بين المذاهب الاسلاميـة بالقاهرة ص ٤١٢ — ٤١٥ تحت عنوان : أثر الفلسفة الاغريقية فى الفكر الاسلامى ، سيق فيه بحثان :

حاصل الأول : فى انتفاع الفكر الاسلامى بالمنطق الاغريقى لأنه كشف عن أمور عقليةمقررةفىالفكر العربى ، الا أنه أبرزها الى قالب الظهور ، وكذلك الحساب والجدل ، ولذلك أدرجوا منه ما أدرجوا فى أصول الفقه، وكان ذلك سببا فى ترجمة بقية أنواع الفلسفة الاغريقية من الهية وأخلاقية ورياضية وطبيعية وانتفع الفكر الاسلامى بالجانب الرياضى أيضا لتربيـة الملكات الذهنية وللتدريبالعقلى على العمومولتنظيم العلوم العربية وضبط قواعدها وحصر الدلالات والامكانيات لأن ذلك كله من الأمور العقلية التى زادها وأبرز كامنها ما ذكر ، هذا ملخص البحث الأول ، وقد تقدم أن اغترار المسلمين بغير العلوم الطبيعية والالهية كان سببا لاغترارهم بادىء بـدء بهذين العلمين حتى كان منهم النظر فعرفوا منافاتهما ومنافرتهما فى الأغلب لوضع الدين وقواعده وشرائعه كما يأتى له ، نعم .

أما البحث الثانى فله المام بما نحن فيه فحسن نقله حرفيا تأكيدا لما سبق وفيه الجـواب على من أنكر على المسلمين من الهنغار والألمان وفرنسـا

الذين لم يزالوا فى نصب الشكوك والشبه أمـام الدين الحنيف ، فقـال لكن بقية جوانب الفكر الاغريقى وهى الالهيات والأخلاق لم يستطع الفكر الاسلامى أن يتأثر بها بحيث تعد مقدمات أو لبنات فى بنائه أو بحيث تمثل حلقة فى تطوره ، وذلك لأن الفكر المنطقى الاغريقى ، وكذا الجانب الرياضى فيه عندما ترجما الى اللغة العربية وجدا ميدانا رحبا خاليا فى تاريخ الفكر الاسلامى ، فلم يكن للاسلام رأى معين فى هذين الجانبين ، يعنى وان تضمنتهما اجمالا القوانين الشرعية بالاشارة الى التفكر واستعمال نظر الفكر والعقل ، والحث على مكارم الأخلاق وكان ذلك من فطر العقول الاجمالية كمطلق الحسن والقبح فى الجملة ، قال فهذا سبب ، وهناك سبب آخر هو أن هذين الجانبين كانا جديدين كل الجدة على العقلية العربية لما لهما من طابع الدقة والضبط ، أى مع موافقة الواقع والنفوس وما فى دفائن العقول . قال أما الجانب الالهى وكذا الجانب الأخلاقى من الفلسفة الاغريقية فبعد ترجمتهما الى اللغة العربية وجد أن الاسلام بتعاليمه فى الالهيات والأخلاق قد سبقهما فى قيادة التوجيه فى الجماعة الاسلامية وفى احتلال المكان الأول فى تفكير المسلمين وايمانهم ، أى لأن الايمان وأركانه وشرائطه تتنافى مع الفكر الفلسفى فى الالهيات ، قال : ولهذا وضع العقل الاسلامى هذين الجانبين موضع النظر والأخذ والرد ، وكان مقياس ردهما ودفعهما هو نفس مقياس الأخذ بهما وقبولهما أى مع اختلاف الوجهتين فى الأخذ والرد كما عرفت من كلام ابن رشد وغيره ، وكما عرفت خطأ من قبلهما مماسلف . قال وكان هذا المقياس هو الدفاع عن الاسلام واذا قيل أن الفكر الاسلامى قد تأثر بالفلسفة الالهية والأخلاقية والاغريقية فذلك على معنى أن هذه الفلسـفة قد أثارت عملا وتفكيرا عقليا لدى المسلمين واسع النطاق يدور مرة حول قبول هذه الفلسفة ومرة أخرى حول رفضها فالذين يعرفون بفلاسفة المسلمين كالفارابى وابن سيناء وابن رشد دار عملهم العقلى حول التدليل على أن الفلسفة الالهية الاغريقية توافق تعاليم الاسلام ، ويلائم بعضها بعضا ، وعلماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة أى والزيدية كما تعـرف ذلك من كتبهم الكلاميـة ، قال وان قبلوا بعض مبادىء الاغريق فى ذلك كمبدأ الجوهر الفرد ومبدأ الوحدة

من كل وجه فى العلة الأولى ، يريد الرب عز وجل الا أن صفتهم العقلية كانت تدور حول بيان أن الفلسفة الالهية الاغريقية والأخلاقية تتعارض مع تعاليم الاسلام ، اما من كل وجه ، أو من بعض الوجوه ، ففكرة قدم العالم وفكرة الفيض أى من العقل الفعال والقول بالطبع فى شأن العلة الأولى والقول بأن العلة الأولى مادة رقيقة على قول الرواقيين والقول بعدم مسئولية الانسان أمامالموجود الأول ، أى الذى يتفرع على حشر الأجسادالذى ينكرونهوالقول بأن الموجود الأول لا يعرف ما يدور فى العالم وبالتالى ليس مريدا للشرفية والكمال ، أى والقول بأن التأثير فى الحوادث اليومية من تصرف العقل الفعال ، والقول بنفى القدرة على ايجاد المعدوم وأمثال هذه الأقوال الكفرية كانت محور المعارضة من جانب ودفع هذه المعارضة من جانب آخر ، ولهذا لم يأت المسلمون فى الهيات الأغريق وأخلاقهم بجديد يعد بناء واستمرارا فى الفكر الاغريقى كما لم يتأثروا بهذا الفكر فى هاتين الناحيتين تأثرا ايجابيا ، بحيث يصور فى نفسه مرحلة تعد لاحقة لما قبلها ومقدمة لما بعدها ولكنمع ذلك يصح أن يقال أن الفكر الاسلامى الفلسفى عندما نقل الى الغرب لم يكن هو نفس الفكر الاغريقى الذى نقل الى المسلمين أولا بل الذى نقل الى الغرب عن المسلمين كما يمثل الفكر الأغريقى فى هذين الجانبين : الالهى والأخلاقى على وجه أخص ، هذا الكفاح الذى طال أمده واتسعت رقعته واشتركت فيه أجيال متاعقبة من علماء المسلمين فى شرق الدولة الاسلامية ومغربها . قال : ولهذا لا أعتبر تعليق أمثال جولدزيهر الهنغارى وهارنسان الألمانى ، وكارادى الفرنسى ، من المستشرقين وأخالفهم الرأى فيما يقولونه ، فهم يذهبون الى أن المسلمين لم يستطيعوا أن يهضموا الفكر الاغريقى ، ولذا لم يكن فيه بناء فى مدارس الأغريق ، ويعللون ذلك بأن العقل العربى يستطيع التقليد والمحاكاة ولكنه لايقدرعلى البناءقال فأنا لا أميل الى اعتبار هذا التعليق اعتبارا علميا من جانب هؤلاءالمستشرقين لأن السبب فى أن العقل الاسلامى لم يأت بجديد فى الفكر الاغريقى الالهى يعد استمرارا فى تطويره ، يرجع الى أن فى الفكر الاغريقى القديم ما يعارض تعاليم الاسلام ، ولهذا اتجه العقل الاسلامى

بعد أن أطلع على الفكر الأغريقى من أول الأمر اما لابراز هذه المعارضة أو محاولة سترها واذا لم يكن السبب هو ضعف العقل الاسلامى عن الانتاج الفكرى ، اذ لو كان العقل الاسلامى ضعيفا أو عقيما عن الانتاج الذهنى لما استطاع الكفاح فى صورة القبول والدفع للمبادىء الاغريقية التى تتعارض مع الاسلام ، ولما استطاع البناء فى جوانب أخرى كالطب والرياضة (١) مثلا فهذا الكفاح هو كفاح عقلى وانتاج عقلى ولكنه لا يعد استمرارا لتفكير سبقه لأنه لم يقم على أساس التسليم بما سبقه والاعتراف به ، حتى قال ان الفلسفة نشأت عن ثورة مفكرى الاغريق ضد أصحاب المعرفة الدينية فى جماعة الاغريق بعد أن سلك هؤلاء فى توجيه المعارف الدينية مسلك الحريص على مصلحته الخاصة ، ولكن باسم الله عز وجل وبما وهبه من العقل الانسانى الذى هو آية الله وحجته فى هذه الأرض ان الفلسفة لذلك تنكر على المشتغل بها أن يتحيز وأن يؤمن مقدما بفكرة معينة فى موضوع يبغى بحثه والحكم عليه . ا.هـ. فيلزم على هذا أن لا تجامع هذه الفلسفة المذكورة الشرائع المعينة والاعتقادات الدينية اذ لا تؤمن الفلسفة بذلك بل هى عبارة عن آراء وأفكار تتجدد مدى الدهر ، والانسان بناء على حرية الفكر فى كل عصر فيتطور بتطور الانسان وأين هذا من الدين وهو وضع الهى يهدى ذوى العقول الى قبول ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا» ، «ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »، «وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ؛ ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » ، « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » وجزى الله علماء الاسلام خير جزاء بما قاموا به من الدفاع عن الدين فى هذا

---

(١) انظر كتاب العلوم عند العرب تاليف قدرى حافظ طوقان ـ طبع فى مصر ـ فقد نقل فيه عن الغربيين وغيرهم حسن الثناء على علماء العرب والاعتراف لهم بانهم فاقوا فى كثير من العلوم التى نقلوها عن الغرب واخترعوا فيها وقد ذكر فيه من نوابغ علماء العرب خمسة وعشرين ممن جلى وعلى فى فنون شتى كالكيمياء والطب والصيدلة وعلم الطبيعة والرياضيات والفلك والجغرافيا وغير ذلك وقد نقل عن نيف ومائة من المصادر العربية بله المصادر الافرنجية وهو كتاب وحيد فى بابه عجيب فى أسلوبه .

المقام ، وكم وكم هذى الفلاسفة والمتفلسفة فى باب المعرفة الحقيقية فلم يقفوا على أكثر من الحيرة ، ومن قبل قلبه الايمان جملة كما جاءت به الكتب السماوية وبلغته الرسل الكرام فهم الذين قال الله فيهم « شهد الله أن لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم » وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه فى خطبة الأشباح التى أجاب بها سائلا سأله أن يصف الله حتى كأنه يراه عيانا فغضب عليه السلام لذلك ثم ساق الخطبة وهى من جلائل خطبه فى التوحيد حتى قال فيها فانظر أيها السائل فما ذلك القرآن من صفته فأتم به واستضىء بنور هدايته وما كلفك الشيطان علمه مما ليس فى الكتاب عليك فرضه ولا فى سنة النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأئمة الهدى أثره قلت وأكثر الفلسفة داخلة تحت هذا الكلام قال : فكل علمه الى الله سبحانه فان ذلك منتهى حق الله عليك ، واعلم أن الراسخين فى العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدود المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين ، قلت وأكثر الفلسفة داخلة تحت هذا الكلام أيضا وما يأتى منه ، وقال : هو القادر الذى اذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوت وتولهت القلوب اليه لتجرى فى كيفية صفاته وغمضت مداخل العقول فى حيث لاتبلغه الصفات لتناول علم ذاته ردعها وهى تجوب مهاوى سدف الغيوب متخلصة اليه سبحانه ، فرجعت اذ جبهت معترفة بأنه لاينال بجور الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته ، الذى ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ، ولا مقدار احتذى عليه من خالق معهود كان قبله ، وأرانا من ملكوت قدرته وعجائب ما نطقت به آثار حكمته واعتراف الحاجة من الخلق الى أن يقيمها بمساك قوته مادلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته ، وظهرت فى البدائع التى أحدثها آثار صنعته وأعلام حكمته

الخ . والفلسفة ومن قفاها تنفى اسناد الحوادث اليه (١) ، وتنفى الحكمة فى فعله لأنها لا تكون الا فى فعل عالم حكيم فاعل بالاختيار وهم ينفون ذلك كما عرفت . وفى كتاب ايثار الحق على الخلق للامام المجتهد المطلق الكبير محمد بن ابراهيم الوزير رحمه الله ص ١٤٨ بحث نفيس فى ذم بعض المتكلمين المقتدين بالفلسفة فى تدقيق البحث حتى عطلوا بعض الصفات وغرقوا فى بحار الحيرة والمحارات بعد كلام طويل ، حتى قال فيه :

ولقد تفاحش جهل أتباع المتكلمين ومقلديهم وغلوا فى الدعاوى غلوا لم يسبقهم اليه غلاة قدمائهم وسباق كبرائهم ، فهذا أبو القاسم البلخى الكعبى امام المعتزلة يقول فى حق العامة هنيئا لهم السلامة ، حتى قال وصنف محمد بن منصور كتاب الجملة والألفة فى النهى عن تكفير (٢) المختلفين فى أصول الدين ، وهو امام التشيع للعترة وحكى أقوالهم وأفعالهم عليهم السلام على ذلك وأنه مذهب من أدرك من المعتزلة كالجعفرين وطول فى ذلك ذكره فى الجامع الكافى فى آخر الجزء السادس ، وهذا العلامة ابن أبى الحديد المعتزلى مع توغله فى علم الكلام يقول :

تاه الأنام بأسرهم فاليوم صاحى القوم عربد
والله ما موسى ولا عيسى المسيح ولا محمد
عرفوا ولا جبريل وهو الى محل القدس يصعد
من كنه ذاتك غير أنك واحد فى الذات سرمد

---

(١) أى كالامطار وانشاء السحاب واحياء الارض بالنبات والحيوان بالنفوس والارواح « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » « وكل شىء عنده بمقدار » .

(٢) ليس المراد التكفير بالتأويل وليس هذا الا فى علماء الاسلام من أهل الحل والعقد . أما من كان من فلاسفة الاسلام فلكل واحد حكم قوله كما يلحقه حكم فعله ولا يمكن الجزم فى الجميع بحكم واحد لكن الانصاف الحكم على كل أحد بقوله بعد تصحيح أن القول قوله اذ لا تكفير ولا تفسيق الا بقاطع فى تعمد مخالفة قاطع أو ما علم من ضرورة الدين كما عرفت . أما التكفير باللازم فقد مرت الاشارة اليه ولعلم يقرب من التكفير كفر التأويل ويمكن أن يقال ان من تواتر ايمانه تواتوا يفيد العلم لايحكم بكفره الا اذا تواتر عنه أنه خالف قاطعا أو ما علم من ضرورة الدين وهذا باب واسع تتابع فيه فى عصرنا كثير مما يرجع الى نفى الذات أو صفة من الصفات أو النبوات ، او الصلوات أو الجنة أو النار أو ان الله يبعث من فى القبور أو نحو ذلك كمن يقول ان القرآن كلام محمد عليه الصلاة والسلام .

عرفـــوا اضـــافات وتقســـ ... ـــيا (١) والحقيقة ليس توجـد
فليخســـأ الحـــكماء عن ... حـــرم له الأمـــلاك مـــجد
من آنت يا رســـطو ومن ... افـــلاط مثـــلك يا مبلـد
ومن ابن مـــسينا حيث قـــ ... ـــرر ما هـــذيت به وشـــيد
هـــل اتـــم الا الفـــرا ... ش رأى السراج وقـــد توقد
فدنـا فأحـــرق نفســـه ... ولو اهتـــدى رشـدا لأبعـد

ثم ساق له الأبيات الرائية المشهورة وهى :

فيـك يا أغلوطـــة الفـــكر ... تـــاه عقلى وانتهى عمـــرى
ســافرت فيك العقـــول فمـــا ... ربحت الا عنـــا الســـفر
رجعت حسرى ومـــا وقفت ... لا عـــلى عـين ولا أثـــر
فلـحى الله الأولى زعمـــوا ... أنـــك المعـــلوم بالنظـــر
كذبـــوا ان الـــذى زعمـــوا ... خـــارج عن قـــوة البشر

وقد تعقبه السيد الامام الكبير محمد بن اسماعيل الأمير رحمه الله فى ايقاظ الفكرة فقال ولا يعجبنى اطلاقه أغلوطة على الله تعالى بل لا أراه جائزا ففى القاموس الأغلوطة بالضم الكلام يغلط فيه ويغالط به ا.هـ . قال ولا يطلق على الله تعالى الا ما ورد به السمع على الصحيح ، وقد يسر الله لى الرد عليه فقلت :

اطـــلاق أغلوطـــة عليـــه كما ... قد قلتـــه لا يصـح فى النظـــر
فليس فى الذكـــر ما ذكـــرت ولا ... روى لنـــا فى الصحيح فى الأثر
لو ســـافرت تلك العقـــول الى ... بحـــر الهـــدى فى ســفائن الفكر
بحـــر كتـــاب الله لا تقلبت ... محليـــة من حـــلاه بالـــدرر
لكنهـــا ســـافرت على طرق ... قـــد حار خريتهـــا عن الســـفر

وقد ساق صاحب الايثار البحث حتى قال وقد ذكر عجز العقول عن

(١) اى ليس تدرك حقيقته ولا يحيطون به علما « ليس كمثلـه شيء » قال امير المؤمنين على كرم الله وجهه وجوده اثبـــاته اى اعتقاد ثبوته ووجوده متصفا بصفات الكمال ، كما قال دليله آياته .

معرفة ذات الرب جل جلاله أمير المؤمنين حيث قال امتنع منهــا أى العقول بها واليها حاكمها ومما قاله الفخر الرازى فى ذلك :

العــلم للرحمــن جـــل جــلاله وســـواه فى جهـــــلاته يتغمغم
ما للتــراب وللعـــلوم وانمـــا يســعى ليعــلم أنه لا يعــلم (١)

وأنشد الشهرستانى فىذلك فىأول كتابه نهايةالاقدام فىعلم الكلام :

لقــد طفت فى تلك المعــاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعـــالم
فــلم أر الا واضــعا كف حائــر عــن ذقن أو قارعــا من نــادم

فهذا فى علماء الاسلام وكلام علماء الكلام ، كيف بالفلاسفة كما أشار الى بعضهم ابن أبى الحديد وفى كلام أمير المؤمنين السابق اثبات الحكمة

* * *

(١) اى ليعلم انه لا يعلم حقيقة الذات اذ لايدرك بالحواس ولا يقاس بالناس كما عرفت *

الفصل السابع

ان الله تعالى عدل حكيم لما تقرر عقلا وسمعا وحسا من ظهور آثار حكمته فى كل جزء من مصنوعاته الذى أعطى كل شيء خلقه فى العالم السفلى والعلوى والكلى والجزئى والدنيوى والأخروى فلا يكون فى قوله خلف ولا كذب ولا فى فعله ظلم ولا سفه و لاعبث ، بل هوالصادق فى الأقوال الحكيم فى جميع الأفعال سواء علمنا وجه حكمته فى ذلك أم جهلنا فنقطع للقواطع المشار اليها الآتى بعضها بأن له حكمة بالغة فيما جهلنا وجه الحكمة فيه ولم نقف عليها لما تقرر أن التعبدى من الأحكام ما جهلنا حكمته لا مالا حكمة فيه ، والحكمة هى من نتائج العلم بل نوع مخصوص من العلم المحيط والملك الدائم والغنى المطلق والحمد المستمر ، لأنه الحميد على أفعاله الجميلة المحمودة الغايات والعواقب ، فاستحق الحمد لله فى السراء والضراء والشدة والرخاء ، ومن جهل حكمة الله وأنها صفة من صفاته الثبوتية ضل وأضل ، واسمه تعالى الحكيم والعدل ثابتان فى الأسماء الحسنى «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » ، «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ماتدعوا فله الأسماء الحسنى وفى رواية ابن ماجة والترمذى والحاكم وابن حبان والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة التصريح بلفظ الحكيم ، وفى رواية لهم غير ابن ماجة العدل ، ومجموع الروايات يشد بعضها بعضا ومن لا يفعل العبث ولا القبيح لعلمه بقبحه واستغنائه عن ذلك (١) ويأمر بالعدل والاحسان فهو عدل قطعا ، ولا حاجة الى التطويل فى هذا « واذا حكمتم بين الناس آن تحكموا بالعدل » «وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا» واتصاف

---

(١) زاد بعضهم ولا يخل بالواجب أى ما يفعله قطعا اما للحكمة فهو وجوب حكمة واما وفاء بالوعد « ومن أصدق من الله قيلا » « ان الله لايخلف الميعاد » « مايبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » وان كان الله منزها عن الدخول تحت حكم الواجب بيد ان هذا فى الواجب التكليفى وهو غير الواجب الحكمى والواجب وفاء بالوعد وان كانت الجنة برحمة الله فخلف الوعد نوع من الكذب يتعالى الله عنه . تأمل .

كلماته بأنها صدق وعدل لاتصافه بالصدق والعدل كاتصاف القرآن بالحكيم والمجيد لاتصافه تعالى بذلك ، وقد ورد اسمه الحكيم فى القرآن معرفا ومنكرا فى نيف وتسعين موضعا ، فله الحكمة البالغة ومعناهافى حقه تعالى العلم بأفضل الأعمال والعمل بمقتضى ذلك العلم فى جميع أفعاله ، قال فى ايثار الحق وعبارة أهل الكلام فى تفسير الحكمة أنها اثبات داع لا لحاجة راجح الى جميع مافعله وأراده وان خفى على خلقه أو على كثير منهم ، والمرجع بهذا الداعى الى علم الله تعالى بالمصالح والغايات الحميدة ا.هـ وهذا هو داعى الحكمة ، أما داعى الحاجة فهو مختص بالمخلوق فقط دون الخالق ، هذا ولامامة صاحب الايثار وقوة باعه وسعة اطلاعه وتوسطه بين جانبى الافراط والتفريط وتمسكه بالراجح عقلا ونقلا رأيت نقل كلامه فى هذه المسألة أو أكثره وان كان قد تكلم عليها الحافظ المحقق ابن القيم وشيخه الحافظ ابن تيمية والمحقق المقبلى والامام الكبير محمد بن اسماعيل الأمير وغيرهم فضلا عن علماء الكلام والأئمة الأعلام من الآل الكرام لأنها ركن شديد فى مسائل التوحيد والكلام وحسن الاعتقاد ، والقول بها أقرب الى قبول النصوص الشرعية من غير تعسف فى التأويل ولا مخالفة للراجح من الدليل وهى فرع أو لازم من فروع التحسين والتقبيح العقليين أو من لوازمهما فمن خالف فى الأصل أو الملزوم خالف فى الفرع أو اللازم ولذلك أفردت بأبواب وفصول فى مؤلفات المذكورين وغيرهم فقال صاحب الايثار رحمه الله ص ١٩٣ فى المهم الثانى من مقاصد الكتاب الكلام فى حكمة الله ثم فى مشيئته ومحبته وفى أفعال العباد وما يتعلق بذلك حتى قال :

ولنبدأ بالقول فى الحكمة لأنها الأساس ، فانها نوع مخصوص من علم الله تعالى بالمنافع والأسرار الخفية والعواقب الحميدة والمصالح الراجحة ، وبها تبرز أفعاله تعالى من القدرة الى الوجود بحسب المشيئة والارادة ، وبذلك يتبين عجز العقول عن مدارك جميع ماله سبحانه وتعالى من الحكمة والكرم والجود فنقول وبالله نستعين وهو حسبنا ونعم الوكيل

المسألة الأولى : فى اثبات حكمة الله تعالى فى جميع أفعاله ، ومعناها هاهنا العلم بأفضل الأعمال والعمل بمقتضى ذلك العلم . قال المحقق الامام

الجلال قوله ومعناها هاهنا العلم الخ . لاشبهة فى أن حكمة الفعل ثمرته المقصودة منه وحكمة الفاعل ايقاعه على وجه تحصل منه تلك الثمـــرة لكن ايقاعه على الوجه المذكور انما يحصل من عالم بحصول مقتضيات تلك الثمرة وبشروطه وانتفاء موانعهفليست الحكمة نفس العلموانما العمل شرط لها ا.هـ ونعم ما قال ، وقال صاحب الايثار مثاله العلم بأن الصدق أولى من الكذب والعدل أولى من الجور والجود أولى من البخل والاحسان أولى من الاساءة أى مع قول الصدق وفعل العدل والجود والاحسان كما عرفت ، قال ولا خلاف فى تسمية هذا الذى ذكرته حكمة أى لاشتماله عليها فى حق الحكماء والعلماء من الخلق ، وانما ادعى بعض الغلاة أن مثل ذلك منها محـــال (١) فى حق الرب عز وجل كما يأتى بيانه وفساده ، وتختلف العبادات عما ذكرنا لفظا والمعنى واحد ، وقد ذكر ابن الأثير فى النهـــاية فى غريب الحديث أن الحكمة العلم بأفضل الأعمال أى مع تطبيقه فى الأفعال والأقوال الخارجية فى الواقع ونفس الأمر ، قال ومنه قوله تعالى : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » فان النبى صلى الله عليه وعلى آله وســـلم لم يـــكن يعلمهم الصـــناعات بالاجماع وانما كان يعلمهم أفضل الأعمال مع أحسن الأخلاق ، وعلى هذا التفسير يمكن حمل قوله تعالى « حكمة بالغة فما تغنى النذر » وقولهتعالى « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه » وقوله تعالى «وما أنزل عليكممن الكتابوالحكمة يعظكم به » «واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » وكذلك قوله تعالى « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشـــاء وهو العزيز الحكيم » وقول عيسى عليه السلام « وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » فانه لا يصح تأويل الحـــكيم فى هاتين الآيتين وغيرهما بالمحكم لعدم المناسبة لما سيأتى ، وعبارة أهل الكلام فى تفسير الحكمة أنها اثبات داع راجح الى جميع ما فعله الله وأراده ، وان خفى على خلقـــه أو كثير منهم ، والمرجع بهذا الداعى الى علم الله تعالى بالمصـــالح والغـــايات الحميدة كما مر قال : وسبب وقوع الخلاف فى ذلك أن قوما ممن أثبت

---

(١) ولعل ذلك يرجع الى الفلسفة لان نفى الحكمة فرع من نفى الفاعل المختار ونفى العلم بالجزئيات ويأتى ايضاح ذلك ، ومر شيء منه .

الحكمة غلوا فى ذلك فأوجبوا معرفة العقول للحكمة بعينها على جهة التفصيل ، فجاءوا بأشياء ركيكة فرد عليهم ذلك طائفة من الأشعرية وغلوا فى الرد وأرادوا حسم مواد الاعتراض بنفى التحسين العقلى ، واستلزم ذلك نفى الحكمة فتجاوزوا الحد فى الرد فوقعوا فى أبعد مما ردوه وأشد، وخير الأمور أوسطها ، والقول بحكمة الله تعالى أوضح من أن يروى عن صحابى أو تابعى أو مسلم سالم من تغيير الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ولذلك يقر به العوام من كل فرقة ويقر به كل من يتلقن خلافه من أتباع غلاة بعض المتكلمين على ما فيهم من الشذوذ وقد اجتهدوا واحتالوا فى تحسين مذهبهم بمجرد عبارات مزخرفة ليس تحتها اثارة من علم ، مثل تسمية الحكمة العلة ، وايهام أن القول بالحكمة يقدح فى كون الله غنيا ، وهذا من أبطل الباطل ، ولو كان ذلك يقدح فى غناه وجب أن يقدح فى غناه وجوب وصفه بكونه عليما قديرا سميعا بصيرا الى سائر أسمائه الحسنى خصوصا كونه تعالى مريدا ، ولزم مذهب الملاحدة يعنى الفلاسفة واتباعهم النافين للصفات ، أما الملاحدة فهم ينفون الذات فضلا عن الصفات ، ولهذا قال وذلك فى نفى جميع أسمائه فكان المعدوم والجماد أغنى الأغنياء على هذا ، وقد تقرر فى قواعد الاسلام نفى التشبيه عن ذات الله وصفاته وأفعاله ، وتقرر ان المراد بنفى التشبيه تعظيم الرب جل وعلا فى ذاته وصفاته وأفعاله ، لا نفى الصفات والأسماء والممادح ، فمن الواجب فى نفى التشبيه عن أفعاله أن تكون أكمل من أفعال المخلوقين من جميع الوجوه لا أنها تكون أخس ولا أنقص فى وجه واحد من الوجوه المحمودة ، ولا ريب ولا شبهة أن قاعدة الكمال فى الأفعال أن يكون صدورها عن الحكمة البالغة فى توجيهها الى المصالح الراجحة والعواقب الحميدة فكلما ظهر ذلك فيها كانت أدل على حكمة فاعلها وعلمه وحسن اختياره ومحامده ، وكلما بعدت عن ذلك كانت أشبه بالآثار الاتفاقية وما يتولد عن العلل الموجبة ، قلت ومذهب الفلاسفة أن أفعال الله أفعال علة (١) موجبة ولا يجوز وصفه بالقادرية

---

(١) اى فى العقل الاول عندهم ثم تفرع التاثير من سائر العقول الى آخرها وكانت التأثيرات بعد ذلك للعقل الآخر كما مر .

والعالمية ونحو ذلك قالوا لأنه لو وصف لتكثر فنفوا القدرة والعلم فضلا عن الحكمة ونفوا داعى الحكمة بزعمهم أن ذلك استكمال بالغير فهذا مرجع من أخذ عنهم نفى الحكمة كما يأتى وكما تقدم ، وقد أشار الى أن نفى الحكمة يتفرع على الأقوال الفلسفية السيد الامام الكبير محمد بن اسماعيل الأمير فى الجواب على الشبهة الثانية من شبه نفاة الحكمة فقال رحمه الله فى ايقاظ الفكرة :

الحجة الثانية ، قالوا ان كان الغرض قديما لزم قدم الفعل لتمام شرائطه ، وان كان حادثا كان ايجاده لغرض وتسلسل ، فساق الجواب حتى قال ثم نقول ثانيا ان هذه الحجة بعينها هى التى أوردت الفلاسفة على القول باستناد العالم الى فاعل مختار ، قالت الفلاسفة لو كان العالم مستندا الى الفاعل المختار فاما أن تجتمع شرائط الايجاد أزلا لزم كون الفعل أزليا ، حتى قال وذلك عود الى مذهب الفلاسفة وهو الوجوب وابطال الفاعل المختار الخ

قال صاحب الايثار بعد قوله وما يتولد عن العلل الموجبة : وأشبهت أفعال الصبيان فى ملاعبهم والمجانين فى خيالاتهم فلا يوجد فى أفعال المخلوقين أخس ولا أنقص من أفعال الصبيان والمجانين لخلوها عن الحكمة مع أنها لم تخل من موافقة شهواتهم ولم تجرد عن كل داع ، فمن نفى عن أفعال الله كل داع وحكمة فقد جعلها من هذه الجهة أنقص قدرا من أفعال الصبيان والمجانين فى ملاعبهم وجنونهم ، وأصل أهل الاسلام تحريم تشبيه أفعال الله بأفعال العقلاء والحكماء فى كمالها وعدم مداناتهم لها فى ذلك لزيادتها فى الكمال فى ذلك وبلوغها فى الزيادة الى منزلة ودرجة لا تبلغها عقول الأذكياء والحكماء كما أن الحيوان البهيمى لا يبلغ بما له من الالهام الى تعرف حكمة الحكماء وتصانيف الأذكياء ومعارف الفطناء ولا يتمكن من معرفة مقدار زيادتهم عليه فكذلك الحكماء لا يعرفون جميع حكمة الله تعالى ولا يستطيعون أن يعرفوا مقدار زيادتها على حكمتهم ، كما وضح فى قصة موسى والخضر عليهما السلام «ولله المثل الأعلى» وكيف تجعل أفعال أحكم الحاكمين أنقص رتبة فى خلوها عن الحكمة وأبعد عنها من مرتبة أفعال الصبيان والمجانين والساهين .

فصل

قال : وانما قلنا أنهم جعلوها أنقص من ذلك لوجهين :

أحدهما : أنهم قطعوا بخلوها كلها عن كل حكمة وداع وسبب ، ومنعوا أن تكون أفعاله كلها أرجح من أضدادها الا فى الأقوال فأوجبوا الصدق فى أقوال الله تعالى ومنعوا ضده وهو الكذب ولزمهم بذلك الموافقة على ثبوت مثل ذلك فى الأفعال اذ لم يفرقوا بين الأفعال والأقوال بحجة بينة ولكن خافوا من تجويز الكذب على الله صريح الكفر ، وانما الأقوال نوع من الأعمال والأفعال ، وقد أجمعت الأمة على دخول الأعمال والاقوال فى الوعد والوعيد على الأعمال ، وفى الصحيح : أن أفضل العمل شهادة أن لا اله الا الله ، وقال الشيخ تقى الدين فى شرح العمدة أنه لا تردد فى دخول الأقوال فى حديث الأعمال بالنيات وأمثال ذلك كثيرة جدا هذا فى النص واللغة والاجماع ، وأما العقل فلا ريب فى تساويهما فى ذلك فما بالهم أوجبوا صيانة الأقوال الربانية من النقائص وأما فى الأفعال الربانية فحكموا بأنه تعالى لو عكس الحكم فى جميع أوامره العادلة المصلحة الحكيمة فى شرائعه وأحكامه فى الدنيا وكذلك فى يوم القيامة أو عذب الأنبياء والأولياء وأهانهم وأخزاهم بذنوب غيرهم ثم أدخل أعداءه وأعداءهم الجنة بحسنات الأنبياء والصالحين وأكرمهم وعظمهم ، ما كان هذا المحال عليه بأبعد من حكمته ومحامده فى العقل والسمع مما هو فاعله سبحانه وتعالى مما تمدح به وسماه حقا وعدلا وحكمة وصوابا وتمدح لذلك بأنه لا معقب لحكمه ولا مبدل لكلماته ، قلت هذا يناقض قولهم فى لزوم الصدق فى الأقوال لأن أولياءه أخبر انهم فى الجنة ولا يظلمون فتيلا ولا يهضمون قطميرا ، وأعداؤه فى النار لا يغاثون حين يصطرخون ، قال رحمه الله قالوا وبأنه اذا بدل آية مكان آية لا يبدلها الا بما هو خير منها أو مثلها فزعموا أن التسوية بين أحكامه وأضدادها هو مقتضى العقول والشرائع لكن الشرائع وردت بالخبر عن وقوع أحد الجائزين المتماثلين فى الحكمة مثل تماثلها فى القدرة بل المتماثلين فى القدرة بلا حكمة عندهم الا الصدق فى الخبر فواجب وحده ، قلت وهذا تناقض لأن صدق الخبر يمنع من تجويز

تبديل وتعكيس أخبار وأحكام الوعد والوعيد ، ولهذا قال « فانا لله وانا اليه راجعون » ان كانت ذهبت العقول فأين الحياء من الله تعالى وكتبه ورسله والمسلمين . ومن العجب ظنهم أن هذا كله جائز عليه فى أفعاله عقلا ، ولا يجوز فى أقواله عقلا أدنى نقص ولا لعب وهو كما قالوا فى الأقوال لكن الصواب صيانة أفعاله كأقواله من الاهمال ، بل اهمال الأفعال من الحكمة أضر وأقبح من اهمال الأقوال ، وكم بين التخليد فى عذاب جهنم بلا ذنب بل بذنب الغير وبين الخلف فى وعد بمثوبة عند جميع العقلاء فمن لم يجز عليه هذا الخلف كيف يجوز عليه ذلك التعسف .

وثانيهما : أنهم جعلوا صدور الأفعال منه تعالى عن حكمة محالا عليه غير ممكن له ولا داخل فى مقدوره كاحالة الأكل والشرب عليه وصدورها عن حكمة غير محال فى حق الصبيان والمجانين والغافلين والنائمين والمفسدين عند الجميع بل يلزمهم أن الله تعالى علوا كبيرا لو عكس الصدق والحق وبعث الكاذبين المفسدين وأيدهم بالمعجزات ما كان أولى من عكس ذلك ولم ينفصلوا عن هذا الالزام بوجه بين ، وانما خرموا قاعدتهم فيه خوفا من صريح الكفر فقال بعضهم انما يمتنع الكذب فى كلام الله تعالى لأنه قديم وهذا قد جوز أن الكذب من حيث هو كذب قبيح لكنه مع ذلك نسب الى الله عدم القدرة عليه فجمع بين تجويزه نقصين نقص الكذب لو دخل فى قدرة الله تعالى ونقص العجز عنه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ولذلك أبطله الرازى بأن القدم يختص بالكلام النفسى لا الأصوات عندهم ؛ وقال الرازى انما يمتنع الكذب على الله تعالى لأنه صفة نقص وصفة النقص لا تجوز على الله تعالى وهذا كلام صحيح لكن كون الكذب صفة نقص اعتراف بالتحسين والتقبيح وثبوت الحكمة عقلا ، واذا وقع الاجماع على أن الكذب صفة نقص وعلى أنه انما امتنع على الله لكونه صفة نقص فكذلك تعذيب الأنبياء بذنوب أعدائهم واثابة أعدائهم بحسناتهم فى يوم القيامة ويوم الدين والحق والعدل ، فانه محال على الله عقلا وسمعا من الجهة التى استحال عليه الكذب منها ومن زعم أن بينهما فرقا فى النقص على العدل الحكيم فقد أبطل والله يحب الانصاف ، على

أن بعثة الرسل الصادقين دون الكذابين من محسنات الأفعال التى نازعوا فيها وليست من صدق الأقوال الذى أوجبوه ، فلزمهم تجويز بعثة الكذابين وتأييدهم بالمعجزات ، ولما قرر هذا بعض أئمة المعقولات منهم لم ينفصل عنه الا بالزام خصومهم مثله (١) وترك ذلك كذلك غنيمة باردة للزنادقة والملاحدة متى وقفوا عليه أو ظفروا به والله المستعان ، وقد أجمعت الأمة وعلم من الدين ضرورة أن الله تعالى تمدح بأنه الملك الحميد والى هذين الاسمين الشريفين ترجع متفرقات أسمائه الحسنى ، فما كان منها يقتضى كمال العزة والقدرة والجبروت والاستقلال والجلال دخل فى اسم الملك وعاد اليه ، وما كان منها يقتضى الجود والرحمة واللطف والصدق والعدل وكشف الضر وأمثال ذلك من المادح دخل فى اسم الحميد وعاد اليه ، وربما عبر عنهما بما رادفهما أو أحدهما مثل قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أهل الثناء والمجد ، وقوله انك حميد مجيد ، فان المجد هو الملك والثناء هو الحمد فمن الناس من نظر الى اسم الملك فعظمه ووفاه حقه بالنظر الى معارف البشر ، وقصر فى اسم الحميد ومعناه ، بنفى الحكمة عن أفعاله كلها ، كما أن من الناس من عكس فبالغ فى اسم الحميد وقصر فى تعظيم ملكه وقدرته وعزته ، فلم يجعل له قدرة على اللطف بعبد واحد من جميع عباده والعصاة كما سيأتى فى مسألة المشيئة ، وجميع أهل الاسلام العارفين جمعوا بين تعظيم هذين الاسمين الشريفين ووفوا كل واحد منهما حقه على حسب قوى البشر فى ذلك .

قال : ومما قلته فى ذلك فى الاجادة :

فمن قاصد تعظيمه لو رعى له ... من الجبروت الحق عز التعاظم
ومن قاصد تعظيمه لو رعى له ... محامد ممدوح بأحكم حاكم
وحافظ كل العارفين عليهما ... وهذا الصراط المستقيم لقائم

بيان ذلك أن اسم الملك يقتضى تفرده بالخلق والأمر والعزة وعلم الغيوب والقدرة على كل شىء ثم ان الكمال الأعظم فى ذلك كله يقتضى نفوذ

(١) لم يصرح باسم هذا الامام فى المعقولات ولا ذكر كلامه فى هذا الالزام ولا أشار الى معناه من أين لزم هذا اللازم أهل التحسين القائلين بالحكمة فينظر فى ذلك .

المشيئة وسبق القضاء من غير جبر كيلا يفوت عليه سبحانه مراد ، واسمه الحميد يقتضى كمال الحمد والعدل والحكمة والفضل والصدق والجود والثناء والتسبيح والتقديس له ثم ان الكمال الأعظم فى ذلك كله يقتضى أوفر نصيب لأفعاله الحميدة وأحكامه العادلة من التنزيه عن اللعب والعبث والخلو عن الحكمة والمساواة بينها وبين أضدادها وهذا مما لا شبهة فيه ، ولذلك نص عليه كثير من أئمة الآثار بل من علماء الكلام الذين ربما اتهمهم خصومهم أنهم من نفاة الحكمة وأنا أورد من ذلك اليسير على قدر هذا المختصر ، ثم ذكر منهم تسعة عشر رجلا أو عشرين ، وساق أسماءهم وأقوالهم على اختلاف مذاهبهم : وهم ابن الحاجب وحكى عليه الاجماع ، والرازى وان تردد كلامه ، والغزالى وسعد الدين الزنجانى والذهبى وحكاه عن عكرمة والخطابى والدميرى وابن الأثير وابن كثير والنووى وأبو حنيفة وابن العربى المالكى فى شرح الترمذى وابن جرير وابن بطال فى شرح البخارى والواحدى وابن الجوزى وابن القيم وشيخه ابن تيمية والزركشى وأبو الخطاب من الحنابلة ، وغالبهم شافعية ثم قال فهؤلاء سبعة عشر بتقديم المهملة وبعدها موحدة وهم أكثر ، ولعله أسقط الرازى لاضطراب كلامه وعكرمة لخروجه عن أهل المذاهب ودخوله فيما يأتى قال وهم من أكابر الأشعرية وأهل الكلام وأهل السنن والآثار من المتأخرين دع عنك قدماء السلف الذين صانهم الله وصان أزمنتهم عن البدع فلو ادعى مدع اجماع المتأخرين مع المتقدمين من المسلمين على ذلك لما بعد عن الصواب ، أما القدماء من الصحابة والتابعين فقد علم ضرورة أنهم لم يتأولوا اسم الله الحكيم وأما المتأخرون ، فأما طوائف الفقهاء وأهل الأثر والشيعة والمعتزلة على كثرة فرقهم فقد اتفقوا على ذلك ، وأما أهل الأثر فقد تقدم نقله عنهم وأما طوائف الفقهاء فقد نقله عنهم ابن الحاجب عموما وادعى اجماعهم الخ وقد يتوصل بشبه نفاة الحكمة الى نفى المعاد الجسمانى من غلبت عليه الفلسفة وتقديم الآراء والأوهام أمام الشرع ونصب شرك الاستبعاد والتشكيك وتحديق أفكار الاعتراض والانتقاد كما يأتى ، فلذلك أوسعت النقل فيها لأنها من أهم المسائل الدينية كما عرفت ، وقد أطال صاحب الايثار

رحمه‌الله وأطال في‌ذكر الأدلة على‌ذلك‌مع التحويل على العواصم ، فقال فيه ص ٢٠٤ .

***

فصل

في ذكر الأدلة على ذلك ، واعلم أن هذه المسـألة الجليلة وان كانت جلية فقد أحوج أهل اللجاج والتمسك بالمتشابهات الى التطويل ، لما يتفرع عنها وينبني عليها من القواعد وقد بسطت الأدلة عليها في العواصم ، ولكن لابد من التبرك بذكر طرف صالح غير المشهور في علم الكلام يدفع الله به في نحور المخالفين .

فمن ذلك ماورد في تعليل‌خلق السموات والأرض كقوله : «وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » وقال تعالى : « أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى » وفي هذه الآية الكريمة دلالة على أن الفكرة العقلية الصحيحة تثمر المعرفة بحكمة الله والقطع على تنزيه الله من العبث واللعب كما أن الأدلة الشرعية جاءت بذلك وذلك واضح في قوله تعالى « أولم‌يتفكروا في أنفسهم» فهي حجة على اثبات التحسين العقلي كقوله تعالى «أم تأمرهم أحلامهم‌بهذا» وقال تعالى «وما خلقناالسماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » وقال تعالى « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمـر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » الى غير ذلك ، وبوب البخاري بابا في ذلك فقال في التوحيد والرد على‌الجهمية : باب‌قول الله عز وجل « وهو الذي‌خلق السموات‌والأرض بالحق » ثم روى حديث ابن عباس كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يدعو من الليل ، وذكر دعاءه وفيه : أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق ، وذلك من البخاري اشارة الى مذهب أهل السنة في اثبات الحكمة .

ومن ذلك ما ورد في تعليل العذاب بالأعمال والاستحقاق مثل قوله تعالى « جزاء بما كانوا يعملون » (١) وهو أصرح وأكثر وأشهر من أن يذكر بل هو من المعلومات من ضرورة الدين .

وكذلك جاء التعليل في الأحكام كقوله تعالى : « من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل » الآية قال وقد ذكرت في العواصم أكثر من مائة آية من كتب الله مما تقشعر الجلود لمخالفة آية واحدة منها وانما اقتصرت على ما هنالك خوفا من الاملال وقد ذكر ابن قيم الجوزيه في الجواب الكافي أن في ذلك قدر ألف آية من كتاب الله ذكره في فائدة العمل مع القدر في ترتيب الأشياء على الأسباب في حكمة الله تعالى .

ومن ذلك قول نوح عليه السلام « ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » فان لفظة أحكم هنا مبالغة في الحكمة التي هذا موضعها لما في كلامه من التلطف بتنزيه الله عن الخلف في الميعاد ، ولا يصح أن يكون أحكم هنا مبالغة في الأحكام اذ لا مناسبة في ذلك بهذا المقام ، ولذلك كان الجواب على نوح عليه السلام بأنه عمل غير صالح ، فبينت له الحكمة على التعيين لتقرير اعتقاده الجبلي لها فكشف له بها أن الوعد الذي سبق له متعلق بأهله الصالحين ، وقد روى أن الوجه في اشتباه ذلك على نوح أن ابنه كان منافقا وكان علم نفاقه من علم الغيب الذي يختص الله به ولو كان عدم صلاحه بأمر بين لم يخف ذلك عليه وهذا وجه جيد والله أعلم .

ومن ذلك قوله تعالى : «أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون » .

ومن ذلك قوله تعالى حاكيا عن الأشقياء : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » وقوله تعالى في غير آية « أفلا يعقلون ، وأنتم تعلمون » فانها وأمثالها تدل على معرفتهم بعقولهم قبح ما هم عليه وبطلانه معا اذ لو عرفوا بطلانه بها دون قبحه لم تقم الحجة عليهم ، وانما أرسلت الرسل لقطع عذرهم لكيلا يقولوا ما حكى تعالى عنهم « لولا أرسلت الينا

---

(١) بل صرح أهل الكفر بأن عذابهم بالحق ، قال الله تعالى : « ولو ترى اذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وقال « ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله » .

رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » « أو تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين » وذلك لزيادة الأعذار لأنه لا أحد أحب اليه العذر من الله تعالى لا لأنه لا حجة عليهم قبل الرسل أصلا ولذلك صح عند أهل السنة أن تقوم حجة الله بالخلق الأول فى عالم الذر على ما سيأتى ، وذلك قبل الرسل ولم يختلفوا فى صحته وانما اختلفوا فى وقوعه .

ومن ذلك سؤال الملائكة عن وجه الحكمة فى خلق آدم وذريته ولولا اعتقادهم للقطع بالحكمة ما استغربوا ذلك ولا سألوا عنه ولذلك كان الجواب عليهم بقوله تعالى : « انى أعلم مالا تعلمون » ولم يقل انى يصدر منى ما يفعل المفسدون ونحو ذلك .

وأوضح من هذا كله ما جرى بين موسى والخضر عليهما السلام فانه مناد نداء صريحا على اشتمال أفعال الله أى وأوامره على المصالح والغايات المحمودة ، ولولا اعتقادهما لذلك ما استنكر موسى ولا أجاب الخضر بوجوه الحكمة الراجعة الى المصالح ولا قنع موسى بذلك الجواب ، والخصم يعتقد أن المفسدة البينة الفساد فى البداية والنهاية الخالية عن الحكمة والمصلحة باطنا وظاهرا جائزة على الله تعالى بل مساوية للمصلحة البينة الصلاح باطنا وظاهرا . قلت وهذا مبنى على الجبر المحض أو يؤول اليه ، ويرجع فى الحقيقة الى الفلسفة المانعة من الاختيار فضلا عن الحكمة والعلم بالجزئيات والمتغيرات. قال بل لايجوز أن يعلل شىء من أفعاله بحكمة عند الخصم بل يجب القطع بخلوها عن ذلك ، بل يجب القطع بأن ذلك هو الأولى فى ممادح الرب تعالى حتى صرحوا بتأويل اسمه الحكيم بمعنى المحكم لخلق المخلوقات لا سواه ، لا ان له فى ذلك الأحكام حكمة البتة ، فاعتبروا ياأولى الألباب والأبصار ، قال ولو كان الأمر كذلك لم يقع منه الأحكام لأنه لا يكون أولى به من عدمه ، وان لم يكن أولى به فلايكون أكثر وقوعا فى مخلوقاته ، بل لو كان كذلك لارتفع التحسين والتقبيح فى الشرع ولم يكن الأمر بالشىء أولى به من النهى عنه ولا العكس ، لأن الممكن لا يترجح وجوده على عدمه الا بمرجح ولا مرجح فى ذلك كله الا داعى الحكمة والعلم بفضل بعض الأمور على بعض ، ثم انا

قد علمنا أن الشيطان محكم لأسباب فساده وتزيينه ووسواسه وغـروره وأمانيه أشد الأحكام مع أنه فى غاية القبح لخلوه عن الحكمة .

وكذلك المشركون احكموا حربهم وسبهم للأنبياء ، وقالوا فى ذلك القصائد المحكمة وانما قبح ذلك كله وسخف قائله لخـروجه عن الحكمة ، فكيف يرد اسم الحكيم الى مثل ذلك ، وقد نقل تفسير الحكيم بالمحكم من لم يفهم هذه الغاية من شراح الأسماء الحسنى حتى نقله البغوى فى تفسيره ومصنف سلاح المؤمن ، وأما ابن الأثير فى النهاية فنقل التفسيرين معا ، وأما الغزالى فى المقصد الأسنى فانه اتقى فيه من المخالفين بغير شك لأنه صرح بمخالفتهم فى شرح الرحمن الرحيم ، لكنه تلطف فى اخفاء المخالفة على الأكثرين بكونه جعلها فى الموضع الذى لم يشتهر فيه الخلاف بينهم وبين خصومهم وهو تعظيم رحمة الله تعالى وسـعتها ، وقد أشـار الى مخالفة الأكثرين للحق فى خطبة هذا الكتاب ، بل صرح بذلك . وأيضا كل مقدور ممكن الوجود والبقاء على العدم ولا يترجح أحد الممكنين الا بمرجح ولا مرجح الا الداعى أى داعى الحكمة . وأيضا فيلزم أن لا يحتاج المتشابه الى تأويل .

ومن ذلك أنه يتعذر على من نفى حكمة الله تعالى أن يقطع على صدقه سبحانه وصدق رسله الكرام عليهم السلام كما تقدمت الاشارة اليه . قلت وهذا من لوازم المذهب الفلسفى كما عرفت قال وهذا مبسوط فى كتب الكلام ولا يصح لهم عنه جواب الا بما يلزمهم معه ثبـوت الحكمـة فى الأفعـال والأقوال معا كما تقدم .

ومن ذلك أنهم اما أن يحسـنوا نفى الحكمة بغير حجـة أو لا يحسنوه الا بحجة وان حسنوه بغير حجة أكذبهم نحو قوله تعالى : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صـادقين » وان لم يحسنوه الا بحجـة اعترفوا بالتحسين العقلى .

ومن ذلك انهم اعترفوا بأن العقل يعرف الحق من الباطل ، فيقال لهم فاذا تقرر ذلك فالمعلوم فى الفطر ترجيح الحق على الباطل بعمومه فى الأفعال كالأقوال ، والله يحب الانصاف ، ثم أورد صاحب الايثار بعض ما اغتروا به

من الشبه والمتشابه الذى أداهم الى ارتكاب ما ارتكبه المتفلسفة تبعا للفلاسفة والملاحدة فى هذا الباب الذى كان سببا لضـلال كثير من بنى الانسان ، وسألخص منه مالابد منه فقال :

***

فصـل

فى الجـواب عمـا اغتروا به فى ذلك ، فمن ذلك أنه ورد فى السمع ما يتوهم الجهـال منـه أن الله تعالى يريد الشر المحض لكـونه شرا لا لحكمة فيه ولا غاية محمودة ، وهذه هى معظم ما جرأهم على ذلك بل ليس لهم كبير شىء سواها ، وهى شبهة الملاحدة التى يصولون بها على السفهاء الأحلام والضعفاء العقول وذلك مثل آلام الأطفال والبهائم وعذاب الآخرة الدائم ، والجواب عن ذلك يتضح بذكر أمور .

الأول : ان الاستقباح الذى يوجد فى العقول لذلك ، انما هو بالنسبة الى من لا يعلم تأويلها تفصيلا ولا جملة ، لكن الله تعالى قد أعلمنا جملة أن لها تأويلا لا يعلمه سواه وهو الصحيح ، فاذن ذلك الاستقباح الموجود فى عقول البشر صحيح بالنظر الى علومهم القاصرة وعقولهم الحـائرة ، لكن الراكن اليه غفل عن كون ما أنكر صدر عمـن ثبتت حكمته وثبت عدله واستبداده بعلم الغيوب والحكم ، وأنه تعالى يعلم مالا نعلم من الغيـوب والحكم وقد أخبرنا فى كلامه أن للمتشابه تأويلا لا يعلمـه الا هو ، ولو كان ما تشابه علينا حسنا فى عقولنا لم يحتج الى تأويل ولو لم تكن أفعاله موقوفة على الحكمة لم يرد بذلك التنزيل بل ورد السمع بما يدل على أن الله فعل ذلك للابتلاء ، كما قال تعالى فى تحويل القبلة : «وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » الى قوله «وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله » وفى هذا يقول : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » وكذلك قوله تعالى : «قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون » فليحذر العاقل ذلك كل الحذر فان طباع الخلق واحدة الا ما سلم الله تعالى ، فعلى هذا يكون الايمان به أفضل الايمان بل

هو محك أهل اليقين والاحسان ، ويكون الخوف على المرتابين بسببه من مكر الله خوفا عظيما ،ولذلك خص الله الراسخين بالاستعاذة من الزيغ بعد ذكر ايمانهم بالمتشابه كأن ذكره ذكرهم ذلك فليطلب العاقل من طبعه اللجوج ونفسه الجاهلة المهلة اليسيرة حتى ينكشف فى الآخرة ذلك التأويل كما انكشف لموسى عليه السلام تأويل الخضر بعد القطع على بطلان ما أنكره موسى ،الا ترى أنك اذا رأيت رجلا مطيقا يضرب ولدا ضعيفا ضربا مؤلما أنه أول ما يسبق الى طبعك رحمة الصغير والانكار على الكبير حتى تعلم أن الكبير والد ذلك المضروب وأنه ساع فى صلاحه وهو خبير به ، فيزول عنك ما كان سبق الى طبعك ، قال وقد جود الشيخ مختار المعتزلى هذا الوجه فى كتابه المجتبى، وفى البحث السادس من مسألة الارادة تمام لهذا فيه تقرير ورود السمع بأن لله تعالى فى جزاء الأشقياء حجتين حجة ظاهرة وهى العمل وحجة خفية وهى الحكمة الباعثة على الجزاء دون العفو ثم ان تأويل الخضر لموسى عليهم السلام دل على أن تأويل المتشابه يرجع الى رده الى المحكم الذى تحسنه العقول ولا تنكره وهو جلب المنافع والمصالح ودفع المضار والمفاسد ، ويدل على لزوم هذا فى التأويل أنه لو ورد بخلافه كان متشابها آخر يحتاج الى التأويل ولم يستحق اسم التأويل وهذه حجة قاطعة ولله الحمد .

واعلم أن الطبع فى هذه المسألة غالب بقوته على من لم يعارضه بتذكر كمال الربوبية ونقص العبودية ويتضرع الى الله فى امداده بهدايته ألا ترى الى قوله تعالى بعد ذكره لتحويل القبلة « وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله » نسأل الله هدايته وألا يكلنا الى أنفسنا طرفة عين .

الوجه الثانى : أن يتذكر الانسان ما يعلمه من نفسه من شدة الجهل وقلة العلم وتردده فى الأمور وحيرته فى أشياء سهلة ورجوعه عما كان عليه مرارا ووجدانه للشىء بعد الطلب الشديد الطويل واليأس من وجدانه ، فان علم الانسان بأحوال نفسه ضرورى وهو حجة عليه كما قال تعالى : « بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » وقد وصفه ربه العليم الخبير بأنه ظلوم جهول فى كتابه الحق ، ويعلم من التجربة المستمرة ومن قصة موسى والخضر التفاوت العظيم بين الخلق فى البلادة والذكاء ومعرفة الدقائق

وخفيات الحكم ومحكمات الآراء وحدس عواقب الأمور ، قلت الا أن قصة الخضر مع موسى عن وحى لقوله «ومافعلته عن أمرى» ولكن يظهر ذلك فى قصة داود وسليمان اذ يحكمان فى الحـرث ، كما يأتى قريبا ، قال فكيف التفاوت بين الخلق وخالقهم سبحانه وتعالى ، ولو وهب الله لبعض خلقه نصف علمه سبحانه لجاز أن يكون ذلك التأويل فى النصف الآخر ، كيف وهو القائل : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وقد صح فى حديث ابن عباس أن الخضر قال لموسى أى وقد رأيا عصفورا أخذ من البحر بمنقاره ما علمى وعلمك وعلم جميع الخلائق فى علم الله الا مثل ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر ، والفرق بين هذين الوجهين ان الأول مبنى على تسـليم صحة الانكار فى المتشابهات لكن بالنسبة الى عقولنا ومعارفنا والثانى راجع الى كسر الانسان عجبه بنفسه وذكائه فان الاعتراض على الله انما ينشأ من ذلك .

الوجه الثالث : وهو القالع لآثار هذه الوساوس أن يعلم الانسان أنه ما زال الاختلاف بين أهل الفطن والعلوم من المسلمين فيما بينهم والفلاسفة فيما بينهم أى فضلا عمـا بينهم وبين المسلمين ، ولذلك كانوا مسعر حـرب الاختلاف فى المسائل الكلامية أو جلها أو أجلها . قال وهكذا جرى الاختلاف بين سائر الخلائق حتى حكى الله تعالى الاختلاف اليسير الذى لا يضر عن الملائكة وبعض (١) الأنبيـاء عليهم السلام فقال تعالى حـكاية عن رسوله « ما كان لى من علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون » وحكى ما جرى بين داود وسليمان عليهما السلام من الاختلاف فى حكم الغنم اذ نفشت فى زرع القوم الى قوله « ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما » وحكى ما جرى بين موسى وهارون عليهما السلام حتى قال هارون لموسى « لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى » وقال ، فلا تشمت بى الأعداء ، وثبت فى الحديث اختصام ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فى حكم الذى قتل مائة نفس ثم تاب وبعث الله ملكا يحكم بينهم فحكم لملائكة الرحمة ، وثبت أيضا محاجة آدم وموسى فى

---

(١) بل بين الله عز وجل وبين الملائكة لما قال لهم « انى جاعل فى الأرض خليفة » وتأتى الاشارة الى ذلك ، ولكنه اختلاف صورى ، ولهذا لما انكشفت لهم بعض الوجوه من حكم خلق آدم واستخلافه «قالوا سبحانك لا علم لنا الا ماعلمتنا انك أنت العليم الحكيم » فأقروا واعترفوا وسجلوا على أنفسهم بالجهل فيما لم يعلمهم الله واعترفوا لله بالحكمة والعلم ، فكان سؤالهم سؤال استفسار عن وجه الحكمة لا سؤال اعتراض ومخالفة .

الخروج من الجنة لا فى المعصية كما يظنه كثير من الناس كما سيأتى فى موضعه ان شاء الله ، فصار مجموع ذلك دليلا قاطعا على أن العادة قد استمرت على وجوب الاختلاف فى الأحكام عند التفاصيل فى العلم والحكمة وذلك يوجب استقباح العالم لبعض أفعال الأعلم على قدر ما بينهما من التفاوت فأولى وأحرى أن يوجب استقباح الجاهل لبعض أفعال الأعلم ، ولما كان التفاوت بين علم المخلوقين وعلم خالقهم عز وجل لا يقدر بمقدار ولا يتوهم بقياس ، وجب أن يكون بينهم فى التحسين والتقبيح لتفاصيل الأحكام أعظم الاختلاف وجوبا عاديا يستحيل خلافه حتى لو قدرنا ما لا يتقدر من موافقتهم لجميع أحكام الله تعالى على جهة التفصيل لكان هذا مجاراة عظمى لعقول جميع العقلاء والأذكياء بل محالا ممتنعا (١) فى معارف الفطناء والعلماء ولكان ذلك الاتفاق أعظم شبهة قادحة فى زيادة علم الله عليهم ، ومن أدق المتشابه المحير لفطنائهم ، فلما جاء السمع بالمتشابه عليهم على القاعدة المألوفة والعادة المعروفة فى أن الأعلم اذا تميز شيئا قليلا من أجناسه وأشباهه لم يكن بد من أن يأتى بما لا يعرفون ويفعل مالا يألفون ويستحسن بعض ما يستقبحون حتى قال :

الوجه الرابع : تدبر كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ألا ترى الى قوله تعالى «ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزا حكيما » فعقب ذكر هذا العذاب العظيم بذكر موجبه من عزته وحكمته التى هى تأويل المتشابه وكذلك قوله تعالى «وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم » وكذلك قول عيسى عليه السلام «وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم» ولا يخفى مافى تأويل الحكيم بالمحكم هنا من التعسف الباطل ، ومافى التأويل من غير موجب من فتح أبواب البدع ، والمجاهل ، وفى هذه الآيات وأمثالها نكتة لطيفة فى جمعه بين العزة والحكمة ، وذلك أن اجتماعهما عزيز فى المخلوقين فان أهل العزة فى ملوك الدنيا يغلب عليهم

(١) اى امتناعا عاديا مسندا بالتجارب المتعددة فيفيد العلم .

التعسف فى الأحكام فبين مخالفته فى ذلك فان عظيم عزته لم يبطل لطيف حكمته ورحمته سبحان من له الكمال المطلق والمجد المحقق . وبعد فان اثبات حكمة الله تعالى معلوم فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بين لا يدفع ، مكشوف لا يتقنع مدحا وثناء كما اشتملت عليه النصوص القرآنية والأسماء الحسنى وأسئلة وجوابات ، كما تبين فى قصة الملائكة وما أجيب عليهم به ، عرفت فيه ما اتفق عليه العقلاء من تقبيح الشر المحض الذى لا خير فيه ولا فى عواقبه وغاياته دون الشر المراد لأجل الخير وذلك بين فى اظهار الله تعالى لهم صلاح آدم عليه السلام وعلمه وتقدمه فى القرب من الله تعالى ألا تراه سبحانه وتعالى يقول لهم بعد بيان ذلك لهم « ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » فبين لهم أن خلقا فيهم مثل هذا العبد الصالح والنبى المكلم المقرب المستلخف المعلم لا يحكم عليه بأنه شر محض لا حكمة فيه ولا خير يقصد به ، وأنه لا نكارة فى شر يكون للخير كالصدف للدرر والتراب للتبر والفصاد للعافية والقصاص للحياة وأمثال ذلك مما هو صحيح شهير فى حكمة الحكماء وعقول الفطناء ، ولذلك قيل ان العالم كالشجرة وأهل الخير منهم كالثمرة من تلك الشجرة وهو أحد الوجوه فى تفسير قول الله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » أى ليعبدنى العابدون منهم ، وقد جاء نحو ذلك فى حديث الخليل عليه السلام حين جعل يدعو على من رآه يعصى الله تعالى فأوحى الله اليه يا ابراهيم دع عبادى فان مصيره منى احدى ثلاث اما أن يتوب فأتوب عليه ، واما أن يستغفرنى فأغفر له ، واما أن أخرج من صلبه من يعبدنى ، رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد وعزاه الى الطبرانى فى الأوسط وفى اسناده مقال فثبت أن الانسان ما يؤتى فى توهمه نفى حكمة الله الا من جهة جهله لقدر علمه وقدر علم الله تعالى ، وانما كره علم الكلام لما يؤدى اليه الخوض فيه من المحارات ومخالفة الضرورات أو المشهورات ، وساق كلاما نظما ونثرا (١) مطولا ، حتى قال وقد أفردت مسألة الحكمة فى مصنفات

---

(١) ومنه قوله الا يرى أن المتكلمين لما توغلوا فى هذه المباحث أدى ذلك طائفة منهم الى القدح فى الحكمة وطائفة الى القدح فى القدرة على هداية العصاة وطائفة الى القدح فى دوام العذاب ورجحت كل طائفة تأويلها .. الخ .

حافلة : منها لابن تيمية ، ومنها لتلميذه شمس الدين ابن قيم الجوزية، ومنها للذهبى ، ومنهـا للمحقق المقبلى فى العلم الشـامخ ومنها للامام الكبير محمد بن اسماعيل الأمير فى ايقاظ الفكرة كمـا تقـدمت الاشـارة الى ذلك قال فمن أحب الاستقصاء فى المباحث وقف عليها ونظر فيها هنالك والله الموفق . ويأتى فى الارادة بضعة عشر وجها مما غالبه منصوص من الحكم الربانية فى خلق الأشقياء وكان هذا الموضع يليق بها فلتنظر هنالك فى البحث السادس من مباحث الارادة فهـذا المعظم المهم ما خدشت به الملاحدة فى الاسلام والمبتدعة فى حكمة الملك الحميد الحكيم العلام الخ وسيأتى بقية كلامه هنا .

***

فصـل

وقد أحببت نقل الوجوه التى أشار اليها هنا لتعلقها بحكمة الله كمـا قال وهى من ص ٢٧٨ من الكتاب الى ص ٢٨٨ لنفاسة هذا المبحث وكثرة السؤال عنه قديما وحديثا ، وقد تكررت المذاكرة فيه مرارا فقال رحمه الله.

البحث السادس : فى ذكر الفـائدة فى التكليف بالأعمـال مع سبق الأقدار ، وقد يذكر هذا جوابا على من قدح فى صحة أحاديث الأقدار من المبتدعة ، فيقال الفائدة فى العمل مع القدر مثل الفائدة (١) فى العمل مع سبق العمل اذ كل منهما غير مزيل لقدرة العبد ولا مؤثرة فيها ولو كان شىء من ذلك يؤثر فيها لما تعلق جميع ذلك بأفعال الله تعالى وهو متعلق بهـا وهى اختيارية بالنص والاجماع ألا ترى الى قوله تعالى « كان على ربك حتمـا مقضيا » وأنه سبحانه قد علم وقت وقوع ذلك بعينه وهو موصوف بالقدرة على تقديمه وتأخيره بل على تركه لكنه لا يترك ، وقد قال الرازى ان القول بأن سبق العلم والقدر ينفى الاختيار يستلزم ذلك فى حق الله تعالى وذلك

---

(١) ومثل الفائدة فى الارشاد الى التداوى والامر بذلك وقال الرسول عليه الصلاة والسلام لمن سأله عن ذلك هل تدفع الرقى عن قدر الله فقال هى من قدر الله وقال تعالى « ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها » ومع ذلك قال الرسول فتداووا بعد قوله مامن داء الا وله دواء علمه من علمه وجهله من جهله الحديث .

يؤدى الى رفع أثر القدرة والى أن تقع الأشياء بالعلم دون القدرة فينقلب العلم قدرة وذلك محال ، وقد يذكر هذا على سبيل التقوية للايمان الجملى بحكمة الله ، وقد ذكرت فى ذلك وجوه كثيرة بسطتها فى العـواصم ، ثم ساق كلاما جيدا وأطال لا غنية للمطلع عن الاطلاع عليه حتى قال ، فنقول بقدر ما وهب الله لنا من ذلك أن الله تعالى خلق الأشياء لحكم كثيرة شاهدة له سبحانه بالنزاهة من الظلم واللعب والعبث بل شاهدة له سبحانه بالحكمة البالغة والنعمة السـابغة والحجة الدامغة فمن قال ان الله تعـالى ما خلق الأشقياء الا لعمل القبائح فى الدنيا وللعذاب فى الآخرة أو كانت عبارته توهم ذلك فما أصاب الحق ولا أحسن الترجمة من الكتاب والسنة . ومن أراد اصابة الحق فى ذلك تتبع متفرقات الحكمة المنصوصة بألفاظها وأداها بها والمعقولة بمعانيها وجمعها بل جمع ما يسر الله له منها فانه لا يمكن لبشر الاحاطة بجميعها ، قال رحمه الله والذى حضرنى منها سبعة أمور تفصيلية لفظية ومعنوية وأمر جملى يعمها .

أما الأمر الجملى : فما تقرر بالبراهين الجمة سمعا وعقلا من حكمة الله تعالى كما قال للملائكة « انى أعلم ما لا تعلمون » أى حتى قالوا بعد أن رأوا حكمة الله فى آدم وما علمه الله « سبحانك لا علم لنا الا ماعلمتنا انك أنت العليم الحكيم » ، وقال فى هذا المعنى « أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين » ، « أيحسب الانسان أن يترك سدى » (١) .

وأما التفصيلية : فانها وان رجعت فى المعنى الى أقل من ذلك العدد فقد أديت ما أمكننى تأديته بلفظه عسى أن أنال الدعوة النبـوية لمن أدى ما سمع كما سمع من الأحاديث الثابتة فى ذلك .

الأول : خلق الله الأشقياء لعبادته بالنظـر الى أوامره اجماعا ونصا وبالنظر الى محبته للخير من حيث هو خير على الصحيح كما مر فى اثبات الحكمة ، وقد أوضحت هذا فى العواصم فى تفسير قوله تعالى « وما خلقت

---

(١) وقال تعالى « أعنده علم الغيب فهو يرى » وقال « أم عندهم الغيب فهم يكتبـون » « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » ، « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » وأسرار الحكم المخفية من علم الغيب .

الجن والانس الا ليعبدون » ا.هـ. وقال المحقق المقبلى فى العلم الشامخ فى الكلام على الآية ص ٢٥ ولا شك أن العبادة حق ثابت فى نفس الأمر لا باختيار مختار فان الله أهل لأن يعبد لصفات الكمال الأزلية الأبدية ، والمخلوق المفاد منه تعالى ذاته وصفاته ، أهل لأن يعبد ولهذا اتفق الخواص على أن هذه هى الدرجة العليا فى العبادة وهى عبادة الأحرار ، وقد أطال فى تقرير ذلك ، يعنى فاللام فى الآية للتعليل والعبادة حكمة راجحة يصح أن تكون علة لخلق الجن والانس فضلا عن سائر الحكم التى لا تحصى فى ذلك كما تقدم . قال صاحب الايثار .

الثانى : للابتلاء بالنظر الى حكمته كما يظهر من قوله تعالى « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » كما مر فى الحكمة فى العمل مع القدر .

الثالث : لما يوجب عليهم شكره من احسانه اليهم بعظيم نعمه وسوابغ مواهبه بالنظر الى تكليفهم بشكر نعمته ، وقد ذكر غير واحد من الأئمة الأذكياء أن فرار الحيوانات والطيور من المضار والموت وحرصها على الحياة من أعظم الأدلة على عظم النعمة بها وعلى وجوب الشكر عليها ثم نعمة العافية والتمكين من الخبر والمعارف باكمال العقول والأسماع والأبصار والأيدى والبنية السوية الصحيحة والأنفاس والأرزاق الجارية .

الرابع : لما شاء مطلقا بالنظر الى عزة ملكه وعظيم سلطانه وقاهر قدرته لا يسأل عما يفعل لبالغ حكمته .

الخامس : لما لم يحط بجميعه الا هو سبحانه وتعالى بالنظر الى واسع علمه ورحمته .

السادس : للعذاب المستحق بكفر نعمته وجحد حجته بالنظر الى علمه واختياره وقدرته وقضائه وكتابته .

السابع : للحكمة المرجحة فيهم لعقابه على عفوه وعدله على فضله الراجعة بعدله الى فضله التى هى تأويل المتشابه وهو الخير المقصود بما ظهر للعقلاء من ارادة وقوع ما قبلها من المتشابه وهو الشرور التى لا يعلم فيها خير ان سلم وقوع ذلك وهذا النوع السابع هو بالنظر الى حكمته ومنتهى متعلق

ارادته ومشيئته الذى هو المراد الأول وهو تأويل المتشابه الذى لا يعلمه الا هو على المختار كما سبق بيـــانه ودليله فى مقدمات هـــذا المختصر وزادت المعتزلة على هذه الأمور السبعة ثلاثة انفردت بها دون أهل السنة .

أحدها : تعريض الأشقياء لدرك ثوابه العظيم وسكون جنات النعيم فان التعريض لذلك نعمة وان لم يقبلوها كما ورد فى حديث رواه البخارى عن أبى هـــريرة « كل أمتى يدخلون الجنـــة الا من أبى قالوا ومن يأبى ذلك يارسول الله ؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى » .

ثانيهما : ارادة وقوع الطـــاعة منهم باختيـــارهم لظاهر قـــوله تعالى « وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون » ومنعت هذين الأشعرية وغيرهم .

ثالثها : مصلحة الخوف ، لأن العقلاء اذا علموا أن الله مايخلق الا سعيدا غير معذب تجرأوا على الفساد والفسوق ذكـــرته البغدادية منهم وما هو بالضعيف ولا بالمخالف للقواعد فقد نص الله تعـــالى على أن بسط الرزق مفسدة للعباد فكيف برفع الخوف والأمان من التبعات فى الدارين ، حتى قال ومما جاء فى السنة من حكمة الله تعالى فى خلق الكافرين فى الدنيا ونفع المسلمين بهم ، ما رواه النسائى من حديث سلمة بن نفيل السكونى الكندى قال : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقيل أزال الناس الخيل ووضعوا السلاح وقالوا لا جهاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها فأقبل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بوجهه وقال : كذبوا الآن جاء القتال ولا تزال من أمتى أمة يقاتلون على الحق ويزيغ الله قلوب أقوام منهم حتى تقوم الساعة وحتى يأتى وعد الله ، الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة . الحديث . قال المزى فى اطرافه رواه النسائى فى السير وفى الخيل باسنادين الى أبى علقمة والوليد بن عبد الرحمن الجرشى وكلاهما عن جبير بن نفيل عن سلمة قلت واسناد النسائى جيد قوى ، ورواه أحمد بن حنبل فى المسند بطريق أخرى الى الوليد بن عبد الرحمن فصح الحديث ولله الحمد والمنة ويشهد لذلك من كتاب الله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا

من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا » وما استأثر الله بعلمه فى ذلك من الحكم والعنايات الحميدة أكثر وأعظم ، والله أعز وأجل وأعلم ا.هـ .

***

فصـــل

يناسب ما تقدم ويؤكده من كلام المحقق المقبلى فى الأبحـاث المسددة وما علق عليه للتتميم ، قال رحمه الله : حديث « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » أخرجه أحمد ومسلم أى وأبو داود والترمذى من حديث أبى هريرة . كثيرا مايسأل عن هذا الحديث ويستشكل وليس فيه من الاشكال شىء وذلك أن حاصل هذا السؤال يعود الى سؤال لم خلق الله من علم أنه يكون من أهل النار أو لم خلق الله من علم أنه يكفر ويموت كافرا ونحو ذلك . والجواب الشامل قوله تعالى « ولا يزالون مختلفين الامن رحم ربك ولذلك خلقهم » مع قوله تعالى « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحســن عملا » ونحوها كثير ، وحديث «كنت كنزا مخيفا فأردت أن أعرف » وان كان ضعيفا أو موضوعا لكن ليس معناه ببعيد (١) والحاصل بضدها تتبين الأشياء فلولا مقابلة الطاعة والمعصية والثواب والعقاب والكامل فيهما والناقص كالأنبياء والفراعنة ومن دون ذلك ونحو ذلك مما لايحصى للمتيقظ المؤهل للادراك لولا ذلك لما كان هذا الشأن والنبأ العظيم ، ولذا أكثرت الآيات والحجج المؤكدة لبيان هذا الشأن حتى صار رأى عين ونطق به عتاة الثقلين ، قال أمية بن أبى الصلت :

* لم تخلق الســماء والنجوم *

* والشمس معهــا قمر قيوم *

* الا لأمــر شـــأنه عظيــم *

---

(١) تقدم الحديث فى كلام الحافظ ابن تيمية (أوائل الفصل الخامس) .

فلو عمد سبحانه الى خلق من علم منه الطاعة التى لا معصية معها البتة أو هداهم كذلك أو خلقهم فى الجنة على الحال الذى يكون عليه أهل الجنة فى الآخرة لم تتميز مراتبهم ولا ظهرت أبهة الملك العظيم ولا ظهر فيهم مقتضى الغفران والرحمة والكرم وسائر صفات الفضل ، ولا الانصاف بالعدل للمظلوم من الظالم حتى للجماء من ذوات القرون وكذلك الجبروت والانتقام وشدة العذاب ، فان شدته لا يكاد يحتملها عقل الا بالتسليم ، أى مع تجديد جلودهم وتوسيع أجسامهم تقريبا الى العقول ، قال «ليذوقوا العذاب» ، ولكنها قد دلت الأدلة على أن عظم المعصى لا تدركه العقول الا على جهة التسليم ، كما أن صفات جزاء الثواب دلت على سعة الفضل والرحمة ونحوهما كذلك ، فالذى أنكر عقله خلق الكافر قد أنكر أن يدل الله على صفاته وأسمائه الحسنى . قال ومما قلت فى ذلك من قصيدة وعظية :

فيغفر الذنب عنهم من مراحمه   لكى يحقق غفارا ومغفورا
كذا الصفات جميعا فاشغلن بها   قلبا تصر ناره من سرها نورا

هذا مما يظهر لنا من الحكم ولا نسبة لعلمنا أو حكمتنا الى ما عند ربك « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم » والذى عليه المعتزلة فى جواب ذلك بناء على أن وجه خلق الخلق نفعهم النفع الخاص أعنى الثواب المترتب على التكليف ان قالوا قد أمكن تمكن الكافر من هذا الغرض وعدل عنه باختياره . وأقول لا شك أن الاختيار حجة على العبد اذ يقال للعاصى : لم تعذب الا بما اخترته لكنه يبقى له على زعمهم أن يقول يا رب ان كان لا غرض فى خلقى الا نفعى وقد علمت أنى لا أنتفع فلم خلقتنى ألحكمة أخرى أو حكم فأنت الحكيم العليم ، أم لهذه الحكمة الفائتة ، فاعتبار ما لا يكون ولو باختيارى لم يدرك عقلى الذى خلقته وحججتنى به ان هذا يليق بالحكيم ، أما على ما ذكرناه فيقول له البارى سبحانه لى حكم فى خلقك ليست محصورة على نفعك وقد مكنتك من الخير والشر فاخترت الشر وخلقى لك مع كون هذه

صفتك مع أنى أقمت عليك الحجة بالتمكين وعرضتك لنعــم عظيمة من الثواب ولمزايا جليلة هى عبادتى التى تتشرف بها وغير ذلك مما لا يســعه عقلك فخلقى لك مع ذلك فيه من الحكم الواضحة التى يدركها عقلك ولو لم يكن من الحجج عليك الا ادراك عقلك أنى حكيم مع عدم حصر حكمتى فيما توهمته من النفع لكان عليك الاستسلام وترك السؤال الناشىء عن جهل الحكمة ، اذا عرفت هذا تحقق لك أن حاصر الحكمة فى النفع على العبــد ، عليه هذا الايراد الذى يدركه كل عقل سليم ومن يهدى الصراط المستقيم « الا من أتى الله بقلب سليم» ، ولذاوصف الرحمن به الخليل فكل قلب سواه عليل متنكب سواء السبيل فكن عبدا سلما ان طمعت أن تكون فى الخير علما ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، ا.هـ كلام المحقــق المقبلى ، ومنتهى القول أن لله حكما وأسرارا فى الدنيا والآخرة لا يحيط بها الا هو ومن ذلك عمارة الكون فى هذه الدنيا ألا ترى الى الكفار والملحدين وأهل الكتاب والجاحدين فى عصرنا وما قاموا به من المصــالح والمصانع والآلات والأدوات والمخترعات والقوات والمصنوعات لتمكينهم وتمهيلهم « أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء » ، فيدخل فى هذا العموم ما رأيت وسمعت وبذلك ينتفع المسلمون باكتساب تلك القوات والمعدات اعتدادا للدفاع عن الدين الحنيف والوطن ، وفى الحديث النبوى المتفق عليه « ان الله ليؤيد هذاالدين بالرجل الفاجر » ، وتفصيل ذلك لايدخل تحت مقدور البشر انما القصد ذكر بعض ذلك ليدل على الباقى اجمالا والايمان الصحيح بحكمة الله اجمــالا فى كل ما جهلنا وجه حكمته ، ولمــا أنكرت الفلاسفة المتفلسفون علمه بالجزئيات والمتغيرات وأضافوا أفعاله من الحوادث اليومية الى باب الأسباب والمسببات لم يؤمنوا بالجنة والنار والآخرة تفصيلا ولا اجمالا ، لأن تفصيل ذلك ولو مع الاجمال انما يرجع الى الشرائع وهم بمعزل عنها ولذلك أنكروا المعاد الجسمانى جهلا بأسرار الحكم الالهية ، ومن جهل شيئا عابه ، «واذلم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم» وانما حظهم علوم الدنيا ولكن أكثر الناس لايعلمون « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» «ذلك مبلغهم من العلم» وفى الحديث النبوى

« ان من العلم لجهلا » ، وان كان فى اسناده مقال فمعناه غير بعيد والواقع كاشف وشهيد (١) .

***

فصل

وقال المحقق المقبلى فى العلم الشامخ ص ٢٢٨ فى حكاية غرائب الأشعرى ومبادئه التى استبد بها ، وسبب رجوعه عن الاعتزال بعد كلام طويل : وان شئت زيادة تحقيق فى حقيقة معرفته ، فانظر ما يحكى فى سبب رجوعه عن الاعتزال لأنه كان ربيب أبى على الجبائى قال ابن السبكى انه كان اماما فى المعتزلة تخرج على الجبائى فكان صاحب مناظرته لأن الجبائى كان صاحب قلم ولم تكن له قوة المناظرة ، قال ثم أن الأشعرى رأى النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثلاث مرات يقول له يا على انصر المذاهب المروية عنى فقعد فى بيته خمسة عشر يوما وخرج الى الناس وارتقى المنبر وأخبرهم بهذه المذاهب ، فليت شعرى من روى هذه المذاهب التى حكيناها عنه من الأمة عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم وما زال السبكى يقول ان الأشعرى لم يخترع قولا انما هى السنة . فيالها من شهادة ، وحكوا فى سبب رجوعه أنه سأل أبا على الجبائى يوما وقال ثلاثة اخوة مات أحدهم يستحق الجنة وأحدهم يستحق النار والثالث قبل التكليف فيقول الصغير فى القيامة حين يرى منزلة المكلف المؤمن : يا رب لو أحييتنى وكلفتنى حتى أبلغ مبلغ أخى المؤمن ، قال فيقول الله لو تركت عصيت وكنت من أهل النار ، قال فيصرخ آخوهما من النار يارب لو قبضتنى صغيرا فأسلم من العذاب فماذا يكون جواب الله سبحانه عليه ؟ قالوا فعند ذلك وقف حمار الشيخ على القنطرة فرجع الأشعرى عن الاعتزال وأجد فى مناقضته بقية عمره . قال

---

(١) قال الله عز رجل « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » .

وقال الله حكاية عن قارون « انما أوتيته على علم » أى علم الكيمياء فقوله ان من العلم لجهلا ، ان ثبت معناه اما أن يكون الجهل المركب وهو العلم بالشىء على خلاف ما هو عليه فى الواقع أو يكون بعض العلم الدنيوى سببا للجهل بالعلم الشرعى والأخروى وهذا واقع كما علمت .

فهذه الحكاية هوس ، وأدنى المعتزلة فضلا عن شيخهم يقول من جواب الله على الصغير التكليف فضلى أتفضل به على من أشاء ، كما كان جواب الله على أهل الكتاب فى حديث تفضيل هذه الأمة ، وهذا جواب على أصل المعتزلة لأن التكليف تفضل عندالبصرية ومنهم أبو على وغيره ، ومن قال منهم وهم البغدادية ان التكليف واجب فهو عندهم وجوب جود لا يعترض على تاركه وأيضا فهو مصلحة ويشترط فى كل مصلحة خلوها عن المفسدة ولو كانت المفسدة فى غيرذلك المكلفعندهمكماأن ذلككله مشهورمن مذاهبهم.وعلى الجملة فالاعتراض على الله ساقط اجماعا ، أما عندهم ، فلان الاعتراض مطلقا انما يكون لمخالفة ما ينبغى فى نفس الأمر وهذا لا معنى له عند الأشعرى انما معناه فينا ان خالفنا القادر الذى جعل مخالفته علامة عقوبته لا لأنه منعم علينا متفضل حقيق بأن يمتثل أمره ، فان هذا معنى التحسين الذى نفوه ولكن لخوف ضرره الذى نصب الوعيد علامة له فكلنا عبد العصا ، وأما عند المعتزلة فلأن الله سبحانه حكيم واجب الحكمة فكل جزئى ندخله فى الكلية ان عرفنا الحكمة فيه علما أو ظنا ففضل من الله والا فنحن فى سعة ورددناه الى حكمة أحكم الحاكمين وعلم أرحم الراحمين فكيف يتمشى الاعتراض ، أما عند الأشاعرة فلأنه كالاعتراض على الجبابرة الذين لا يعرفون غير السيف والنطع ، وأما عند المعتزلة فلأنه من اعتراض الجاهلين على أحكم الحاكمين ، فهذا مما ينادى على سقوط الأشعرى معرفة وعقلا ، وما زالت هذه الخرافة مسطرة فى الكثير من كتبهم والعجب ممن يدعى بحجة الاسلام الغزالى فانها ما زالت هذه الخرافة سيفا بيده وان كانت شبيهة بأنظاره فانها وان اتسعت فغثها أكثر من سمينها وباطلها أغلب لحقها ، لا سيما مع المعتزلة فما أكثر مجازفته ويجىء الآخر يقلدالأول حتىكثر البهت وقل المتورع ،فان كان ولابد لك من قبول النقل فعليك بالفخر الرازى بعد أن تعرف كيفية مجاريه فانه أيضا مما أوقع المعتزلة وغيره فى الغلط عليه كثيرا اهـ .

وقد أورد هذه الحكاية الامام الكبير محمد بن اسماعيل الأمير رحمه الله صاحب ايقاظ الفكرة فيها لبيان فسادها فساق نحو ما تقدم حتى قال ثم قوله ، ان الله تعالى يقول ، لو كبرت لكفرت ودخلت النار ، من التقول على

الله ، وما يدريه أن الله تعالى يقول كذلك « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا » لا يقال وكذا الجواب الآخر وهو قوله : ذلك فضلى لأنا نقول قد دل على ذلك جوابه على أهل الكتاب فى تفضيل هذه الأمة ثم لو كانت هذه هى العلة فى اماتته صغيرا لصاح أهل النار والأشقياء هلا أمتنا صغارا ، ولصاح المؤمنون هلا جعلتنا أنبياء ورسلا ، ولصاح الرسل هلا سويت بيننا ، وكذلك الملائكة ، ولصاحت الطيور والوحوش والدواب هلا خلقتنا وأكرمتنا وجعلتنا من بنى آدم ، وكذلك الأيام تقول هلا جعلتنا كيوم عرفة ، والليالى تقول هلا جعلتنا كليلة القدر ، وبالجملة فيجرى فى أفراد العالم وجزئياته من الجواهر والأعراض ، ولا ينتهى ذلك الى حد ولا يقف على مقدار الا والاعتراض فيه قائم والسؤال وارد ، وهذه هى مسألة خلق الأشقياء بعينها ا.هـ . وقد أورد هذه المناظرة الحافظ العلامة ابن القيم فى شفاء العليل وآخر الباب الثالث والعشرين فى استيفاء شبه النافين للحكمة والتعليل وذكر الأجوبة عنها ، وهو من أجل الأبواب أطال فيه الكلام وأوسع من ايراد الشبه والجواب عنها ، وعليه فى بعض العبارات مناقشات عند التأمل وهو فى عدة كراريس من ص ٢٠٦ الى ص ٢٦٨ طبع المطبعة الحسينية المصرية ، ولله دره فلقد شفا العليل وقرر الحكمة والتعليل عقلا وسمعا بأقوم دليل ، حتى قال والمقصود من هذه المناظرة وان أبطلت قول هؤلاء يعنى القائلين بوجوب الأصلح من المعتزلة ، وقد تقدم جواب المحقق المقبلى على مقتضى مذهبهم ، قال فانها لا تبطل حكمة الله التى اختص بها دون خلقه وطوى بساط الاحاطة بها عنهم ولم يطلعهم منها الا على ما نسبته الى ما خفى عنهم كقطرة من بحار الدنيا ، فكم لله سبحانه من حكمة فى ذلك الذى اخترمه صغيرا ، وحكمة فى الذى مدله فى العمر حتى بلغ وأسلم ، وحكمة فى ابقائه للآخر حتى بلغ وكفر ، ولو كان كل من علم الله أنه اذا بلغ يكفر يخترمه صغيرا لتعطل الجهاد الذى هو سنام الدين وسعادة الشهداء والصالحين ، وتعطلت العبودية به التى يحبها الله ويرضاها ، ولم يكن هناك معارض وكان الناس أمة واحدة ولم تظهر آياته وعجائبه فى الأمم ووقائعه وأيامه فى أعدائه واقامة الحجج وجدال أهل الباطل بما يدحض شبههم وينصر الحق ويظهره على الباطل الى أضعاف

أضعاف ذلك من الحكم التى لا يحصيها الا الله ، والله سبحانه يحب ظهور أسمائه وصفاته فى الخليقة من كونه غفارا شديد العقاب جبارا حليما شكورا مثيبا معاقبا مذلا محبا للايمان وأهله كارها للكفر والفسوق والعصيان كما كرهها المؤمنين ، « وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان » « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » فلو اخترم كل من علم أنه يكفر اذا بلغ لفات ذلك وأضعافه من الحكم ، وفواته مناف لكمال تلك الأسماء والصفات واقتضائها لظهور آثارها فى الخارج فى الدنيا أو الآخرة أو فيهما معا ، وقد تقدم بسط ذلك أتم من هذا . ا.هـ .

***

فصـــل

وقد رأيت نقل بعض ما أشار اليه أنه قد تقدم ، يعنى فى الجواب على شبه نفاة الحكمة ، ومنها قولهم : أى حكمة فى خلق ابليس والشياطين يفسق ويظلم ويفسد فى الدنيا والدين وأى حكمة فى بقائه الى آخر الدهر واماتة الرسل ، وساق لهم بضعة عشر شبهة وأجاب عنها ، حتى قال : قال أهل الحكمة ليست هذه الأسئلة والاعتراضات التى جئتم بها فى حكمة أحكم الحاكمين بأقوى من الأسئلة والاعتراضات التى قدح بها أهل الالحاد فى وجوده ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، وقدأقاموا أربعين شبهة تنفيوجوده فى زعمهم الباطل . وكذلك اعتراضات المكذبين لرسله وقد حكيتم أنتم عنهم ثمانين اعتراضا ، حتى قال : وقد علمتم الاعتراضات التى اعترض بها أهل الفلسفة على كونه خالقا للعالم فى ستة أيام وعلى كونه يقيم الناس من قبورهم ويبعثهم الى دار السعادة أو الشقاء ويبدل هذا العالم ويأتى بغيره ، واعتراضات هؤلاء اضعاف اعتراضات نفاة الحكمة وغايات أفعاله المقصودة المحمودة الخ . وفى هذا تصريح بأن الفلاسفة ينفون المعاد والجزاء للعباد كما تكرر ، وفى أصولهم تأكد وتقرر ، ثم ساق الأجوبة عن كل شبهة من شبه نفاة الحكمة من وجوه حتى قال ص ٢٢٣ .

الوجه العشرون : انه قد يترتب على خلق من يكفر ويشرك بالله ويعاديه ويفسد فى الأرض من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة ما لم يكن يحصل بدون ذلك ، فلولا كفر قوم نوح لما ظهرت آيات الطوفان وانجاء نوح وأهل السفينة من المؤمنين ، وبقيت يتحدث الناس بها ويعتبرون على ممر الزمان ، ولولا كفر عاد لما ظهرت آية الريح العقيم التى دمرت مامرتعليه ، ولولاكفر قوم صالح لما ظهرت آية اهلاكهم بالصيحة ، ولولا كفر فرعون لما ظهرت تلك الآيات والعجائب التى يعتبر ويتحدث بها الأمم أمة بعد أمة ، واهتدى من شاء الله بها وهلك من هلك بها عن بينة وحى من حى عن بينه ، وظهر بذلك فضل الله وعدله وحكمته وبطشـــه وأخذه وظهرت آيات رسله وصـــدقهم ، فمعارضة الرسل وكسر حجتهم ودحضها والجواب عنها واهلاك الله لهم من أعظم أدلة صدقهم وبراهينه ، ولولا مجىء المشركين بالحد والحديد والعدد والعديد والشوكة يوم بدر لما حصلت تلك الآيات العظيمة التى يترتب عليها من الايمان والهدى والخير ما لم يكن حاصلا مع عدمها ، وقد بينا أن المتوقف على الشىء سواء كان الشىء علة أو ملزوما لا يوجد بدونه ووجود الملزوم أو العلة بدون لازمه أو معلوله ممتنع (١) فلله كمعمرت قصة بدر من ربع أصبح آهلا بالايمان ، وقد فتحت لأولى النهى باباوصلوا منه الى الهدى والايقان ، وكم حصل بها من محبوب للرحمن وغيظ للشيطان ، وتلك المفسدة التى حصلت فى ضمنها للكفار المفسدين التى جنوها بأيديهم مغمورة جدا بالنسبة الى مصالحها الدينية وحكمها الربانية وهى كمفسدة المطر اذا قطع المسافر وبل الثياب وخرب بعض البيوت واجتحف الســيل بعض الأموال والدواب والبيوت والأنفس بالنسبة الى مصلحة العامة ، وتأمل ما حصـــل بالطوفان وغرق آل فرعون للأمم بعدهم من العبر والمواعظ والهدى والايمان لمن كان له قلب ، وتوفيق اللاتى غمرت مفسدة من هلك به من المفسدين

(١) اى اذا لم يخلف المقـــدم غيره وكان اللازم مسـاويا غير أعم يوجد مع ملزوم آخر ولم تكن علة أخرى ولا هناك مشيئة الله فى عدم تأثيـــر العلة او الملزوم كما تقدم فى بحث المعجزات النبوية وخرق الله للعادات ، وان الأسباب والمسببات يتوقف حصولها وتاثيرها وتاثرها على حصـــول مشيئة الله وارادته « تؤتى الملك من تشاء » الآية « يهب لمن يشاء اناثا » الآية ، « لو نشاء لجعلناه حطاما » .

حتى تلاشت تلك المفسدة (١) فى جنب مصلحته وحكمته فكم نوه الله بذلك عبرة لأولى الألباب ، وكم لله من حكمة فى آياته التى ابتلى بها أعداءه وأكرم فيها أولياءه وكم له فيها من آية وحجة وتبصرة وتذكرة وهداية وعبرة ولطف لأهل الدين ونصرة ، ولهذا قال الله « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ، «وكذلك نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» وأمر الله سبحانه رسوله عليه الصلاة والسلام بابلاغ ذلك فقال « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن اخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » ، «واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » فذكرهم بأيامه وانعامه ونجاتهم من عدوهم واهلاكهم وهم ينظرون ، فحصل بذلك من ذكره وشكره وطاعته ومحبته وتعظيمه واجلاله ما تلاشت عنده مفسدة اهلاك الأبناء وذبحهم واضمحلت ، فانهم صاروا الى النعيم وخلصوا من مفسدة العبودية لفرعون وسومه لهم سوء العذاب ، وكان الألم الذى ذاقه الأبوان عند الذبح لأولادهم أيسر من الآلام التى تجرعوها باستعباد فرعون وقومه لهم بكثير فحظى بذلك الأبناء والآباء وأراد سبحانه أن يرى عباده ما هو من أعظم آياته وهو أن يربى هذا المولود الذى ذبح فرعون ما شاء الله من الأولاد فى طلبه فرباه فى حجرة فى بيته وعلى فراشه ، فكم فى ضمن هذه الآية من حكمة ومصلحة ورحمة وهداية وتبصرة ، وهى موقوفة على عللها وأسبابها وملزوماتها ولم تكن لتوجد بدونها فانه ممتنع (٢) فمصلحة تلك الآية وحكمتها غمرت مفسدة ذبح الأبناء وجعلتها كأن لم تكن ، ثم قال فى ضرب آخر من هذا النمط وان لم يكن بعضها من الحكم والمصالح المترتبة على وجود الكفار والمشركين وكذلك الآيات التى أظهرها الله سبحانه على يد الكريم بن الكريم ابن الكريم بن الكريم والعجائب والحكم والمصالح والفوائد والقواعد والأخلاق والآداب التى فى تلك القصة التى تزيد على الألف لم تكن لتحصل

---

(١) سماها مفسدة بالنظر الى الهالكين وهى مصلحة من حيث الحكمة ومن حيث جناياتهم وكفرهم ، ومن حيث أن ذلك جزاء وعقاب ومن حيث أن ذلك حكم الله وقضاؤه والله يقضى بالحق.

(٢) أى الا أن يشاء الله كما تقدم آنفا .

بدون ذلك السبب الذى كان فيه مفسدة حزن يعقوب وتغريب يوسف ثم انقلبت تلك المفسدة مصالح اضمحلت فى جنبها تلك المفسدة بالكلية مع مالهما فيها عند الله من الثواب الدائم وأجر الصابرين وصارت سببا لأعظم المصالح فى حقه وحق يوسف وحق الأخوة وحق امرأة العزيز وحق أهل مصر وحق المؤمنين الى يوم القيامة ، فكم جنى أهل المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ورسله من هذه القصة من ثمرة وكم استفادوا بها من علم وحكمة وتبصرة وكذلك المفسدة التى حصلت لأيوب من مس الشيطان له بنصب وعذاب ، اضمحلت وتلاشت فى جنب المصلحة والمنفعة التى حصلت لهولغيره عند مفارقة البلاء وتبدله بالنعماء مع ما له فى صبره من الدرجات كما قال الله « انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب » بل كان ذلك السبب المكروه هو الطريق الموصل اليها والشجرة التى جنيت ثمارتلك النعممنها ، وكذلك الأسباب التى أوصلت خليل الرحمن الى أن صارت النار عليه بردا وسلاما من كفر قومه وشركهم وتكسيره أصنامهم وغضبهم لها وايقاد النيران العظيمة له والقائه فيها بالمنجنيق حتى وقع فى روضة خضراء فى وسط النار وصارت آية وعبرة ودلالة للأمم قرنا بعد قرن ، فكم لله سبحانه فى ضمن هذه الآية من حكمة بالغة ونعمة سابغة وحجة دامغة ورحمة وبينة ، ولو تعطلت تلك الأسباب لتعطلت هذه الحكم والمصالح والآيات ، وحكمته وكماله المقدس يأبى ذلك وحصول الشىء بدون سببه ممتنع (١) وكم بين ما وقع من المفاسد الجزئية فى هذه القصة وبين جعل صاحبها اماما للحنفاء الى يوم الدين ، وهل تلك المفاسدالجزئية الادون مفسدة الحر والبرد والبرد والمطر والثلج بالنسبة الى مصالحها بكثير ولكن الانسان كما قال الله تعالى «ظلومجهول» ظلوم لنفسه ، جهول بربه وعظمتهوجلاله وحكمته مع اتقان صنعه وما فى ذلك من الغايات المحمودة والعواقب الحسنة ، وكم بين اخراج رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من مكة على تلك الحال ودخوله اليها ذلك الدخول الذى لم يفرح بمثله حبورا لله وشكرا له ، وقد اكتنفه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله المهاجرون والأنصار محدقين به

---

(١) الا ما شاء الله ان ربك فعال لما يريد كما تقدم .

والملائكة من فوقهم والوحى من الله ينزل عليه ، فأدخله الله حـرمه ذلك الدخول ، فأين مفسدة ذلك الاخراج الذى كان كأن لم يكن مـع ما فى الاخراج من الدرجات والآيات والهدايات والشهادات فى تلك الغزوات ، ولولا معارضة سحرة فرعون لموسى بالقاء العصى والحبال حين أخذوا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، لما ظهرت حقيقة آية عصا موسى حتى ابتلعت عصيهم وحبالهم فوقع الحـق وبطل ما كانوا يعملون ، ولهـذا أمرهم موسى أن يلقوا أولا ثم يلقى هو بعدهم بعد أن خيروه فى الالقاء أولا وآخرا فقال ألقوا ما أنتم ملقون ، ومن تمام ظهور آيات الرب تعالى وكمال اقتداره وحكمته أن يخلق مثل جبريل عليه السلام الذى هو أطيب الأرواح العلوية وأزكاها وأطهرها وأشرفها وهو السفير فى كل خير ووحى وهدى وايمان وصـلاح ويخلق مقابله مثل روح اللعـين ابليس الذى هو أخبث الأرواح وأنجسها وشرها ، وبضدها تتبين الأشياء وهو الداعى الى كل شر وأصله ومادته ، وكذلك من تمام قدرته وحكمته أن خلق جميع المتضادات كالضياء والظلام والأرض والسماء والجنة والنار وسدرة المنتهى وشـجرة الزقوم ، وليلة القدر وليلة الوباء والملائكة والشياطين ، والمؤمنين والكفار ، والأبـرار والفجـار والحـر والبـرد والداء والـدواء والآلام واللـذات والأحزان والمسرات ، ولولا خلق الشياطين والهوى والنفس الأمارة بالسوء لما حصلت عبودية الصبر ومجاهدة النفس والشيطان ومخالفتهما ، وترك ما يهواه العبد ويحبه الله فان لهذه العبودية التى مركزها الصبر شأنا ليس لغيرها ، ولولا وجود الكفار لما حصلت عبودية الجهاد ولما نال أهله درجة الشهادة ولما ظهر من يقدم محبة خالقه وفاطره على نفسـه وأهله وولده ، ومن يقدم لأدنى حظ من الحظوظ الدنيوية فأين صبر الرسـل وأتباعهم وجهادهم وتحملهم لله أنواع المـكاره والمشاق وأنواع العبـودية المتعلقة بالدعوة واظهارها لولا وجود الكفار ، وتلك العبودية تقتضى علمه وفضله وحكمته ، ويستخرج منها حمده وشكره ومحبته والرضا عنه يوضحه .

الوجه الحادى والعشرون : انه قد استقرت حكمته سبحانه أن السعادة والنعيم والراحة لا يوصل اليها الا على جسر المشقة والتعب ولا يدخل اليها

الا من باب المكاره والصبر وتحمل المشاق ، ولذلك حفت الجنــة بالمكاره والنار بالشهوات ، ولذلك أخرج الله صفيه آدم من الجنة أى بعد التوبة وقد خلقها له واقتضت حكمته أن لا يدخلها دخول استقرار الا بعد التعب والنصب والاختبار أى الموت والبعث فما أخرجه منها الا ليدخله اليها أتم دخول ، فلله كم بين الدخول الأول والدخول الثانى من التفاوت ، وكم بين دخول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مكة فى جوار المطعم بن عدى ودخوله اليها يوم الفتح ، وكم بين راحة المؤمنين ولذتهم فى الجنة بعد مقاساة ماقبلها وبين لذتهم لو خلقوا فيها لأن الآتى بعد التعب أعز من المنساق بغير نصب ، وكم فرحة من عافاه الله بعد ابتلائه وأغناه بعد فقره وهداه بعد ضلاله وجمع قلبه بعد شتاته ، وفرحة من لم يذق تلك المرارات ، وقد سبقت الحكمة الالهية أن المكاره أسباب اللذات والخيرات كما قال تعالى « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ثم ساق أبحاثا قيمة فى الوجه الثانى والثالث والعشرين يطول بسطها ونقلها ولا يستغنى عنها مسلم بل عن جميع هذا الباب وباب اثبات حكمة الله بل عن جميع الكتاب ، وان كانت المناقشات عليه قد ترد نادرا فى مواضع ، حتى قال .

الوجه الرابع والعشرون : قول نفاه الحكمة والتعليل أى حكمته فى خلق ابليس وجنوده ، وفى ذلك من الحكم ما لا يحيط بتفصيله الا الله فمنها أن يكمل لأنبيائه وأوليــائه مراتب العبودية بمجــاهدة عدو الله وحــزبه ومخالفته ومراغمته فى الله واغاظته واغاظة أوليائه والاستعاذة بالله منه واللجاء اليه أن يعيذهم من شره وكيده فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه ، وقد قدمنا أن المتوقف على شىء لا يحصل بدونه (١) .

ومنها أن خوف الملائكة والمؤمنين من مقارفة الذنوب بعد ما علموا من حال ابليس ما علموا وشاهدت الملائكة وشاهدوا من سقوطه من المرتبة الملكية

(١) وفيه ما تقدم أن التوقف متوقف على المشيئة وماتشاءون الا أن يشاء الله .

الى المنزلة الابليسية يكون أقوى وأتم ، ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى وخضوع آخر وخوف آخر كما هو المشاهد من حال عبيد الملك اذا رأوه قد أهان أحدهم الاهانة التى بلغت منه كل مبلغ وهم يشاهدونه فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد .

ومنها أنه سبحانه جعله عبرة لمن خالف أمره وتكبر عن طاعته وأصر على معصيته ، كما جعل ذنب أبى البشر عبرة لمن ارتكب نهيه أو عصى أمره ثم تاب وندم ورجع الى ربه ، فابتلى أبوى الجن والانس بالذنب وجعل هذا الأب عبرة لمن أصر وأقام على ذنبه ، وهذا الأب عبرة لمن تاب ورجع الى ربه فلله كم فى ضمن ذلك من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة .

ومنها أنه محك امتحن الله به خلقه ليتبين به خبيثهم من طيبهم فانه سبحانه خلق النوع الانسانى من الأرض وفيها السهل والحزن والطيب والخبيث فلا بد أن يظهر فيهم ما كان فى مادتهم كما فى الحديث الذى رواه الترمذى مرفوعا ، ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على مثل ذلك ، منهم الطيب والخبيث والسهل والحزن وغير ذلك ، فما كان فى المادة الأصلية فهو كائن فى المخلوق منها ،فاقتضت الحكمة الالهية اخراجه وظهوره فلا بد اذن من سبب يظهر ذلك ، وكان ابليس محكا يميز به الطيب من الخبيث كما جعل أنبياءه ورسله محكا لذلك التمييز ، قال الله «ماكان الله ليذرالمؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » فأرسل رسله الى المكلفين وفيهم الطيب والخبيث فانضاف الطيب الى الطيب والخبيث الى الخبيث ، واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم فى دار الامتحان فاذا صاروا الى دار القرار يميز بينهم ويجعل لهؤلاء دارا على حدة ولهؤلاء دارا على حدة ، حكمة بالغة وقدرة قاهرة .

ومنها ان يظهر كمال قدرته فى خلق مثل جبريل والملائكة وابليس والشياطين وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه فانه خالق الأضداد وأشباهها كالسماء والأرض والضياء والظلام والجنة والنار والماء والنار ، والحر والبرد والطيب والخبيث كما تقدم .

ومنها أن خلق أحد الضدين من كمال حسن ضده فان الضد انما يظهر حسنه بضده ،فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى كما تقدم أيضا أى فى غضون الوجوه السابقة القريبة .

ومنها أنه سبحانه يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه ، ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله ابليس وجنوده وامتحانهم به من أنواع شكره ما لم يكن ليحصل لهم بدونه ، فكم بين شكر آدم وهو فى الجنةقبل أن يخرج منها وبين شكره بعد أن ابتلى بعدوه ثم اجتباه ربه فتاب عليه وقبله .

ومنها المحبة والانابة والتوكل والصبر والرضا ونحوها أحب العبودية الى الله سبحانه وهذه العبودية انما تتحقق بالجهاد وبذل النفس لله وتقديم محبته على كل ما سواه ، فالجهاد ذروة سنام العبودية وأحبها الى الرب سبحانه ، فكان فى خلق ابليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التى لا يحصى حكمها وفوائدها وما فيها من المصالح الا الله تعالى .

ومنها ان فى خلق من يضاد رسله ويكذبهم ويعاديهم من تمام ظهور آياته وعجائب قدرته ولطائف صنعه ما وجوده أحب اليه وأنفع لأوليائه من عدمه كما تقدم من ظهور آية الطوفان والعصا واليد وفلق البحر والقاء الخليل فى النار وأضعاف أضعاف ذلك من آياته وبراهين قدرته وعلمه وحكمته فلم يكن بد من وجود الأسباب التى يترتب عليها ذلك كما تقدم .

ومنها أن من أسمائه الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل المنتقم الجبار ، وهذه الأسماء تستدعى متعلقات يظهر فيها أحكامهاكأسماء الاحسان والرزق والرحمة ونحوها ، ولابد من ظهور متعلقات هذه وهذه .

ومنها أنه سبحانه الملك التام الملك ومن تمام ملكه عموم تصرفه وتنوعه بالثواب والعقاب والاكرام والاهانة والعدل والفضل والاعزاز والاذلال ، فلا بد من وجود من يتعلق به أحد النوعين كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر .

ومنها أن من أسمائه الحكيم والحكمة من صفاته سبحانه وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذى لا يليق به سواه فاقتضت خلط المتضادات وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص ، وهل تتم الحكمة الا بذلك فوجود هذا النوع من تمام الحكمة كما أنه من كمال القدرة .

ومنها ان حمده سبحانه واستحقاقه تام كامل من جميع الوجوه فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه وانتقامه واهانته ، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعه واكرامه ، فلله الحمد التام الكامل على هذا وهذا ، وهو يحمد نفسه على ذلك كله ويحمده عليه ملائكته ورسله وأولياؤه ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم ، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه فله فى خلقه وايجاده الحكمة التامة كما له عليه الحمد التام فلا يجوز تعطيل حمده كما لا يجوز تعطيل حكمته .

ومنها أن الله سبحانه يحب أن يظهر لعباده حلمه واناته وسعة رحمته وجوده فاقتضى ذلك خلق من يشرك به ويضاده فى حكمه ويجتهد فى مخالفته ويسعى فى مساخطه بل من يشبهه سبحانه وهو مع ذلك يسوق اليه أنواع الطيبات ويرزقه ويعافيه ويمكن له من أسباب ما يلتذ به من أصناف النعم ويجيب دعاءه ويكشف عنه السوء ويعامله من بره واحسانه بضد ما يعامله هو به من كفره وشركه واساءته ، فلله كم فى ذلك من حكمة وحمد ، ويتحبب الى أوليائه ويتعرف بأنواع كمالاته كما فى الصحيح عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال « لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله يجعلون له الولد وهو يرزقهم ويعافيهم » وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيما يروى عن ربه « شتمنى ابن آدم وما ينبغى له ذلك وكذبنى ابن آدم وما ينبغى له ذلك ، أما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحدا ، وأما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من اعادته» ، وهو سبحانه مع هذا الشتم له والتكذيب يرزق الشاتم المكذب ويعافيه ويدفع عنه ويدعوه الى جنته ويقبل توبته اذا تاب اليه ويبدله بسيئاته حسنات ويلطف به فى

جميع أحواله ويؤهله لارسال رسله ويأمرهم بأن يلينوا له القول ويرفقوا . قال الفضيل بن عياض ما من ليلة يختلط ظلامها الا نادى الجليل جل جلاله « من أعظم مني جودا الخلائق لي عاصون وأنا أكلؤهم فى مضاجعهم كأنهم لم يعصوني ، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا ، أجود بالفضل على العاصي وأتفضل على المسيء ، من ذا الذى دعاني فلم ألبه ومن ذا الذى سألني فلم أعطه ، أنا الجواد ومني الجود ، وأنا الكريم ومني الكرم ، ومن كرمي أني أعطى العبد ما سألني وأعطيه ما لم يسألني ، ومن كرمي أني أعطى التائب كأنه لم يعصني فأين عني يهرب الخلق وأين عن بابي ينتحى العاصون » وفى أثر الهى «اني والانس والجن فى نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر سواي» وفى أثر حسن « ابن آدم ما أنصفتني خيري اليك نازل وشرك الى صاعد ، أتحبب اليك بالنعم وأنا غني عنك ، وكم تتبغض الى بالمعاصي وأنت فقير الى ، ولا يزال الملك الكريم يعرج الى منك بعمل قبيح » وفى الحديث الصحيح « لولم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفرلهم » ، فهو سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته التى يحق لها ذلك اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقا يظهر فيهم أحكامها وآثارها فلمحبته للعفو خلق من يحسن العفو عنه ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له ويحلم عنه ولا يعاجله بل يحب أمانه وامهاله ، ولمحبته لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته ، ولمحبته للجود والاحسان والبر والامتنان خلق من يعامله بالاساءة والعصيان ، وهو سبحانه وتعالى يعامله بالمغفرة والاحسان ، فلولا خلق من تجرى عليهم أنواع المعاصي والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها وأضعاف أضعافها ، فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ذو الحكمة البالغة والنعم السابغة الذى وصلت حكمته الى حيث وصلت قدرته وله فى كل شيء حكمة باهرة كما أن له فيه قدرة قاهرة وهدايات ظاهرة ، وانما ذكرنا من ذلك قطرة من بحر ، والا فعقول البشر أعجز وأضعف وأقصر من أن تحيط بكمال حكمته فى شيء من خلقه ، فكم حصل بسبب هذا المخلوق البغيض للرب المسخوط عليه من محبوب مطلوب له تبارك وتعالى يتصل فى حبه ما حصل به من مكروهه ، والحكيم الباهر الحكمة هو الذى يحصل أحب الأمرين اليه

باحتمال المكروه الذى يبغضه ويسخطه اذا كان طريقا الى حصول ذلك المحبوب ، ووجود اللازم المساوى بدون ملزومه محال ، فان يكن قد حصل بعدو الله ابليس من الشرور والمعاصى ما حصل فكم حصل بسبب وجوده ووجود جنوده من طاعة هى أحب الى الله سبحانه وأرضى له من جهاد فى سبيله ، ومخالفة هوى النفس وشهواتها له وتحمل المشاق والمكاره فى محبته ومرضاته ، وأحب شيء للحبيب أن يرى محبه يتحمل لأجله من الأذى والوصب ما يصدق محبته .

من أجلك جعلت خدى أرضا للشامت الحسود حتى ترضى

ثم ساق الكلام فى بقية الوجه وأعقبه بالوجه الخامس والعشرين وهو يؤخذ مما تقدم اجمالا ، على أن بعض الوجوه يغنى عن بعض ولكن لا غنى عنها فى المقام للمطلع حتى قال :

الوجه السادس والعشرون : قوله وأى حكمة فى بقاء ابليس الى آخر الدهر واماتة الرسل فكم لله فى ذلك من حكمة تضيق بها الأوهام .

فمنها أنه سبحانه لما جعله محكا ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث ووليه من عدوه ، اقتضت حكمته ابقاءه للآخرين ما بقى التكليف كما كان كذلك للأولين ليحصل الغرض ، كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار فى الأرض الى آخر الدهر فى الدنيا ، ولو أهلكهم البتة لتعطلت الحكم الكثيرة فى ابقائهم فكما اقتضت حكمته امتحان أبى البشر اقتضت امتحان أولاده من بعده به فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه وينحاز اليه من وافقه ووالاه .

ومنها أنه لما سبق حكمه وحكمته أنه لا نصيب له فى الآخرة وقد سبق له طاعة وعبادة جزاه بها فى الدنيا بأن أعطاه البقاء فيها الى آخر الدنيا فانه سبحانه لا يظلم أحدا حسنة عملها ، فأما المؤمن فيجزيه بحسناته فى الدنيا والآخرة ، وأما الكافر فيجزيه بحسنات ما عمل فى الدنيا فقط ، فاذا أفضى

الى الآخرة لم يكن له شيء كما ثبت هذا المعنى فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

ومنها أن ابقاءه لم يكن كرامة فى حقه فانه لو مات كان خيرا له وأخف لعذابه وأقل لشره ، ولكن لما غلظ ذنبه بالاصرار على المعصية ومخاصمة من ينبغى التسليم لحكمه وقدح فى حكمته وأقسم على اقتطاع عباده وصدهم عن عبوديته كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه فأبقى فى الدنيا وأملى له ليزداد اثما على اثم ذلك الذنب الكبير فيستوجب العقوبة التى لا تصلح لغيره فيكون رأس أهل الشر فى العقوبة كما كان رأسهم فى الشر والكفر ، ولما كانت مادة كل شر منه تنشأ جوزى فى النار مثل فعله فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ به فيه ثم يسرى منه الى أتباعه عدلا ظاهرا وحكمة بالغة .

ومنها أنه قال فى مخاصمته لربه : « أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا » وقد علم الله سبحانه أن فى الذرية من لا يصلح لمساكنته فى دار الخلود ولا يصلح الا لما يصلح له الشوك والروث أبقاه لهم وقال له بلسان الحال هؤلاء أصحابك وأولياؤك فاجلس فى انتظارهم وكلما مر بك واحد منهم فشأنك به فلو صلح لى لما مكنتك منه ولا يهلك على الا هالك فانى أتولى الصالحين وهم الذين يصلحون لى وأنت ولى المجرمين الذين استغنوا عن موالاتى وابتغاء مرضاتى ، قال تعالى « انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » .

فأما اماتة الأنبياء والمرسلين : فلم يكن ذلك لهوانهم على ربهم ولكن ليصلوا الى محل كرامته ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها ومقاساة أعدائهم وأتباعهم وليتعدد ويكثر الرسل رسولا بعد رسول تترى ، فاماتتهم أصلح لهم وللأمة أما هم فلراحتهم من الدنيا ولحوقهم بالرفيق الأعلى فى أكمل لذة وسرور ولاسيما وقد خيرهم ربهم بين البقاء فى الدنيا واللحاق به ، وأما الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوا الرسل فى حياتهم خاصة ، بل أطاعوهم بعد مماتهم ايمانا بالغيب وهو أفضل الايمان كما أطاعوهم فى حياتهم وأن أتباعهم لم

يكونوا يعبدونهم بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم والله هو الحى القيوم الذى لايموت، فكم فى اماتتهم من حكمة ومصلحة لهم ، هذا وهم بشر قال الله تعالى « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون » ولم يخلق الله البشر فى الدنيا على خلقة قابلة للدوام بل جعلهم على تركيب ضعيف لا يصلح للدوام الكثير وجعلهم خلائف فى الأرض يخلف بعضهم بعضا لينظر كيف يعملون ، فلو أبقى الرسل لفاتت المصلحة والحكمة فى جعلهم خلائف ولضاقت الأرض بهم وبالناس أن يقولوا كذلك ، فالموت كمال لكل مؤمن وراحة ، ولولا الموت لما طاب العيش فى الدنيا ولا الهناء لأهلها بها ، فالحكمة فى الموت كالحكمة فى الحياة « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » فالآية تقضى بأن موت الرسول اختبار لمن ينقلب ومن يثبت على الايمان بعده قال .

الوجه السابع والعشرون : قوله أى حكمة ومصلحة فى اخراج آدم من الجنة الى دار الابتلاء والامتحان ، فالجواب أن يقال كم لله سبحانه فى ذلك من حكمة ، وكم فيه من نعمة ومصلحة تعجز العقول عن معرفتها على التفصيل ، ولو استفرغت قواها كلها فى معرفة ذلك واهباط آدم واخراجه من الجنة بعد التوبة كان يعسر كماله ليعود اليها على أحسن أحواله وهو سبحانه انما خلقه ليستعمره وذريته فى الأرض ويجعلهم خلفاء يخلف بعضهم بعضا ، فخلفهم سبحانه ليأمرهم وينهاهم ويبتليهم بالخير والضر ، وليست الجنة دار ابتلاء وتكليف كالدنيا فأخرج الأبوين الى الدار التى خلقوا منها وفيها ليتزودوا منها الى الدار التى خلقوا لها ، فاذا وفوا تعب دار التكليف ونصبها وذاقوا شدتها ووصبها عرفوا قدر تلك الدار وشرفها وفضلها ولو نشأوا فى تلك الدار لما عرفوا قدر نعمته عليهم بها فأسكنهم دار الامتحان وعرضهم فيها لأمره ونهيه ، لينالوا بالطاعة أفضل ثوابه وكرامته ، وكان من الممكن أن يحصل لهم النعيم المقيم هنالك ، لكن الحاصل عقيب التعب والابتلاء والامتحان ومعاناة الموت وما بعده وأهوال القيامة والعبور على الصراط نوع آخر من النعيم لا يدرك قدره ، وهو أكمل من نعيم من خلق فى الجنة من الولدان والحور العين بما لاشبه بينهما بوجه من الوجوه .

ومن الحكم فى ذلك : أنه سبحانه أراد أن يتخذ من ذرية آدم رسلا وأنبياء وشهداء يحبهم ويحبـــونه وينزل عليهم كتبــه ويعهد اليهم عهـــده ويستعبدهم له فى السراء والضراء ويؤثرون محابه ومراضيه على شهواتهم وما يحبونه ويهوونه ، فاقتضت حكمته أن انزالهم الى دار ابتلاهم فيها بما ابتلاهم ليكملوا بذلك الابتداء مراتب عبوديته ويعبدونهم على كراهة أنفسهم وذلك محض العبودية ، والا فمن يعبد الله الا بما يحبهويهواه فهو انما يعبد فى الحقيقة نفسه وهو سبحانه يحب من أوليائه أن يوالوا فيه ويعادوا فيه ويبذلوا نفوسهم فى مرضاته ومحـــابه وهذا كله لا يحصـــل فى دار النعيم المطلق .

ومن الحكمة فى اخراجه من الجنة : ما تقدم التنبيه عليه من اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها ومطابقاتها للواقع كالغفور الرحيم التواب العفو المنتقم شديد العقاب الخافض الرافع المعز المذل المحيي المميت الوارث ، ولابد من ظهور أثر هذه الأسماء ووجود ما تتعلق به فاقتضت حكمته أن انزال الأبوين من الجنة ليظهر مقتضى أسمائه وصفاته فيهما وفى ذريتهما فلو تربت الذرية فى الجنة لفاتت آثار هذه الأسماءوتعلقاتها والكمال الالهى يأبى ذلك فانه الملك الحقالمبين ، والملك هو الذى يأمر وينهىويكرم ويهين ويثيب ويعاقب ويعطى ويمنع ويعز ويذل ، فأنزل الأبوين والذرية الى دار تجرى عليهم فيها هذه الأحكام .

ومن ذلك : أنهم أنزلوا الى دار يكون ايمانهم تاما ، فان الايمان قول وعمل واعتقاد والعمل جهاد وصبر واحتمال ، وهذا كله انما يكون فى دار الامتحان لا فى جنة النعيم ، وقد ذكر غير واحد من أهـــل العلم : ومنهم أبو الوفاء ابن عقيل وغيره ، ان أعمال الرسل والأنبياء والمؤمنين فى الدنيا أفضل من نعيم الجنة ، قالوا لأن نعيم الجنة حظهم وتمتعهم ، فأين يقاس الى الايمان وأعماله والصلوات وقراءة القرآن والجهـــاد فى سبيل الله وبذل النفوس فى مرضاته وايثاره على هواها وشـــهواتها ، فالايمان متعلق به سبحانه وهو حقه عليهم ، ونعيم الجنة متعلق بهم وهو حظهم ، فهم انما خلقوا للعبادة والجنة دار نعيم لا دار تكليف وعبادة .

ومن ذلك أنه سبحانه سبق حكمه وحكمته بأن يجعل فى الأرض خليفة وأعلم بذلك ملائكته ، فهو سبحانه قد أراد أن يكون هذا الخليفة وذريته فى الأرض قد خلقه ، لما له فى ذلك من الحكم والغايات الحميدة ، فلم يكن بد من اخراجه من الجنة الى دار قدر سكناهم فيها قبل أن يخلقه ، وكان ذلك التقدير بأسباب وحكم ، فمن أسبابه النهى عن تلك الشجرة وتخليته بينه وبين عدوه حتى وسوس اليه بالأكل ، وتخليته بينه وبين نفسه حتى وقع فى المعصية ، وكانت تلك الأسباب موصلة الى غايات محمودة مطلوبة تترتب على خروجه من الجنة ثم تترتب على خروجه أسباب أخر جعلت غايات لحكم أخر ، ومن تلك الغايات عوده اليها على أكمل الوجوه ، فذلك التقدير وتلك الأسباب وغاياتها صادرة عن محض الحكمة البالغة التى يحمده عليها أهل السموات والأرض فى الدنيا والآخرة ، فما قدر أحكم الحاكمين ذلك باطلا ولا دبره عبثا ولا أخلاه من حكمته البالغة وحمده التام .

ومن ذلك أنه سبحانه قال للملائكة « انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال : انى أعلم مالا تعلمون » ثم أظهر سبحانه من علمه وحكمته الذى خفى على الملائكة من أمر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعرفونه ثم جعل من نسله من أوليائه وأحبابه ورسله وأنبيائه من يتقرب اليه بأنواع التقرب ويبذل نفسه فى محبته ومرضاته يسبح بحمده آناء الليل وأطراف النهار ويذكره قائما وقاعدا وعلى جنبه ويعبده ويذكره ويشكره فى السراء والضراء والعافية والبلاء والشدة والرخاء فلا يثنيه عن ذكره وشكره وعبادته شدة ولا بلاء ولا فقر ولا مرض ويعبده مع معارضة الشهوة وغليان الهوى وتعاضد الطباع لأحكامها ومعاداة بنى جنسه وغيرهم له فلا يصده ذلك عن عبادته وشكره وذكره والتقرب اليه ، فان كانت عبادتكم لى بلا معارض ولا ممانع فعبادة هؤلاء لى مع هذه المعارضات والموانع والشواغل .

ومن ذلك أنه سبحانه أراد أن يظهر لهم ما خفى عليهم من شأن ما كانوا يعظمونه ويجلونه ولا يعرفون ما فى نفسه يعنى ابليس من الكبر والحسد

والشر فذلك الخير وهذا الشر كامن فى نفوس لايعلمونها فلا بد من اخراجه وابرازه لكى تعلم حكمة أحكم الحاكمين فى مقابلة كل منهما بما يليق به .

ومن ذلك أنه سبحانه لما خلق خلقه أطوارا وأصنافا وسبق فى حكمه وحكمته تفضيل آدم وبنيه على كثير ممن خلق تفضيلا جعل عبوديتهم أكمل من عبودية غيرهم ، وكانت العبودية أفضل أحوالهم وأعلى درجاتهم أعنى العبودية الاختيارية التى يأتون بها طوعا واختيارا لا كرهاواضطرارا ، ولهذا أرسل الله جبريل الى سيد هذا النوع الانسانى يخيره بين أن يكون عبدا رسولاأو ملكا نبيا ، فاختار بتوفيق ربه له أن يكون عبدا رسولا وذكره سبحانه بأتم العبودية فى أشرف مقاماته وأفضل أحواله كمقام الدعوة والتحدى والاسراء وانزال القرآن: «وأنه لماقام عبدالله يدعوه »«وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا » «سبحان الذى أسرى بعبده » «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده » فأثنى عليه ونوه به لعبوديته التامة له ، ولهذا يقول أهل الموقف حين يطلبون الشفاعة اذهبوا الى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فلما كانت العبودية أشرف أحوال بنى آدم وأحبها الى الله ، وكان لها لوازم وأسباب مشروطة لا تحصل الا بها كان من أعظم الحكمة أن أخرجوا الى دار تجرى عليهم فيها أحكام العبودية وأسبابها وشروطها وموجباتها ، فكان اخراجهم من الجنة تكميلا لهم واتماما لنعمته عليهم مع ما فى ذلك من محبوبات الرب تعالى ، فانه يحب اغاثة اللهفان واجابة الدعوات ، وتفريج الكربات ومغفرة الزلات وتكفير السيئات ودفع البليات واعزاز من يستحق العز واذلال من يستحق الذل ونصر المظلوم وجبر الكسير ورفع بعض خلقه على بعض وجعلهم درجات ليعرف قدر فضله وتخصيصه فاقتضى ملكه التام وحمده الكامل أن يخرجهم الى دار يحصل فيها محبوباته وان كان لكثير منها طرق وأسباب يكرهونها فالوقوف على الشىء مع وجود لوازم الحكمة من الحكمة كما أن ايجاد لوازم العدل من العدل كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى فى فصل ايلام الأطفال ا.هـ .

واذا أمعن الناظر المنصف والعالم الربانى فى كل ما تقدم وجد منشأ الشكوى والتشكيكات فيما عدا المحسوسات ترجع الى الفلسـفة التى ترجع الى الاستبعادات وتحكيم العقول الضالة والعادات ، والجهل والتجاهل من حكمة الله فى خلق المخلوقات وجعل الدار الآخرة نتيجة لمقدمات الأعمال فى الدنيا ان خيرا فخير وان شرا فشر فلهذا تفرع .

***

الفصل الثامن

وهو أن باب الفلسفة مصدود ، ومنفذ الاستعبادات مسدود ، فى كل ما خالف الشرع فضلا عن قواطعه فضلا عما علم بالضرورة من دين جميع الأنبياء والرسل واتفقت عليه الكتب السماوية ، اذ الخلاف هنا انما يرجع الى الجحد لما جاءت به الرسل وفى ذلك كان هلاك أممهم فى الدنيا والآخرة واستبعاد حكمة الله وقدرته وعلمه بالجزئيات المتغيرة والايمان بالآخرة يؤول الى ذلك ، وللعقل مناط فى الأحكام الكلية والجزئيات المجردة والتحسين والتقبيح التى طابق الشرع عليها ولا يكاد يخطىء حكمه فيها مع صحة النظر وسلامة الفطرة من التغذى بشبه الفلسفة والالحاد وكذلك الضروريات البديهيات وسائر القضايا اليقينيات كما عرفت ، وقد مر أن أمور الآخرة من أمور الغيب وأن الايمان بما ورد عن الله ورسوله فى ذلك واجب ، ولولا ذلك لم يكن للمتأخرين تمسك بكتب الله التى أنزلها على رسله فى الأزمنة الغابرة لعدم الوقوف والمشاهدة لمعجزاتهم ، فلم يبق الآن الا الايمان بالغيب ، ومنه كتب الله ورسله واليوم الآخر والملائكة كما تقدم والفلسفة تدفع فى تلابيب الشرع والكفر ينصب أمام الايمان حبائل الجهل والغدر والتشويش « وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » وهذه سنن المكذبين فى الغابرين والآخرين « واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم » « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون » « قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء ان أنتم الا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون . وما علينا الا البلاغ المبين » وتفصيل ما أشار اليه هذا الفصل يؤخذ مما تقدم .

الفصل التاسع

ان النفوس والأرواح تستقل بنفسها بعد مفارقة الأجساد مدة البرزخ ثم تعود الى الأجساد المخلوقة خلقا جديدا يوم القيامة ، ولكن القوم فى لبس من خلق جديد ، وقد أطال الناس الكلام على النفس والروح من جهة الاستقلال ومن جهة النعيم والعذاب فى البرزخ ومن جهة الاتحاد والاختلاف وغير ذلك ، وفى كتاب الروح للحافظ المحقق ابن القيم مايكفى ويشفى وقفاه الحافظ الجلال السيوطى فى كتاب شرح الصدور وفى مختصره بشرى الكئيب وفى أبيات التثبيت عند التبييت وقفاه الامام المحقق الكبير محمد بن اسماعيل الأمير رحمه الله فى جمع الشتيت شرح أبيات التثبيت ، وذيله بمختصر من كتاب الروح وشرح الصدور نظما وشرحا سماه تأنيس الغريب وفى ذلك مايزيد ذا العلم والايمان ايمانا ، الا أن هذه الأصول وأمثالها قد عزت اما وجودا واما اكتسابا واما اطلاعا عليها وحقها أن تدرس درسا محققا ليكمل بذلك ايمان المؤمن بأمور الآخرة الغيبية ويطمئن قلبه حتى لايؤثر فيه شبه الفلاسفة والملحدين والدهريين والطبيعيين وسائر أهل البدع والزيغ والأهواء ، فقال السيد محمد الأمير رحمه الله بعد كلام طويل فى أحوال الأرواح فى البرزخ وما يتصل بها من سؤال وعذاب ونعيم وهبوط وصعود مما يدل على استقلالها ما يأتى :

الكلام فى الروح وحقيقته

واعلم بأن هذه الصفات   أكثرها للروح لا للذات

فاصرف عنان القول نحو الروح   شرحا له بالحق والصحيح

اعلم أنا لما رأينا الأبحاث التى أسلفناها متعلقة بأحوال الروح رأينا من تمام الافادة ذكر مسائل مربوطة بالدلائل تتعلق بالروح تضمنها قولنا (١) :

(١) هذا يشعر بأن النظم للشارح والمشهور انها للحافظ السيوطى الا ما الحقه ذيلا ويمكن ان هذا تصحيف من الناسخ وان الأصل تضمنها قوله ، تامل .

فالروح جسم حادث نوراني حي خفيف مسرع السريان
ينفذ في الأعضا نفوذ النار في الفحم أو كالماء في الأشجار

قال فهاهنا أربع مسائل الأولى كون الروح جسما أى لطيفا كما ذكرنا فهذه المسألة اختلف فيها جماعة من النظار ومن أئمة العلم الكبار من المسلمين ، وقد نقل ابن القيم فى كتاب الروح الأقوال ، وأبطل ماهو حقيق بالابطال وذكر ما هو الحق منها ، وأوضح عليه الاستدلال ، فأعرضنا عما ذكره مما يستحق الاهمال وذكرنا ما ارتضاه للدليل الذى تسمعه وتراه يعنى فى المسألة التاسعة عشرة من كتاب الروح فى حقيقة النفس والروح ص ٢٢٠ الطبعة الثالثة بمطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن سنة ١٣٥٧ هـ قال الروح جسم أى لطيف مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس فهو جسم نوراني علوى خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار فى الفحم فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقى ذلك الجسم اللطيف ساريا مشابكا لهذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الارادية واذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها أى أو حدثت فيها جناية توجب التلف وخرجت من قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل الى عالم الأرواح ، وهذا القول هو الصواب فى المسألة وهو الذى لا يصح غيره وكل الأقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ، ونحن نسوق الأدلة عليه على نسق واحد الا أن كلام ابن القيم هنا صرح فيه بالنقل عن الرازى وصرح فيه بأن هذا الكلام فى الانسان (١) فقال قال الرازى وأما القسم الثانى وهو أن الانسان عبارة عن جسم مخصوص موجود فى داخل هذا البدن ، فالقائلون بهذا القول اختلفوا فى تعيين ذلك الجسم على وجوه .

الأول : أنه عبارة عن الأخلاط الأربعة التى يتولد منها هذا البدن .

الثانى : أنه الدم .

---

(١) يعنى القائم بهذا الجسم الذى هو كالمركب له فهو الروح فى الحقيقة وان اختلف التعبير عنه فلهذا حسن نقل كلام الرازى تبعا للامير رحمه الله وان طال الفصل والكلام .

الثالث : انه الروح اللطيف الذى يتولد فى الجانب الأيسر من القلب وينفذ فى الشريانات الى سائر الأعضاء .

الرابع : انه الروح الذى يصعد من القلب الى الدماغ ويتكيف بالكيفية الصالحة لقبول قوة الحفظ والذكر والفكر .

الخامس : انه جزء لا يتجزأ فى القلب .

السادس : انه جسم مخالف بالماهية لهذاالجسم المحسوس ، حتى قال : وهذا القول فى هذه المسألة هو الذى لا يصح غيره حتى قال ونحن نسوق الأدلة عليه على نسق واحد والمصنف رحمه الله ساق هذه الأدلة على الروح وكأنه يرى أن الانسان غير الروح ، وكلام ابن القيم والرازى يشعر بأن الروح هو الانسان فلهذا قال رحمه الله فى سياق تلك الأدلة .

الأول : قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى » ففى الآية ثلاثة أدلة (١) الاخبار بتوفيها وامساكها وارسالها .

الرابع قوله « ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون » الى قوله « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » وفيها أربعة أدلة : أحدها : بسط الملائكة أيديهم لتناولها . والثانى : وصفها بالاخراج والخروج . الثالث : الاخبار عن عذابها ذلك اليوم . الرابع : مجيئها الى ربها فهذه سبعة أدلة .

الثامن : قوله تعالى « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم اليه مرجعكم » الى قوله « حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » وفيها ثلاثة أدلة أحدها الاخبار بتوفى الأنفس بالليل . الثانى بردها الى الأجساد بالنهار الثالث توفى الملائكة لها عند الموت . فهذه عشرة أدلة .

---

(١) وفى الآية دليل على عذاب البرزخ كما فى قصة آل فرعون وصرحت به آيات الواقعة وصحاح الأخبار كما يأتى .

الحادي عشر : قوله تعالى « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي فيعبادي وادخلي جنتي » وفيها ثلاثة أدلة أحـــدها وصفها بالرجوع ، الثاني وصفها بالدخول ، الثالث وصفها بالرضي .

واختلف السلف هل يقال لها ذلك عند الموت أو عنـــد البعث أو في الموضعين على ثلاثة أقوال : وقد روى في حديث مرفوع أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال لأبي بكر الصديق : اماأن الملك سيقولها لك عند الموت وقال زيد بن أسلم بشرت بالجنة عند الموت ويوم الجمع وعند البعث أي لظاهر قوله تعالى « لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » وقوله تعالى « تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » قال : قال أبو صالح : « ارجعي الى ربك راضية مرضية » هذا عند الموت « فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » قال هذا يوم القيامة ، فهذه أربعة عشر دليلا .

الخامس عشر : ما رواه النسائي ثنا أبو داود عن عفان عن حماد عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة أن أباه قال رأيت في المنام كأني أسجد على جبهة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأخبرته بذلك فقال ان الروح ليلقى الروح فاقنع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم — هكذا قال عفان — برأسه الى عنقه فوضع جبهته على جبهة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأخبر أن الأرواح تتلاقى في المنام وقد تقدم قول ابن عباس تلتقي أرواح الأحياء والأموات في المنام فيتســـاءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى .

الثامن عشر : قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في حديث بلال أن الله قبض أرواحكم وردها اليكم حين شاء ، ففيه دليلان وصـــفها بالقبض ووصفها بالرد .

العشرون : قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم انما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تعالى الى جسده يوم القيامة ، رواه

مالك (١) فى الموطأ وأحمد والنسائى باسناد صحيح عن كعب بن مالك قال وفيه دليلان أحدها كونها طائرا الثانى كونها تعلق فى شجر الجنة أى تطير أو تأكل على اختلاف التفسيرين .

الثانى والعشرون : قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت وتأوى الى قناديل معلقة بالعرش فاطلع الله عليهم اطلاعة ، فقال أى شيء تريدون . الحديث وفيه قالوا نريد أن نرد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى ، والحديث فى صحيح مسلم .

قال : وفيه ستة أدلة أحدها : كونهـا مودعة فى طير ، الثانى : أنهـا تسرح فى الجنة ، الثالث : أنها تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها ، الرابع : أنها تأوى الى تلك القناديل أى تسكن اليها ، الخامس : أن الرب تعالى خاطبها واستنطقها فأجابته وخاطبته ، السادس: أنها طلبت الرجوع الى الدنيا. فعلم أنها مما يقبل الرجوع الى الأجساد ، أى لا كما يزعمه أهل الفلسـفة والالحاد أن المادة غير قابلة ، وفى رواية : أرواح الشـهداء كطير ، وهذا ينفى توهم أن هذه صفات الطير لأن هذا خطاب وجـواب وطلب عاقل ، قال السيد محمد الأمير رحمه الله فى ذكر أحاديث أخرى غير ما تقدم أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ، واستخرج منهـا أدلة ومن غيرها بلغت نيفا وثلاثين .

ثم قال : الثالث والثلاثون ، أى من المستنبطة والا فهو السابع من أصل الأدلة : حديث البراء بن عازب مطولا فى كيفية قبض روح المؤمن وروح الكافر وما يخاطبان به ونحو ذلك ، وقد عزاه فى كتاب الروح الى الامام أحمد وأبى داود ، وروى الترمذى وابن ماجة أوله ورواه أبو عوانة الأسفرائينى فى صحيحه قال : وفيه عشرون دليلا : أحدها قول ملك الموت لنفس المؤمن « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية » وهذا خطاب لمن يفهم ويعقـل . الثانى قوله اخرجى الى مغفـرة من الله

---

(١) هذه الزيادة من قوله رواه مالك الى قوله عن كعب بن مالك من كتاب شرح الصدور

ورضوان ، الثالث قوله فتخرج تسيل كما تسيل القطرة فى السقاء ، الرابع قوله فلا يدعونها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها منه . الخامس قوله حتى يكفنوها ويحنطوها بكفن وحنوط من الجنة ، فأخبر أنها تكفن وتحنط السادس قوله ثم يصعد بروحه الى السماء ، السابع قوله ويوجد منها كأطيب نفحة مسك . الثامن قوله فتفتح له أبواب السماء التاسع قوله ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى تنتهى الى الرب تعالى ، العاشر قوله فيقول الله تعالى ردوا عبدى الى الأرض ، الحادى عشر قوله فترد روحه فى جسده أى للسؤال وهذه حياة غير حياة الدنيا والآخرة بل اتصال ما كما تقدم ويأتى ان شاء الله . الثانى عشر قوله فى روح الكافر فتفرق فى جسده فيجذبها فتنقطع منها العروق والعصب ، الثالث عشر قوله ويوجد لروحه كأنتن ريح وجدت على وجه الأرض ، الرابع عشر قوله فيقذف بروحه من السماءوتطرح طرحا فتهوى الى الأرض .

الخامس عشر : قوله فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة الا قالوا ما هذا الروح الطيب فى المؤمن وما هذا الروح الخبيث فى الكافر .

السادس عشر : قوله فيجلسانه ويقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل فان كان هذا خطاب للروح فظاهر ، وان كان للبدن فهو بعد رجوع الروح اليه من السماء .

السابع عشر : قوله فاذا صعد بروحه قيل أى رب عبدك فلان .

الثامن عشر : قوله ارجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فيرى مقعده من الجنة أو النار .

التاسع عشر : قوله فى الحديث اذا خرجت روح المؤمن صلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض ، فالملائكة تصلى على روحه وبنو آدم يصلون على جسده .

العشرون : قوله فينظر الى مقعده من الجنة أو النار حتى تقوم الساعة والبدن قد تمزق وتلاشى ، وانما الذى يرى المقعدين الروح ، قال ثم عد مائة وستة عشر دليلا من أدلة السنة والكتاب أى والعقل منها ما تقدم ، وقد

اقتصرت عليه لمطابقة الأدلة وهى مستنبطة من الأدلة التى ساقها حيث قال ونحن نسوق الأدلة على نسق واحد . قال : الأول أى من أصـــل الأدلة واستخرج منه ثلاثة أدلة ، ثم من الثانى ، ثم من الثالث والتجميل الذى جمله من العدد هو الذى استخرجه من الأدلة ، لا أنه بذلك العدد من أصل الأدلة بل أصلها سبعة كما قدمنا آخرها حديث البراء ، الا أنا نقلنا مما تركنـــاه قـــوله .

الرابع عشر بعد المائة : ان العقلاء كلهم متفقون على أن الانسان هو هذا الحى الناطق المتغذى النامى الحساس المتحرك بالارادة ، وهذه الصفات نوعان صفات لبدنه وصفات لروحه ونفسه الناطقة ، فلو كان الروح جوهرا مجردا لا داخلة العالم ولا خارجة عنه ولا متصلة به ولا منفصلة عنه ، أو كان بعضه فى العالم وبعضه لا خارج العالم ولا داخله ، وكل عاقل يعلم بالضرورة بطلان ذلك ، فان الانسان بجملته داخل العالم بدنه وروحه ، وهذا فى البطلان يضاهى قول من قال ان نفسه قديمة غير مخلوقة فجعلوا نصف الانســـان مخلوقا ونصفه غير مخلوق ، وقال قبل هذا : والذى عليه جمهور العقلاءأن الانسان هو الروح والبدن معا ، وقد يطلق اسمه على أحدهما دون الآخر لقرينة ، فالناس لهم أربعة أقوال فى مسمى الانسان : هل هو الروح فقط ، أو البدن فقط . أومجموعهما معا ، أو كل واحد منهما ، وانما تركنا هذا لأنه قال ان العقلاء كلهم متفقون على أن الانسان هو هذاالحى الناطق الخ ، وقد سلف له أن الناس لهمأربعة أقوال فىمسمى الانسانفناقض كلامه ، ويمكن التوفيق بين كلاميه بأن يقدر مضاف الى قوله العقلاء أى جمهورهم فهم من قوله آخرا أو الذى عليه جمهور العقلاء ، وان كان قوله كلهم لايساعد هذا الجمع بين كلاميه ا.هـ .

وقد أورد ابن القيم حجج وشبه المنازعين فى جسمية الروح وتحيزها ، وأنهاها الى نيف وعشرين شبهة ، وهى شبه فلسفية فى الأغلب ، وأجاب عنها جميعا وزيفها فردا فردا بكلام طويل ، وعقد لكل جواب فصلا مستقلا ، وصرح فى جواب الشبهة الحادية والعشرين بتكفيرمنكرى الجن والملائكة ،

وهذا من لوازم الفلسفة لانكارهم السموات فضلا عن سكانهــا والكتب والرسل واليوم الآخر كما عرفت ، أو ما علم من الدين ضرورة أو دليلا قاطعا فأهل الأصول يحكمون بكفره (١) وكــذلك الفقهــاء والمحــدثون وغيرهم وقد ذكر الله الجن والملائكة فى عدة آيات ، وجاء فى القرآن سورة الملائكة وسورة الجن ، والسنة طافحة متواترة بأحاديث الملائكة والجن كما يأتى ، ولكن الفلسفى لايقول بالوحى الربانى والشرائع الاســلامية ، ولا يحكم الا عقله الضــال المضل « بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » ولا يتحقق خلاف فى وجود الجن الا لأفراد من المعتزلة (٢) والباطنية والجهمية أما جمهور الأمة وأئمتها وجميع أهل الحديث والأصول والفقه والتصوف ، بل واليهود والنصارى فيثبتونهم تبعا للكتب السماوية الا من شــذ منهم لا سيما فى عصرنا ، وقد أوسع الكلام فى هذا صاحب آكام المرجان فى أحكام الجان فى مقدمة كتابه هذا وهو القاضى بدر الدين أبى عبد الله الشبلى الحنفى المتوفى سنة ٧٠٩ ، واذا تأملت ما بين العقلاء والناس فى كلام ابن القيم رأيت أن بينهما عموما وخصوصا وبهذا يزول الاشكال الذى أشار اليه السيد الامام الأمير فى كلام ابن القيم — تأمل .

***

ثم قال السيد محمد الأمير رحمه الله : والمسألة الثانية أشرنا اليهــا بقولنا ، وقد رأيت نقل هذه المسألة لأهميتها فى المقام والحاجة اليهــا بعد .

والنفس والروح همــا شيئان   وقيــل شيء واحــد والثــانى
اختــاره العــلامة ابن القيــم   لمــا رآه فى دليــل قيــم

قال ابن القيم اختلف الناس فى الروح والنفس ، فمن قائل أن مسماها واحد وهم الجمهور ، ومن قائل أنهما متغايران ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته فنقول تطلق النفس على أمور :

---

(١) تقدم أنه لا تكفير ولا تفسيق الا بدليل قاطع مع التــواتر عن القائل ليفيد العلم القاطع هذا فى أهل الاسلام المعلوم اسلامهم لأنا على علم من ايمانهم فلاتنتقل عنه الابدليل يفيد العلم.

(٢) يحقق المخالف من المعتزلة ويأتى فى آكام المرجان زيادة ايضاح وفى ذلك كله ماتقدم تعليقا وما يأتى .

أحدها الروح قال الجوهرى النفس الروح يقال خرجت نفسه ، والنفس الدم ، يقال سالت نفسه ، وفى الحديث كل ما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء اذا مات فيه وجعل هذا فى أساس البلاغة من قسم المجاز ، كقولهم أصابته نفس أى عين والنفس الجسد أى كما يقال فى التأكيد المعنوى جاء زيد نفسه ، ثم قال قلت النفس تطلق فى القرآن على الذات بجملتها أى جسدا وروحا ، قال تعالى : « فسلموا على أنفسكم » «يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها » « كل نفس بما كسبت رهينة » « وتطلق على الروح وحدها كقوله تعالى : « ياأيتها النفس المطمئنة » ، وقوله « اخرجوا أنفسكم » ، وقوله « ونهى النفس عن الهوى » ، وقوله « ان النفس لأمارة بالسوء » ، وأما الروح فلا تطلق على البدن بانفراده ولا مع النفس . وسميت الروح روحا لأنبها حياة الأبدان وسميت النفس روحالحصول الحياة بها ، وسميت نفسا اما عن الشىء النفيس لنفاستها وشرفها ومن تنفس الشىء اذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها فى البدن سميت نفسا ، ومنه النفس بالتحريك فان الانسان كلما نام خرجت منه واذا انتبه رجعت اليه ، فاذا مات خرجت منه خروجا كليا ، فاذا دفن عادت اليه أى عودا برزخيا لا كما كانت فى الدنيا . قال . فاذا سئل خرجت فاذا بعث رجعت اليه ، وهذا أتم رجوعها ، وبه كمال استقرارها ، ثم قال والفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا بالذات ، وانما سمى الدم نفسا ، لأن خروجه الذى يكون معه الموت يلازم خروج النفس ، وأن الحياة لا تتم الابه أى فى حق كل ذى دم ، كما لاتتم الا بالنفس فلهذا قال :

تسيل على حد الظبات نفوسنا   وليست على غير الظبات تسيل

ويقال فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت نفسه ، كما يقال خرجت روحه وفارقت ، الا أن الفيض الاندفاع وهلة واحدة ومنه الافاضة ، وهى الاندفاع بكثرة وسرعة ، لكن أفاض اذا دفع باختياره وارادته وفاض اذا اندفع قسرا وقهرا ، فالله سبحانه هو الذى يفيضها عند الموت فتفيض هى . وقالت طائفة أخرى من أهل الحديث والفقة والتصوف : الروح غير النفس ، قال مقاتل بن سليمان : للانسان حياة ونفس وروح فاذا نام خرجت نفسه التى يعقل

بها الأشياء ولم تفارق الجسد بل تخرج كحبل ممتد له شعاع فترى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه وتبقى الحياة والروح فى الجسد ، فبهما يتقلب ويتنفس فاذا حرك رجعت اليه أسرع من طرفة عين ، فاذا أراد الله عز وجل أن يميته فى المنام أمسك تلك النفس التى خرجت ، وقال أيضا (١) اذا نام خرجت نفسه فصعدت الى فوق فاذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح ويخبر الروح القلب فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت . وقالت طائفة وهم أهل الأثر أن الروح غير النفس والنفس غير الروح ، وقوام النفس بالروح ، والنفس صورة العبد والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها ، ولا عدوأعدى لابن آدم من نفسه ، فالنفس لا تريد الا الدنيا ولا تحب الا اياها ، والروح تدعو الى الآخرة وتؤثرها ، وجعل الهوى تبعا للنفس ، والشيطان تبع للنفس والهوى ، وأما الملك فهو مع العقل والروح ، والله تعالى يمدهما بالهامه وتوفيقه . قال وفى المسألة أقوال غير ظاهرة الدليل كبعض هذه الأقاويل . فان قلت كيف خاض العلماء فى الروح والله سبحانه وتعالى قد أخفى أمرها ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » .

قلت قد قال بعضهم أن الروح من أمر ربى ، أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق ، وقال آخرون هذا مبنى على أن المراد بالروح فى الآية هو هذا الذى نخوض فيه وكونه المراد بذلك منها مسألة نزاع بين المسلمين والخلق ، وأكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها فى الآية هو الروح الذى أخبر الله عنه بقوله « يوم يقوم الروح والملائكة » وذلك فى يوم القيامة ، وهو ملك عظيم ، وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ، قال بينا انا مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمشى فى جهة المدينة وهو متكىء على عسيب فمررنا على نفر من اليهود فقال بعضهم سلوه عن الروح ، فقال : يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت عنه

(١) أى مع الروح على مقتضى كلامه السابق ، وللبغوى هنا بحث حسن على القول باختلافهما فى تفسير قوله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها » نقله الأزرق فى تسهيل المنافع له فينقل منه المراد هنا ان شاء الله ويشير الى معناه كلام ابن خلدون فى مقدمة تاريخه ص ٩٠ .

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فعلمت أنه يوحى اليه فقمت عنه فلما تجلى عنه قال « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ومعلوم أنهم سألوه عن الأمر الذى لايعرف الا بالوحى وذلك هو الروح الذى عند الله لا يعلمها الناس ، وأما روح بنى آدم فليست من الغيب (١) وقد تكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة . قلت ، بل قال الرازى فى مفاتح الغيب أن مسألة الروح يعرفها أصاغر الفلاسفة وأراذل المتكلمين ، فلو قال الرسول لا أعرفها لأوجب ذلك التحقير والتنفير ، فان الجهل بمثل هذه المسألة يفيد تحقير أى انسان كان فكيف بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذى هو أعلم العلماء وأفضل الفضلاء . قلت : ويأتى للرازى أن السؤال عن الروح انما هو هل هى قديمة أو حادثة ؟ ويأتى بيانه ، وقد بينه بروايات فى تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما فى سبب السؤال ووقته والمسئول عنه ، وهى رواية مضطربة كما قال ابن القيم ، وساقها فى كتابه وبين أوجه الاضطراب . قلت : وفيه تأمل ومناقشة لا تخفى على المتأمل ، ويرشد اليها ما يأتى عن الرازى ولفظ ما يسأل بها عن الماهية كأنهم قالوا ما ماهية الروح ، وأما العلم بوجودها فى الأجساد فأمر آخر لا يسأل عنه عاقل فتأمل . قال : والروح فى القرآن يطلق على عدة وجوه .

الأول الوحى كما قال تعالى « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » وقوله « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » وسمى الوحى روحا ، لما يحصل به من حياة الأرواح والقلوب .

الثانى القوة والثبات والنصرة التى يؤتيها الله من يشاء من عباده المؤمنين ، كما قال تعالى « أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » .

---

(١) بل هى من الغيب وانما كلام الناس فيها رجما بالغيب وكل مالا يدرك بالحس والعقل والنفس والروح والحياة والمدرك انما هو المتصف بذلك لظهور آثارها ، والعقل انما يدرك ذلك بواسطة الحواس اذ لايدرك لذاته الا الكليات والجزئيات المجردة .

الثالث جبريل عليه السلام ، ومنه قوله تعالى « نزل به الروح الأمين على قلبك » وهو روح القدس قال تعالى « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » .

الرابع الروح الذى سأل عنه اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله ، وقد سلف أنها الروح المذكورة فى قوله تعالى « يوم يقوم الروح » والمذكورة فى قوله تعالى « تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم » اهـ وفيه تأمل ، يظهر مما تقدم . والظاهر أن السؤال عن الروح الذى به حياة الحيوان اذ لم يقف على حقيقته أحد لا فلاسفة ولا أهل الكتاب ولا أهل الكلام من الأولين والآخرين الا ظنونا وحدسا وتخمينا ، فلهذا سألوا عنه ليكون الجواب عن وحى مفيد لأنهم يعلمون نبوته عليه السلام ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، قال

الخامس المسيح بن مريم عليه السلام قال تعالى « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها (١) الى مريم وروح منه » وأما أرواح بنى آدم فلم يقع تسميتها فى القرآن الا بالنفس قال تعالى « يا أيتها النفس المطمئنة » « ولا أقسم بالنفس اللوامة » « ان النفس لأمارة بالسوء » « اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون » « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » « كل نفس ذائقة الموت » .

وأما فى السنة فجاء بلفظ الروح كما تقدم ومنه حديث الأرواح جنود مجندة ، وأرواح المؤمنين تعلق فى شجر الجنة ، وأرواح الشهداء فى أجواف طير خضر ، قلت وهذا يؤيد المناقشة السابقة ، وأما المانع أن يكون السؤال عن ماهية الروح التى تحيا بها الأجساد والتى تحير فيها الأولون والآخرون كما يأتى عن الرازى قريبا ، وأين الدليل على أنهم أرادوا بالروح فى سؤالهم الملك العظيم . قال فهذا منتهى البحث فى المسألة الأولى ، وأما المسألة الثانية وهى كون الروح حادثة أو قديمة ، وهى مسألة ضل فيها

(١) الا فى مثل « ونفخت فيه من روحى » كما مر وهى روح الحياة بعد تسوية آدم شبحا من طين وهى المسئول عنها فى قوله « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » على الأظهر .

طوائف بنى آدم وهدى الله أتباع رسله فيها للحق المبين ، فنقول أجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل عليهم السلام ، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث وأن معاد الأبدان واقع وأن الله تعالى هو الخالق وأن كل ما سواه مخلوق له ، أى الا ما خصه عقل أو نقل كأفعال العباد الاختيارية ، قال وقد انقضى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون المفضلة على ذلك من غير اختلاف بينهم فى حدوثها وأنها مخلوقة حتى نبعت نابعةممن قصر فهمهفى الكتاب والسنةفزعمأنها قديمة غيرمخلوقة ، واحتج بأنها من أمر الله وأمر الله غير مخلوق ، وبأنه تعالى أضافها اليه فقال « فاذا سويتهونفختفيه من روحى» «فنفخنا فيه من روحنا» كما أضاف علمه اليه وكذا قدرته وتوقف آخرون . قال المحقق ابن تيمية روح الآدمى مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة ، وقد حكى اجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين ، بل حكاه محمد بن نصر المروزى الامام المشهور الذى هو من أعلم أهل زمانه بالاجماع والاختلاف ، وحكى ذلك أبو محمد بن قتيبة وألف فيه أبو عبد الله بن منده ، والذى يدل على أنها مخلوقة وجوه .

الأول قال الله تعالى « خالق كل شيء » فهذا اللفظ عام أى الا ما خصه عقل أو نقل كما مر وقد استدل الرازى بالآية التى استدل بها القائل بقدمه ، وهو قوله « قل الروح من أمر ربى » بعد أن قرر أقوالا يحتملها سؤالهم بقوله « ويسألونك عن الروح » وقرر أن أقرب تقادير السؤال أن يكون المراد يسألونك عنها هل هى قديمة أو حادثة ، فأجاب الله بقوله تعالى « قل الروح من أمر ربى » بأنه موجود محدث بأمر الله وتكوينه وتأثيره فى افادة الحياة لهذا الجسد ، ولفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل ، قال الله تعالى « وما أمر فرعون برشيد » ، أى فعله وقال « فلما جاء أمرنا » أى فعلنا فقوله «قل الروح من أمر ربى ، أى من فعل ربى ، أى بفعل الله وايجاده وتكوينه ، ثم احتج على حدوثها بقوله « وما أوتيتم من العلم الا قليلا »

يعنى ان الأرواح تكون خالية فى مبدأ الفطرة عن العلوم والمعارف ، ثم تحصل لها المعارف والعلوم ، فهى لا تزال تكون فى التغيير من حال الى حال ،وفى التبدل من نقصان الى كمال ، والتبدل والتغير من أدلة الحدوث ، فقـوله « قل الروح من أمر ربى » يدل على أنهم سألوه عن الروح هل هى حادثة أم لا ، فأجاب بأنها حادثة واقعة بتخليق الله وتكوينه ، وهو المراد من قوله « قل الروح من أمر ربى » ثم استدل على حدوث الأرواح بتغييرها من حال الى حال بقوله « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » اهـ . وقد ذكر أن للناس فى المراد بالروح فى الآية خمسة أقوال كما تقدم واختار ما ذكرناه أنه الروح الذى به حياة الحيوان ، وأن السؤال عن قدمه أو حـدوثه ، ثم قال ابن القيم :

ومنها النصوص الدالة على أنه كان الله ولم يكن شيء غيره كما ثبت فى صحيح البخارى عن عمران بن حصين ، ومنه قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، والحديث دال على أنه لم يكن مع الله أرواح ونفوس يساوى وجودها وجوده تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره فى أوليته بوجه من الوجوه .

ومنها النصوص الدالة على خلق الملائـكة وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها وهم مخلوقون قبل الانسان وروحه ، فاذا كان الملك الذى ينفخ فيحدث الروح فى جسم ابن آدم باذن الله مخلوقا فكيف تكون الروح الحادثة بنفخة قديمة ؟! قال السيد الامام الأمير : قلت أما هذا الدليل فليس بناهض ، لأنه يقول الخصم ارسال الملك بنفخة لا يدل على حدوثه اذ قـد يرسل بالشيء القديم عندهم يجعله فى الحادثات ، كما يقولونه فى الكـلام أنه قديم وأنه ينزل به الملك (١) فيلقيه الى رسول الله صـلى الله عليـه وعلى آله وسلم ، ففى غيره من الأدلة غنية ، وقد تنبه لهذا ابن القيم وحاول

(١) انما الكلام القديم عندهم صفة للذات كالعلم وأما المنزل فهو حكاية عنه ، كذا عنـد محققى الأشعرية فالدليل ناهض .

الجواب خصاما لا استدلالا ، قلت وقد يفترق الحال عندهم بين من يخص قدم الكلام بالنفس دون ما هو عبارة عنه وبين من يعمم فاللزوم لازم لمن عمم فتأمل ، قال ومن الأدلة على حدوثه حديث أبى هريرة ، الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف ، وهذا الحديث فى صحيح البخارى وغيره عن جماعة من الصحابة غير أبى هريرة ، قال والجنود المجندة لا تكون الا مخلوقة ،قال الامام الأمير قلت كونها لا تكون الا مخلوقة تفتقر الى الاستدلال عليه . انتهى . وقد يقال : أن الجنود مؤلفةمن جماعات مختلفة وكل مؤلف حادث ، ثم هى مجندة باسم المفعول ، والمفعول من وقع عليه فعل الفاعل ، وما وقع عليه فعل الفاعل فهو محدث ، ثم تأتلف وتختلف وتتناكر وتتعارف وهذه من صفات الحدوث ، ثم قال الله « ولله جنود السموات والأرض » أى خلقا : عبدا أو ملكا ، كما قال « ولله ملك السموات » وهى داخلة فى ذلك ، وكما قال « ان كل من فى السموات والأرض الا آت الرحمن عبدا » وهى داخلة فى ذلك ، لأن الأرواح من ملك الله فى السموات والأرض ، فهى من العالم والعالم كله محدث مخلوق ، وهو خالق كل شيء الا ما خصه عقل أو نقل ، ولم يقم دليل ناهض على قدم الأرواح اللهم الا فلسفة الفلاسفة القائلين بقدم العالم والنفوس والأفلاك كما مر ، فهم أصل كل شقاق وضلال ، ثم قال : ومن الأدلة على ذلك أن الروح يوصف بالوفاة والقبض والامساك والارسال وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب أى بناء على اتحاد النفس والروح كما رجح ذلك ابن القيم ، ودعوى التعدد لم ينهض عليها دليل كما تقدم ، قال السيد الامام الأمير قلت دليل الرازى ناهض جدا والتحقيق أنه قد ثبت أنه لاقديم الا الله ، وقامت عليه الأدلة فى علم الكلام ، وكل من أدعى قديما معه تعالى فعليه البرهان ، ولم نجد لمن ادعى قدم الأرواح دليلا ينتهض ، وقولهم انه من أمر الله ، كما قال تعالى ، وأمر الله غير مخلوق ولأنه أضافه اليه لقوله من روحى كما أضاف اليه سمعه وبصره ورحمته ، ما هو من صفاته مما ليس بمخلوق ،فالجواب : عن أمر الله ما سمعته من كلام فخر الدين الرازى من أنه فعله وخلقه وتكوينه، فالآية دليل على خلقه كما قدمنا عند تقريره تقريرا بديعا ، وأما اضافته اليه

فمخلوقاته تضاف اليه مثل ناقة اللهوعباد الله وبيتالله «أنطهربيتى» أرضى واسعة» والأرض أرض الله كما فى الحديث. وقالتعالى أرضىوسمائى كما فى الحديث القدسى ، وقال : «فادخلى فىعبادى وادخلى جنتى » والجنـــة وكلما ذكرناه مخلوق باتفاق ، فليسفى الاضافة حجة على القدم . واحتجوا بحديث ان الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفى عام ذكره من أدلتهم أبو عبد الله بن منده قلت ولا يخفى أن هذا الحديث لو ثبت لكان دليلا لنا عليهم لأنه أخبربأنها مخلوقةوهم يدعون أنهاقديمة ، وأما كونها خلقت قبلالأجساد أو بعدها فبحث آخر ليس من محل النزاع ، بل بحث دخيل هنا ، على أن ما خلق قبل غيره بألفى عام أو عشرة آلاف عام أو أكثر كخلق العالم مثلا بالنسبة الى الأرواح فقد وجد له ابتداء وذلك من سمات الحدوث واتصف بالقبلية المقيدة وهى من علامات الحدوث ، وكل حادث ليس بقديم لمابين الحـــدوث والقدم من كمال التناقض والتضاد كما بين الوجود والعدم ، قال رحمه الله وابن القيم قد أطال المقاولة فى هذا البحث واختار أن الأرواح تخلق بعد خلق الأجساد وأطال فى هذا ورد بما خالفه والذى قوى لنا أنها مخلوقة قبل خلق الأجساد قبلية غير معلوم زمانها ولا ابتداؤه ، وذلك أن أدلة القائل بتقدم خلقها واضحة وتكلف ابن القيم لردها فما نهض ماقاله ، ولولا محبة الاقتصار لسقت كلام الفريقين وحاكمت الطائفتين أى وعلى التقـــديرين فالطائفتان متفقتان على خلق الأرواح وحدوثها كما تقدم ، ولمزيد الافادة أحببت نقل الكلام فى موت الأرواح وأنه عبارة عن مفارقة الأجساد لتقرير الحق وازاحة شبه الالحاد والفلسفة ومن قفاها .

قال رحمه الله :

ومـــوتها خـــروجها مـــن البـــدن ... هـــذا الذى يختـــاره ذو الفطـــن

فهـــذه الأربـــع فى المســـــائل ... مشرقـــة الأنـــوار والدلائـــــل

هذه المسألة الرابعة ، وهى : هل تموت الروح أولا ؟

وقال ابن القيم :

اختلف الناس فى هذه المسألة ، فقالت طائفة تموت وتذوق الموت ، لأنها نفس ، وكل نفس ذائقة الموت . قالوا : وقد دلت الأدلة على أنه لايبقى

الا الله وحده ، قال تعالى « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » وقال « كل شيء هالك الا وجهه » قالوا واذا كانت الملائكة تموت فالنفس البشرية أولى بالموت ، قالوا وقد قال أهل النار « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » فالموتة الأولى هذه المشهورة وهى للبدن والأخرى للروح أى عند أن ينفخ فى الصور فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض الا أن الاستثناء فى الآية بقوله « الا من شاء الله » يفت فى عضد هذا الدليل لعمومه كما يأتى عموما اضافيا ، ودرجات العموم تتفاوت بالنظر الى المستثنى أو المستثنى منه اذا كانا بلفظ العموم كما هنا ، ومثل قولك جاء الناس أو الجند الا بنى تميم .

قال : وقال آخرون : لاتموت الأرواح لأنها خلقت للبقاء ، وانما تموت الأبدان فى الدنيا ، قالوا : ويدل على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها فى البرزخ بعد مفارقة الأبدان الى أن يرجعها الله الى أجسادها ، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب ، وقد قال تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » فهذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت أى بمفارقة الأجساد ، ولهذا قال والصواب أن يقال ان موت النفوس هو مفارقتها أجسادها وخروجها منها ، فان أريد بموتها هذا القدر فهى ذائقة الموت ، وان أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضا فهى لا تموت بهذا الاعتبار ، بل هى باقية بعد مفارقة الأجساد فى نعيم مقيم أو عذاب أليم كما سيأتى ، وقد صرحت النصوص بأنها كذلك حتى يردها الله الى أجسادها ، وقد نظم هذا الخلاف أحمد بن الحسين الكندى فقال :

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب والخلف فى الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

قلت : والشجب بفتح الشين المعجمة والجيم آخره باء موحدة : الهلاك كما فى القاموس ، يريد أنهم اختلفوا فى كل شيء الا فى الهلاك أى الموت ،

ثم قال أيضا اختلفوا فى الهلاك ، فقالت طائفة تهلك النفوس مع الأبدان فتساوى الجسم فيه ، وقيل بل تخلص سالمة عند الهلاك .

فان قيل فعند النفخ فى الصور هل تبقى الروح حية كما هى أم تموت ثم تحيى ، قيل قد قال تعالى « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله » فقد استثنى سبحانه وتعالى بعض من فى السموات والأرض عن هذا الصعق ، فقيل هم أرواح الشهداء وهو قول أبى هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير ، وقيل هم جبريل وميكائيل ، واسرافيل وملك الموت ، وهذا قول مقاتل وغيره ، وقيل هم الحور العين وغيرهن ، ومن فى النار من أهل العذاب وخزنتها ، وهو قول أبى اسحاق بن شاقلا من أصحابنا ، وقد نص الامام أحمد على أن الحور العين والولدان لايموتون عند النفخ فى الصور ، وقد نص تعالى على أن أهل الجنة « لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى » فلو ماتوا فيها مرة ثانية لكانوا قد ماتوا موتتين ، أى ولا مانع من أن الأرواح خارجة عن الصعق لأن الصعق للأحياء كما قال تعالى «ماينظرون الا صيحة واحدةتأخذهم وهم يخصمون» وأما الأرواح فهى فى عالم البرزخ والبرزخ من أمور الآخرة ولا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر فى الاستثناء .

قال : وأما مستقرها بعد خروجها من البدن فقد قدمنا بيانه والخلاف فيه ، قلت تقدم هنا ما يؤخذ منه مقر الأرواح لأنها اما أن تكون فى الجنة جنة المأوى أو فى عذاب النار الى يوم ينفخ فى الصور ، كما قال تعالى فى آل فرعون « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا » وقال فى حق الكفار « أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون » وسائر الأحاديث تفيد ذلك، وأماالأقوال فقد استوفاها الحافظ السيوطى فى باب خاص من كتاب شرح الصدور لا طائل تحتها فى الأغلب ، وقد يمكن أن يختلف مقر الأرواح كما يختلف أنواع الثواب ومقرها وأصناف العقاب ومقرها ، وهذا أحسن جمع فى ذلك ولكن فيما صح دليله شرعا فتأمل .

قال : وللروح بعد فراقها للبدن اتصال به فيعرف زائره وغيره ، ثم ذكر تعليقات الروح بالبدن ، وقد تقدم أيضا فقال :

وتعلقات الروح بالبدن خمسة تعلقات

الأول تعلقها به فى بطن أمه جنينا وذلك بعد نفخها فيه .

الثانى تعلقها به بعد خروجه الى الأرض .

الثالث تعلقها به حال النوم فان لها به تعلقا من وجه ومفارقة من وجه .

الرابع تعلقها به فى البرزخ فانها وان فارقته وتجـردت عنه فانها لم تفارقه فراقا كليا بحيث لايبقى لها اليه التفات البتة ، وقد تقدم من الآثار والأحاديث والمنامات الصادقة ما يدل على ردها اليه وقت سلام المسلم أى وعند السؤال ، قال وهذا الرد اعادة خاصة لا توجب حياة البدن مثل يوم القيامة ذكره ابن القيم اهـ . وقد سقط التعلق الخامس هنا ، وهو كما فى كتاب الروح .

الخامس تعلقها به يوم البعث للأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق اليه ، اذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتا ولا نوما ولا فسادا اهـ . وهذا يشعر بأن أجسام أهل الآخرة أجسام قوية لا تقبل التأثر ولا الموت وسائر العوارض البشرية كما يشعر بهذا أحاديث عظم أجســام أهل الجنــة وأهل النار وهى ثابتــة كثيرة « بل هم فى لبس من خلق جديد » قوله ولا نوما ، يشير الى حديث جابر بن عبد الله يرفعه ، النوم أخو الموت ولا يموت أهل الجنة رواه البيهقى فى شعب الايمان كما فى كنز العمال ص ٢٣٣ ج ٨ وهو جواب سؤال وقد بوب عليه الحافظ الهيثمى ص ٤١٥ ج ١٠ من مجموع الزوائد فقال (باب) أهل الجنة لا ينامون عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقيل يا رسول الله أينام أهل الجنة فقال النوم أخو الموت وأهل الجـنة لا ينامون رواه الطبراني فى الأوسط والبزار ، ورجـال البزار رجـال

الصحيح ا.هـ وبعد هذا فاليك كلام الامام القاسم بن محمد عليه السلام فى الأساس وشرحه الصغير عدة الأكياس للسيد العلامة احمد بن محمد بن صلاح الشرفى رحمه الله وأقوال أئمة الآل فى الروح .

***

فصل

والروح أمر استأثر الله بعلمه أى شيء خلقه الله لا يعلمه الا هو جل وعلا . لقوله تعالى «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى» أى من خلقه وعطيته وآياته . «وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وهو ما لايكون الحيوان حيا الا به ، وادعاء معرفة حقيقته قريب من دعوى علم الغيب لفقد الدليل . أى لعدم الدليل على معرفة حقيقته الا التخيل أى التوهم الكاذب والاستثناء منقطع أى لكن ولكن كثيرا من علماء الكلام خاضوا فيه وذكروا أقوالا فى ماهيته هى فى الحقيقة خيالات حتى قال والله تعالى يقول « ولا تقف ماليس لك به علم » أى لا تتبع ما لاتعلم ويقول عز وجل فى مدح المؤمنين « والذين هم عن اللغو معرضون » وروى عن على أمير المؤمنين كرم الله وجهه أنه سأله يهودى فقال أخبرنى عن الروح ما هو ؟ فان أبنته لى آمنت من ساعتى فقال له على عليه السلام : اعلم أن الروح شيء أوجده الله من ملكه وأودعه فى ملكه ، وجعل له أجلا معلوما ورزقا مقسوما فاذا فرغ مالك عنده من الرزق أخذ ماله عندك من الروح ، فأسلم اليهودى . وروى أن اليهود بعثت الى قريش أن سلوا محمدا عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح ، فان أجاب عنها كلها أو سكت عنها فليس بنبى ، وان أجاب عن بعضها وسكت عن بعض فهو نبى فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة .

واعلم أن الروح عند القاسم بن ابراهيم والهادى والناصر والامام الحسين بن القاسم العيانى والمؤيد بالله والامام احمد بن سليمان والامام المهدى وغيرهم من أئمة أهل البيت عليهم السلام وغيرهم جسم أى لطيف

لا يعلم حقيقته الا الله ، قال الهادى عليه السلام فى جواب مسائل الرازى ، وقلت كيف يميت الله البدن ولا يميت الروح وكل سيموت ، فأما معنى خير الله من أحياء الروح فان ذلك بحكمة الله وفضله ، وما أراد من الزيادة فى كرامة المؤمنين وأراد من الزيادة فى عذاب الفاسقين ، فجعل الروح حية باقية الى يوم الدين ليكون روح المؤمن بعد فناء بدنه بالبشارات والنعيم والسرور والحبور بما يسمع من تبشير الملائكة بالرضا والرضوان من الواحد ذي الجلال والسلطان ، وما أعدله من الخير العظيم والثواب الجسيم ، كل ذلك يتناهى اليه علمه ويصل به من ربه فهمه ، فيكون ذلك زيادة فى ثوابه ومبتدأ ما يريد الله من اكرامه حتى يكون يوم القيامة المذكور يوم ينفخ فى الصور النفخة الأولى فيقع بهذا الروح من الموت (١) ما يقع بغيره فى ذلك اليوم فيموت ويفنى كما فنى البدن أولا ، وكذلك تدبير الله فى ابقاء روح الكافر بعد هلاك بدنه لما فى بقاء روحه من الحسرة عليه والبلاء بما يعاين ويوقن ويبلغه من أخبار الملائكة بما أعدالله له من الجحيم والأغلال والسعير وشرب الحميم وما يصير اليه من العذاب الأليم ، فروحه فى خزى وبلاء حتى ينفخ فى الصور فيحق بهذا الروح ما حق بغيره من الفوت ويواقعه ما واقع جسمه من الموت ثم ينفخ النفخة الثانية من بعد موت كل شىء وهلاك كل حى ما خلا الواحد الفرد الصمد المميت الذى لا يموت ، المحيى الذى لا يخشى من شىء فوتا ، ولو كانت الأرواح تموت مع موت الأبدان لكان فى ذلك فرج وراحة للكفار ، وغفلة وفرحة للأشرار ، ولكان ذلك غما وكآبة على المؤمنين ونقصانا وتضعضعا لسرور الصالحين ، فافهم ثاقب حكمة الله وتدبيره ا.هـ.

ويؤيد ما تقدم من الحجج على بقاء الروح واستقلالها أيام البرزخ بعد فناء الأجسام وتبددها ، ما فى ذلك للأرواح المؤمنة من النعيم ، وما فى ذلك للأرواح الكافرة وأصحابها من العذاب الأليم ، كما وردت النصوص كتابا وسنة ، ولهذا قال الشارح مؤيدا ومؤكدا لذلك . وقال المؤيد بالله عليه السلام : الروح والهوى جسمان لطيفان ، والعقل عرض . قلت ويؤيد هذا

(١) والراجح ماتقدم ان الروح لا يمسها الموت عند الصعق .

ما روى عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « ما من مؤمن يمر بقبر رجل ، كافرا كان أو مؤمنا ، يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه الا عرفه ورد عليه » وعنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم . الله الله فى اخوانكم من أهل القبور ، فان أعمالكم تعرض عليهم » وعنه عليه الصلاة والسلام « تعرض أعمالكم على الموتى فان رأوا حسنة فرحوا بها واستبشروا ، وقالوا اللهم أن هذه بمنك على عبدك فأتمها ، وان رأوا سيئة قالوا اللهم راجع به » وفى حديث « أن الميت ليعرف من يحمله ويغسله ومن يدليه حفرته » وفى رواية « ان الميت اذا وضع فى قبره سمع خفق نعالهم اذا انصرفوا » ، وغير ذلك مما يؤدى هذا المعنى كثير ، وقد بسطت كلام الأئمة عليهم السلام فى هذا الموضع فى الشرح الكبير ، قال الامام القاسم عليه السلام وكذلك القول فى كثير من مسائل فن اللطيف المذكورة فى رياضة الأفهام وغيره أى كما فى المواقف والتجريد وطوالع الأنوار المتقدم ذكرها ففيها من فن اللطيف مجاراة للفلاسفة ما لا يخفى ، وان كان قصد المؤلفين جبه الفلاسفة وكبح عنان أهوائهم ، لتفريعهم فروعا فاسدة بناء على أصولهم الباطلة ، قال عليه السلام ونحو مساحة الأرض أى معرفة مقدارها وكم هى فراسخ ونحو ذلك .ا.هـ . لابتنائها حينئذ على الحدس والتخمين ولهذا قرر المتأخرون خلاف ذلك لتمكنهم من الوسائط . على أن ذلك لايخرج عن الخرص والحدس والتخمين ، وجميع هذه الأحاديث تفيد أن الروح هى التى عليها واليها يساق الحديث أيام البرزخ لتحقق موت الأجسام وذهابها حسا كما مر .

ويؤيد كلام الامام القاسم بن محمد عليه السلام فى المنع من الخوض فى معرفة ماهيةالروح ظاهر الآية وأقوال جماعة حكاها الحافظ بن حجر فى فتح البارى فى تفسير الآية ، وقد أورد القصة البخارى فى كتاب العلم وفى كتاب التفسير وفى كتاب الاعتصام وفى كتاب التوحيد ، فساق الحافظ ابن حجر كلام الرازى ص ٣٢٤ ج ٨ ويغنى عنه ما تقدم الى أن قال وقد سكت السلف عن البحث فى هذه الأشياء والتعمق فيها اهـ . قال الحافظ وممن رأى الامساك عن الكلام فى الروح أستاذ الطائفة أبو القاسم فقال

فيما نقله فى عوارف المعارف عنه بعد أن نقل كلام الناس فى الروح وكان الأولى الامساك عن ذلك والتأدب بأدب النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم نقل عن الجنيد أنه قال الروح استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحدا من خلقه فلا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود ، وعلى ذلك جرى ابن عطية وجمع من أهل التفسير ، وأجاب من خاض فى ذلك بأن اليهود سألوا عنها سؤال تعجيز وتغليظ لكونه يطلق على أشياء فأضمروا أنه بأى شىء أجاب قالوا ليس هذا المراد فرد الله كيدهم وأجابهم جوابا مجملا مطابقا لسؤالهم المجمل .

وقال السهروردى فى العوارف : يجوز أن يكون من خاض فيها سلك سبيل التأويل لا التفسير ، اذ لايسوغ التفسير الا نقلا ، وأما التأويل فتمتد العقول اليه بالباع الطويل وهو ذكر مالا يحتمل الا به من غير قطع بأنه المراد ، فمن ثم يكون القول فيه . قال : وظاهر الآية المنع من القول فيها لختم الآية بقوله « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » أى اجعلوا حكم الروح من الكثير الذى لم تؤتوه فلا تسألوا عنه فانه من الأسرار .

وقد خالف الجنيد ومن تبعه من الأئمة من متأخرى الصوفية فأكثروا من القول فى الروح ، وصرح بعضهم بمعرفة حقيقتها وعاب من أمسك عنها ، ونقل ابن منده فى كتاب الروح له عن محمد بن نصر المروزى الامام المطلع على اختلاف الأحكام من عهد الصحابة الى عهد فقهاء الأمصار ، أنه نقل الاجماع على أن الروح مخلوقة ، وانما ينقل القول بقدمها عن بعض غلاة الرافضية والمتصوفة ، واختلف هل تفنى عند فناء العالم قبل البعث أو تستمر على قولين ، والله أعلم .

وقال الحافظ ابن حجر وقد تنطع قوم فى الكلام على الروح فتباينت أقوالهم ، فقيل هى النفس الداخل والخارج ، وقيل الحياة ، وقيل جسم لطيف يحل فى جميع البدن ، وقيل الدم ، وقيل عرض ، حتى قيل أن الأقوال فيها قد بلغت مائة .

وقال ابن العربى : اختلفوا فى الروح والنفس ، فقيل متغايران وهو الحق ، وقيل هما شىء واحد ، وقد يعبر بالروح عن النفس وبالعكس (١) كما يعبر عن الروح وعن النفس بالقلب وبالعكس ، وقد يعبر عن الروح بالحياة حتى يتعدى ذلك الى غير العقلاء بل الى الجماد مجازا .

وقال السهيلى يدل على مغايرة الروح والنفس قوله تعالى « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى » وقوله « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » فانه لايصح جعل أحدهما موضع الآخر ولولا التغاير لساغ ذلك ا.هـ.

وقد تقدم ما نقلته أخيرا عن الفتح ، انما قصدت التأكيد ، قال الحافظ وقال ابن بطال : معرفة الروح مما استأثر الله بعلمه بدليل هذا الخبر ، يعنى حديث البخارى المتضمن لنزول الآية ، قال : والحكمة فى ابهامه اختبار الخلق ليعرفهم عجزهم عن علم مالا يدركونه وأن كان موجودا قائما بهم حتى يضطرهم الى رد العلم اليه .

وقال القرطبى : الحكمة فى ذلك اظهار عجز الانسان ، لأنه اذا لم يعلم حقيقة نفسه (٢) مع القطع بوجوده كان عجزه عن ادراك حقيقة الحق من باب الأولى .

وجنح ابن القيم فى كتاب الروح الى ترجيح أن المراد بالروح المسئول عنها فى الآية ما وقع فى قوله تعالى « يوم يقوم الروح والملائكة صفا » قال : وأما أرواح بنى آدم فلم يقع تسميتها فى القرآن الا نفسا ، كذا قال ، ولا دلالة فى ذلك لما رجحه ، بل الراجح الأول ، فقد أخرج الطبرى من

---

(١) قوله وبالعكس هذا يخالف ما تقدم عن الامير فى جمع التشتيت والظاهر ما هنا

(٢) الأنسب روحه وكأنه يرى أنهما مترادفان .

طريق العوفى عن ابن عباس فى هذه القصة أنهم سألوا عن الروح وكيف يعذب الروح الذى فى الجسد وانما الروح من الله ، فنزلت الآية ا.هـ.

وهذا يلفت النظر الى ما تقدم فى جمع الشتيت شرح أبيات التثبيت وما الحقت به فحرر والله الموفق .

***

انتهى نسخه فى الثانى والعشرين من المحرم سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وألف من هجرة المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم — بقلم المؤلف ونجله العلامة على محمد الشرفى .

آخر الجزء الأول ويتلوه الجزء الثانى وأوله الفصل العاشر • وقد قوبل هذا الفرع وصحح على أصله بقدر الطاقة ، ورحم الله امرأ رأى خلافا فأصلحه ، أو خفاء فأوضحه ، والمؤمن مرآة المؤمن . انتهى .

***

فهرس